تطور القرآن التاريخي

كانون سِل



ترجمة
مالك مسلماني

www.muhammadanism.org
November 29, 2011
Arabic



THE

HISTORICAL DEVELOPMENT

OF THE QUR'AN

BY

THE REV. CANON SELL, D.D., M.R.A.S.

AUTHOR OF 'THE FAITH OF ISLAM,' 'THE RELIGIOUS ORDERS OF ISLAM,' 'THE LIFE OF MUHAMMAD,' 'ISLAM: ITS RISE AND PROGRESS'

Simpkin, Marshall, Hamilton, Kent & Co.
London, England

4th Edition

1923



فهرس

مقدمة

لا يهدف هذا العمل إلى سرد سيرة حياة مُحَمّد. إنه تاريخ تطور القُرْآن، يُظهر كيف أن تكوّنه التدريجي كان محدداً بأحداث حياة النَّبِيّ. وإذ ما تم تناوله بهذه الطريقة، فإن القُرْآن يكشف عن تغير مواقفه تجاه مختلف طبقات الأفراد الذين اتصل بهم؛ وبمجارات تعليماته للواقع، واعتذاراته وشجبه، فإننا قادرون على رؤية مدى عمق تطابقه مع متطلبات الإِسْلام في طور نهوضه.

لقد اقتفيت، فيما تعلق بتواريخ وترتيب سور القُرْآن، أثر نِلدِكه في عمله (*Geschichte des Qorāns*)، إذ يبدو لي أنه الكتاب الأفضل والأكثر موثوقية في هذا المجال. ويُظهِر الجدول التالي الترتيب الذي وضعه نِلدِكه للسور، فهو يقسم السور المَكّيّة إلى ثلاث مجموعات هي العهد المبكر والأوسط والمتأخر، ويضع السور المَدَنيّة جميعها ضمن المجموعة الرابعة.

السور المَكّيّة

العهد الأوّل. ــ من مستهل البعثة النّبويّة إلى السنة الخامسة منها. ٦١٢ ــ ٦١٧ ميلاديّة.

٩٦	٧٤	١١١	١٠٦	١٠٨	١٠٤	١٠٧	١٠٢	١٠٥	٩٢	٩٠	٩٤
٩٣	٩٧	٨٦	٩١	٨٠	٦٨	٨٧	٩٥	١٠٣	٨٥	٧٣	١٠١
٩٩	٨٢	٨١	٥٣	٨٤	١٠٠	٧٩	٧٧	٧٨	٨٨	٨٩	٧٥
٨٣	٦٩	٥١	٥٢	٥٦	٧٠	٥٥	١١٢	١٠٩	١١٣	١١٤	١

العهد الثّاني. ــ السّنتان الخامسة والسّادسة لبعثة النَّبِيّ. ٦١٧ ــ ٦١٩ ميلاديّة.

٥٤	٣٧	٧١	٧٦	٤٤	٥٠	٢٠	٢٦	١٥	١٩	٣٨
٣٦	٤٣	٧٢	٦٧	٢٣	٢١	٢٥	١٧	٢٧	١٨	

العهد الثّالث. ــ من السّنة السابعة حتى الهجرة. ٦١٩ ــ ٦٢٢ ميلاديّة.

٣٩	٢٨	٤٠	١٢	١٤	١١	٣٠	١٦	٤٥	٤١	٣٢
	١٣	٦	٤٦	٧	٣٥	٣٤	١٠	٤٢	٣١	٢٩

السور المَدَنيّة

من الهجرة إلى النّهاية. ٦٢٢ ــ ٦٣٢ ميلاديّة.

٥٩	٦٥	٤	٥٧	٦١	٣	٤٧	٨	٦٢	٦٤	٩٨	٢
٥	٩	٤٩	١١٠	٦٠	٦٦	٤٨	٢٢	٥٨	٢٤	٦٣	٣٣

وفيما خص الاقتباسات من القُرْآن، فقد استعملت ترجمات رودويل وبالمِر وفي بعض الأحيان ترجمات سِل ولين؛ وقمت بمقارنتها مع الترجمات الفارسية لــ حسين وشــاه ولــي محدّث وكذلك الترجمات إلى الأوردو لــ عبد القادر والدكتور نضر أحمد خان وأحمد شاه.

كما تمت مراجعة أحاديث البخاري والترمذي.

الفصلُ الأوّل

الحقبةُ المَكْيّة

إنَّ مقارنة وقائع وأحداث تاريخية في حياة مُحَمّدٍ مع سور مختلفة من القُرْآن، ارتبطت بها، أمر ضروري إذا ما أُريد فهم سيرة حياته بشكل عقلاني. ثمة نتيجة أخرى لهذه المقارنة، تساويها في الأهمية، وهي أنها تبرز العملية التدريجية التي ظهر فيه القُرْآن للوجود، وتبين كيف أن الآيات ناسبت الظروف القائمة، وأضفت على مختلف أفعال النَّبِيّ ما كان يُزعم أنه تخويل ودعم إلهييْن. بهذه الطريقة وحدها كان تغييره لسياسته مبرراً، حامياً نفسه من تبعات مسايرة الزمن وعدم الاتساق.

لا يتبع ترتيب السور في القُرْآن تسلسلاً زمنياً، وتأتي السور الأطول في أوله. لذلك، فإن تناول القُرْآن وقراءته على نحو متسلسل لا يلقيان ضوءاً على حياة ونشاط النَّبِيّ، بل يشكلان ببساطة إرباكاً للقارئ.[١] يؤكّد المفسر القَاديَاني مولوي مُحَمّد علي أن القُرْآن ككل أُحيل للتحرير في عهد النَّبِيّ، وأن الترتيب الحالي لسوره وآياته تم تحت إشرافه.[٢] لو كان الأمر كذلك، لأصبح من الصعب تبرير ضرورة التدوين أيام خِلافة أبي بكر وعثمان أو إعطاء تفسير واقعي لعمل زيد؛ كما أنه من الصعب تصور امرئ قدير نظير مُحَمّد قد ترك كتابه على هذه الصورة الغامضة غير المفهومة. يبدو أنه من الأدق القول إن القُرْآن على شكله الحالي هو إعادة إنتاج أصيلة لتدوين أبي بكر. وقد عَمِل عثمان، بعد أن أصدر نسخته المنقحة، على إتلاف كل النسخ الباقية.[٣] كل هذا لم يكن ضرورياً لو أن مُحَمّداً جَمَع وترك نسخة صحيحة. لقد قام المفسرون العرب والفرس بترتيب السور، وكذلك سعى موير ونِلدِكه إلى وضعها في سياق تاريخي. وثمة خلافات بصدد التاريخ الدقيق لبعض السور، ولآيات من سور متبعّضة؛[٤] غير أننا، ولغايات عملية، عمِلنا على ترتيبها إلى حدٍ ما في ضرب من النظام المتعاقب.

[١] **القَاديَانيّة**: نحلة دينيّة دعا إليها مِيرزا غلام أحمد (١٨٣٩ - ١٩٠٨ م) ترفض فكرة أن مُحَمّداً خاتم الأنبياء وترى أن الوحي لم ينقطع وتحظر الجهاد. يرى القاديانيّون أن يسوع المسيح لم يصلب ولم يرفع للسماء - يخالفون بذلك الرؤية المسيحيّة والإِسْلاميّة - وأنّه نجا من الموت وهاجر إلى الهند حيث توفي بكشمير في الهند. كفرتها هيئات إِسْلاميّة سنيّة وشيعيّة - **المترجم**.

[2] *Holy Qur'an* pp. xxx-xlii.

[3] Sir 'Abdu'r-Rahim, *Muhammadan Jurisprudence*, p. 20.

[٤] **السُّوْرَةُ المتبعّضة**: هي السُّوْرَةُ التي تحتوي على الآي المَكّيّ والمَدَنيّ - **المترجم**.

سوف أسعى في الصّفحات التّالية إلى تبيان كيف أن السور، إذا ما وضعت في سياقها التأريخي الصحيح، تلقي ضوءاً أكثر على سياسة وتعاليم وتصرفات نَبِيّ الجَزِيْـرة العَرَبِيّـة العظيم.

إن أولى الكلمات المنزلة هي تلك التي سمعها النَّبِيّ في كهف جبل حِراء، الذي يبعد حوالي ثلاثة أميال عن مَكّة، والمدونة الآن في سُوْرَةِ العَلَق (٩٦/١ ــ ٢).

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ،
خَلَق الإنْسَانَ من عَلَق ﴾[٥]

يقول الزمخشري إنّ ابن عبّاس ومجاهد يتفقان مع هذه النظرية؛ لكن الكثير من المفسرين يتمسكون بأن أولى ما أُنزل هي سُوْرَةَ الفَاتِحَة (١)؛ ويقول آخرون بأنها سُوْرَةُ القَلَمِ (٦٨).

يقول البعض إن الآية (٢١٤) من سُوْرَةِ الشّعَرَاءِ (٢٦): ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ تحتوي على النداء الأول للتبشير؛ لكن الاعتراضات على هذه النظرية ترجع إلى أن سياق الكلام ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢١٥)، والآية ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ (٢١٨ ــ ٢١٩)، كلاهما تفترضان وجود جماعة إِسْلاميّة صغيرة. كما أن أسلوب السُّوْرَة لا يعود إلى العهد المبكر، فالتراكيب مثل ﴿ **الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ و﴿ **السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ تعود إلى السور المتأخرة.

أعقبت ذلك حقبة سُميت **الفترة**، إنقطع فيها الوحي؛[٦] وقد قيل إنها امتدت ثلاث سنوات، كان خلالها النَّبِيّ شديد الاضطرب حتى بلغ به الأمر حد الشك بندائه إلى رسالة إلهية. ولم تعارض قُرَيْش ــ القبيلة الرائدة في مَكّة يومها، والتي انتمى إليها النَّبِيّ نفسه ــ مُحَمّداً بشكل فعال خلال هذه المدة، إذ كانت تنظر إليه كمجنون؛ وغالباً ما اُعتبر بعض الإلهام مرافقاً للجنون في الشرق. لم يكن المَكّيّون متزمتين فيما خص المسائل الدينية، كما كانوا متقبلين لوجود ديانات أخرى ومتسامحين مع عقائد مختلفة كانت منتشرة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة،

---

[٥] يُقال نتيجةً لورود كلمة (اقْرَأْ) هنا إنّ مُحَمّداً يجب أن يكون قادراً على القراءة، لكن **(يقرأ)** تعني عموماً أكثر يتلو، وفي لهجات قريبة، يصيح، ينادي. ولهذا فإن **(קְרָא)** يعلن كنَبِيّ. نجد في إِشَعْيَاء (٤٠/٦):

קוֹל אֹמֵר קְרָא וְאָמַר מָה אֶקְרָא

« وقالَ صَوْتٌ: « نَادِ ». فقال: « بماذا أنادي؟ »، انظر كتاب نِلدِكه (*Geschichte des Qorāns*, pp. 9-10).

إن هذه السُّوْرَة لمثال جيد على سُوْرَة متبعّضة، فالآية السادسة وما بعدها تعود إلى الفترة المَكّيّة المتأخرة وتشير إلى معارضة أبي جهل (الآية ٦) ومن يرتبط به (الآية ١٦).

[٦] بصدد الطريقة المفترضة لمجيء الوحي، انظرْ (*The Faith of Islam* (4th ed.), pp. 71-2.).

كما كانت الكعبة مباحة لأتباع جميع الملل. وقد اعتنق ورقة، إبن عم مُحَمّد،[٧] أحد الأحنـــاف، الديانة المسيحية دون أن يتعرض للّوم، ودون أن يتدخل بشؤونه أحد. لهذا كله، عامل المكّيون مُحَمّداً بادئ الأمر باستهزاء مرح. لكن المعارضة ضده ظهرت عندما أطلق تعاليمه الخاصـــة بوصفها منهاج الحياة الأوحد، مديناً بشكل صريح وضمني كل الأديان الأخـــرى. فـــالمكيون الذين لم يعيروا أي اهتمام لتصريحاته العامة بوصفها عظات تهدي إلى الحياة الصـــالحة، أو إشارات إلى اليوم الآخرة، تغير بهم الحال عندما شرع بالهجوم على وثنيـــة الكعبـــة وبـــدأت معارضتهم العملية. ويعود السبب الرئيس لهذا التبدل إلى الكره الشديد الذي كان لديهم لتغييـــر ما تأسس منذ زمن طويل. لقد كنّوا توقيراً عظيماً للدين الذي جعل مَكّة مركزاً مقدســـاً عنـــد العرب ولم تكن لديهم أية فكرة أن مُحَمّداً ـــ من خلال تبنيه في الإسلام الكثير من المراســـم الوثنية الخاصة بالكعبة ـــ سوف يحافظ على هذه المشاعر. كما أن مُحَمّـــداً لـــم يقـــم بـــأي معجزات ولم يكن لديهم سوى كلمته فحسب دعماً لدعواه.

لن يكون صعباً إظهار أن مُحَمّداً كان متأثراً، منذ البداية، بالبواعث الوطنية وأنه تطلع إلى نظام سياسي ـــ ديني. يقول ابن إسحاق إنّ التسامُح الذي تمتع به مُحَمّدٌ يعود فقط إلى دعم أقربائه، وقد توسل حكماءُ قُرَيْش عمه أبي طالب أن يرتب نوعاً من الســـلم عبـــر تنـــازلات متبادلة. فقام أبو طالب بسؤال مُحَمّدٍ تقديم بعض التنازلات، مشيراً إلـــى أن قُـــرَيْش ســـتفعل الشيء نفسه. وقد رد مُحَمّدٌ على ذلك قائلاً: « أدعوهم أنْ يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العـــرب ويملكون بها العجم »؛[٨] ثم أضاف، « قلْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ». بمعنى آخر، اقبلْ تعاليمي وسوف تتوحد الجَزِيْرة العَرَبِيّة ويخضع أعداؤها. أدرك المَكّيّون الخطر وكان ردهم: « لسنا واثقين بأن السيادة لن تُؤخذ منا». لقد تم إغفال العامل السياسي في استهلال الإسْـــلام لفترة طويلة.[٩] فعلى سبيل المثال، كانت معركة مُؤتَة (٨ هـــ) كارثـــة مـــن وجهـــة النظـــر العسكرية، بيد أنها أعلَت من شـــأن مُحَمّد بطلاً لفكرة قومية، فأتت نتائجها حسنة.[١٠] لقد شعر المَكّيّون أن قبول تعاليم مُحَمّدٍ قد يجرهم إلى الحرب وإلى هزيمة محتملة، مما أضاف زخمـــاً إلى معارضتهم المتزايدة، فنعتوه بالكاذب والساحر والكاهن والممسوس وهاجموه عنـــد بـــاب الكعبة. وذات مرة إستُوقدَ غضبُ مُحَمّدٍ فقال: « أتسمعون يا معشر قُرَيْش أما والذي نفســـي

---

[٧] بل هو ابن عم خديجة بنت خويلد ـ زوجة مُحَمّد الأولى ورفيقة دربه في المرحلة التأسيسية ـ **المترجم**.

[٨] أورده كويل في (*Mohammed and Mohammedanism*, p. 74.).

[٩] لا توجد في حياة مُحَمّد مرحلة انعطافية يمكن إبرازها؛ إذْ ثمة تغيرات في الأهداف وإعادة تعديل في وسائل بلوغها (Hurgronje, *Mohammedanism,* pp. 37-8.).

[١٠] لقد قام بتوحيد الجَزِيْرة العَرَبِيّة في الشئون الدينية، لكنه أخفق في إخماد العصبيات المتنافسة للمضريين واليمنيين، والتي استمرت لقرون تسبب الشرور في الإسْلام انظر: (*The Umayyad and 'Abbasid Khalifates* (C. L. S.), pp. 2-3.).

بيده لقد جئتكم بالذبح »،[١١] غير أنه لن يكون قادراً على تنفيذ هذا التهديد لسنوات عديدة؛ لم يكن بوســع القرشيين معرفة ذلك حينها فاعتدوا عليه مجدداً في اليوم التالي. وقد اضطر أبو بكر لمساعدته، ويقول ابن إسحاق إنه « في ذاك اليوم، لم يبقَ رجل، حراً كان أم عبداً، إلاّ وناداه كاذباً وأهانه ». وسط كل هذه الصعوبات، بقي عمه أبو طالب، رغم عــدم اقتناعــه إطلاقــاً بحقيقة دعوة ابن أخيه، حاميه الثابت. وقد حثته قُرَيْش على سحب حمايته، غير أنــه اكتفــى بالاحتجاج لدى ابن الأخ المزعج قائلاً له: « فابق عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني مــن الأمــر مالا أطيق »؛ لكن مُحَمّداً بقي ثابتاً على موقفه، فقام عمه، بدافع روابط القربى، بصرف الوفد المفاوض وطلب من مُحَمّدٍ الاستمرار وأضاف « فوالله لا أسلمتك لشيء أبداً ».

إنَّ تصورَ مُحَمّدٍ رجل فقير، مجرد حادي إبل، يشق طريقه، وحيداً، ضــد معارضــة قوية، أمر غير واقعي. فهو ينتمي إلى أكثر القبائل تميزاً في الجَزِيْرة العَرَبيّة، وينحــدر مــن عائلة أرستقراطية رفيعة، أقرباؤه رجال ذووا نفوذ سياسي واجتماعي عظيم وهــذا مــا تــم توظيفه لحمايته. ولو لم يكن ذاك الدعم متوفراً، لأمكن أن يفشل مُحَمّد تحــت وطــأة ضــغط المعارضة ولأمكن للإِسْلام أنْ لا يرى النور.

رغم أنَّ بعضَ أتباع مُحَمّدٍ، مثل أبي بكر وآخرين ممن كانوا على صلات مع بعض الأسر النافذة في مَكّة، تعرضوا للذَم والازدراء، إلاّ أنَّ حياتهم كانت في مأمن من الخطر. لقد كانت العاطفة العائلية القوية حماية فعّالة بوجه المضايقات الجدية لأي من أعضــائها، رغــم انضمامه إلى التعاليم الجديدة. غير أنَّ هذه الحماية التي تمتع بها مُحَمّد وبعض من مشايعيه لم تكن لتشمل أتباعه من العبيد وطبقات العرب الدنيا،[١٢] الذين لا حامٍ قوي لهم وســط زعمــاء الأسر المَكْيّة النافذة. لقد تعرض هؤلاء لتعذيب وحشي وسجنوا. كان مُحَمّد مهموماً بشــأنهم، حتى أنه شجعهم على الإنكار من أجل تفادي التعذيب. وذات مرة التقى مُحَمّدٌ رجــلاً يُــدعى عمّار بن ياسر وهو يبكي؛ ورداً على استفسارات مُحَمّد أجــاب: « أيها النَّبِيّ، لن يتركــوني قبل أن أشتمك، وأن أمدح آلهتهم ». فقال مُحَمّدٌ: «كيف تجد قلبــك؟ »؛ فأجابــه: « مطمئنــاً بالإيمان ». عندها أضاف مُحَمّد « إذاً، إنْ عادوا لك فعد لهم بما قلت ». وقد تعاطى التنزيل

---

[11] Koelle, *Mohammed and Mohammedanism*, p. 87.
إنّ هذه الحادثة البسيطة مؤشر على أنّه منذ البدء كانت له نوايا للسلطة السياسية.

[١٢] وكانت تلك واحدة من الاعتراضات التي أثارتها قُرَيْش ضد دعاويه.
(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ؟) سُوْرة هُودٍ (٢٧/١١).

في سُوْرَةِ النَّحلِ (١٠٦/١٦) مع حالة الذين أُجبروا كرهاً على رفض الدين، والتي قيـــل إن الوحي جاء بها بعد الحوار مع عمار بن ياسر.[١٣]

﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ، [**فلا أثم عليه**] ﴾ [١٤]

خلال تلك الحقبة، يوم كانت الهموم تتأوب النَّبِيّ، تنزلت السور القصـــيرة للســـلوان؛ سُوْرَةُ الضُّحَى (٩٣)،[١٥] وسُوْرَةُ الإِنْشِرَاحِ (٩٤) وقد خاطبتا مُحَمّداً نفسه بشكلٍ مباشر؛ وسُوْرَةُ الكَافِرُونَ (١٠٩) وسُوْرَةُ الإِخْلاَصِ (١١٢) الموجهتان للعامة: ــ

﴿ وَالضُّحَى،
وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى،
مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ، وَمَا قَلَى؛
وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى ﴾ سُوْرَةُ الضُّحَى (١/٩٣ ــ ٤).

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟
وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ،
الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ؟
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ؟
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً.
إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً.
فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ،
وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ سُوْرَةُ الإِنْشِرَاحِ (٩٤).

﴿ قُلْ: يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ!
لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ،

---

[١٣] إن قصة اضطهاد المسلمين مروية في تفسير عبد الله بن عبّاس و**خُلاصة التفاسير**، المجلد ٢، ص ٥٧٨.

[١٤] أضاف المفسرون الكلمات المشددة، التي ليست في النص العربي، لكنها ضرورية لاستيعاب المعنى. مثل ـ اس غضب سى برى ہے ـ « بريئاً من هذا الغضب ». **خلاصة التفاسير**، المجلد ٢، ص ٥٧٨. « فهو لا يُدعا للحساب ». انظر ترجمة نضر أحمد للقُرْآن.

[١٥] يسجل لنا التزمذي حديثاً ينص على أنه، بعد أن قالت قُرَيْش إنَّ الله قد هجر مُحَمّداً، جاء جِبْرِيل بهذه السُّوْرَة فسكن جأش النَّبِيّ. **جامع الترمذي**.

وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ
وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ
وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ.
لَكُمْ دِينُكُمْ: وَلِيَ دِينِي ﴾ سُوْرَةُ الكَافِرُونَ (١٠٩/١ ــ ٦).[١٦]

﴿ قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ؛
اللهُ الصَّمَدُ!
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ،
وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُــواً أَحَدٌ ﴾ سُوْرَةُ الإِخْلَاصِ (١١٢/١ ــ ٤).

وهكذا، خلال مرحلة الإكتئاب وعهد الاضطهاد، شجعت هــذه الرســائل المباشــرة، الموجهة لذاته، النَّبِيَّ على الاحتجاج على الوثنية وعلى تعميق إيمانه عبر تأمل وحدة الإله.

إن السُّوْرَةَ الأولى لسلسلة مستأنفة بعد انقضاء **الفترة**، هي سُوْرَةُ المُدَّثِّرِ (٧٤)[١٧] التي لن يكون بعدها فتور في الوحي. لقد جاءَت هذه السُّوْرَة في الوقت الذي كان فيه النَّبِيّ يتعرض للسخرية والاستهزاء، حيث اُتهم أنه مجرد شاعر أو كاهن، يضلل الآخرين بكلامــه الزاخــر بالعواطف. إنها مؤشر جلي بالنسبة إليه للمضي قدماً في مهمته، وأُمر بأن يعظ:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ!
قُمْ فَأَنذِرْ!
وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ!
وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ!
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ! ﴾ (١ ــ ٥).

---

[١٦] يُروى أنه أُوحي بالسُّوْرَة عندما عرض بعض الزعماء المَكّيّين ـ مثل أبي جهل والعاص والوليد وآخرين ـ اقتراح تسوية يُعبد بموجبها إلهُ مُحَمّدٍ بنفس الوقت مع آلهة مَكّة، أو بالتناوب عام لكلّ جانب. بيد أن مُحَمّداً لم يقع في الفخ، وفي هذه السُّوْرَة تُرفض الوثنية القديمة على نحو قاطع. وسريعاً بعد سُوْرَةِ الإِخْلَاصِ (١١٢) تُعطي أشد الشهادات المؤكدة على وحدانية الإله.

إنَّ مصطلح **دين** يأتي هنا للمرة الأولى، ويطبق على الوثنية المَكّيّة والإِسْلام؛ وفيما بعد صار مقتصراً على الأخير. إنّ هذا الاعتراف الواضح بديانة قديمة قد أُنكر الآن بعد نسخ هذه الكلمات **بآيــة السيف** ـ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٥/٩). **تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٤٧٦.

[١٧] يجمع المفسرون المسلمون على أنَّ هذه السُّوْرَة كانت الأولى بعد **الفترة**، والآيات (١ ـ ٧) تدعم بجلاء هذه النظرية، كما أن اللغة العربية في الآية الثامنة (نُقِرَ فِي النَّاقُور ِ) تميّز السور الأولى. إنَّ هذه السُّوْرَة متبعّضة، فالآية الحادية عشرة (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً) تشير إلى المعارضين غير المؤمنين. ويقال إنَّ الوليد بن المغيرة هو المقصود. وبينا يبدو أن الآيات (٣١ ـ ٣٤) تشير إلى المعارضة في المدينة: اليهود، الكافرين، المنافقين، والوثنيين، المجموعات التي تجمع معاً على الغالب، وبالتالي فلا بد أنَّ هذه الآيات قد أُدرجت في هذه السُّوْرَة في تاريخ متأخر.

كان المَكيّون مستعصين عليه، وحسب المفسرَيْن ــ ابن عبّاس والبيضـــاوي ــ فـــإنّ الوليدَ بن المغيرة، الزعيم المَكْيّ، كان رأس المعارضة. وقد أُشير إليه في هذه الآيات الناقمة:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً،
وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً،
وَبَنِينَ شُهُوداً،
وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً؛
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ!
كَلاَّ! إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً
سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً
إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ!
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ! ﴾ (١١ ــ ١٩).

وكان الوليد بن المغيرة قد قال إن كلمات النَّبِيّ هي كلمات مجرد شخص عادي، نطق بها تحت تأثير السحر. فأعقب ذلك الإدانة: ــ

﴿ سأُصْلِيهِ سَقَرَ،
وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ؟
لاَ تُبْقِي ولاَ تَذَرُ،
لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ (٢٦ ــ ٢٩).[١٨]

والوليد بن المغيرة هو الشخص عينه الذي يُشار إليه في سُوْرَةِ القَلَمِ (٦٨) بوصفه،

﴿ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ،
هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ (١٠ ــ ١١).
﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا، قَالَ، « أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ »،
سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ (١٥ ــ ١٦).

[١٨] إنَّ عقوبة النار في السّور المَكِّيَة موجهة إلى أولئك الذين لا يؤمنون بدعاوي مُحَمّد؛ وليست موجهة إلى الخطيئة بالعموم.

معارض قوي آخر لمُحَمّد كان عمه عبد العزى، المعروف بأبي لهب، والذي حرضته زوجته على رفض دعوى مُحَمّد. وقد أدانت سُوْرَة مَكّيّة مبكرة العم والعمة بضراوة حيث جاء في سُوْرَةُ المَسَدِ (١١١): ــ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ!
مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ،
سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ،
وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ،
فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾[١٩]

سُوْرَةَ الهُمَزَةِ (١٠٤) كانت موجهة ضد رجل غني يُدعى الأخنس بن شريق،[٢٠] وهي تعود بشكل جلي إلى الحقبة المكيّة، رغم أن نِلدِكه يــذكر ــ بــدون مصــادقة ــ أن بعــض المصادر الإسْلاميّة تعتبرها مَدَنيّة: ــ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ، لُّمَزَةٍ!
الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَه!
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ.
كَلاَّ! لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ؛
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ؟
نَارُ الله الْمُوقَدَةُ،
الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ (١ ــ ٧).

وأُشير في سُوْرَة مَكّيّة متأخرة إلى مجموعة أشخاص رفضوا الاستماع للنَبِيّ وتعنتوا حتى أنهم، رغم العقاب، لم يهتدوا. والكلمات هي: ــ

---

[١٩] إذا ما كانت الأحاديث المروية عن أبي لهب صحيحة، فإنّ السُّوْرَة تصبح أكثر أهميّة وقيمة كونها تعرض كيف أنَّ الظروف الخاصة التي كان يعيشها مُحَمّد قد أثرت حتّى على كل كلمات القُرْآن المستعملة فعلاً. وعلى هذا النحو، يُروى أنَّ مُحَمّداً دعا ذات يوم أقرباءَه للاجتماع من أجل تبليغهم الرسالة. لكنَّ أبا لهب استشاط غضباً، وقال: « تباً لكَ، ألهذا دعوتنا »، ومن ثَّم أخذ حجراً بيديه ورمى به مُحَمّداً. ولكن تبت يداه. وزوجه أم جميل كانت تضع الشوك على الطريق الذي كان يسير عليها النَّبِيّ. وذات يوم، وبينما كانت تسير تحمل حطباً، التف الحبل الذي كان يحزم الحطب حول رقبتها واختنقت (**روضة الصّفا**، الجزء الثاني، المجلد ١، ص ١٦١: **خلاصة التفاسير**، مجلد ٤، ص ١٢٥). والآية الرابعة يمكن أن تعني أن عليها في الجحيم أن تجمع الحطب للنار. انظر البيضاوي (مرجع مذكور). ويقول مولوي علي، إنها كانت معتادة على جمع حزم الشوك بحبل، حيث كانت تحملها لنشرها على طريق النَّبِيّ (*Holy Qur'an*, p. 1234). إن كلمات ـ **ذَاتُ لَهَبٍ** ـ، هي لعب على اسم أبي لهب (**تفسير الحسيني**، ص ٤٧٧).

[٢٠] البيضاوي، المجلد ٢، ص ٤١٦.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ؛[٢١] وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ.
وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ سُوْرَةُ الأَنْعَامِ (٢٥/٦ ـــ ٢٦).

في سُوْرَةِ العَلَق (٩٦) إشارة إلى أبي جهل وهو معارض آخر شديد الشكيمة: ـــ[٢٢]

﴿ كَلاَّ، إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى،
أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (٦ ـــ ٧).

ويروي البيضاوي أن أبا جهل هدد بوضع قدمه على عنق النَّبِيّ وهو ساجد يصلي. نقرأ ثانيةً في سُوْرَةِ الحَجِّ (٢٢): ـــ

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولاَ هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الآية ٨، م.).

هذه السُّوْرَة مَدَنيّة والإشارة تاريخية تستعيد الماضي، وهذا أمر ليس نادراً في السور المتأخرة. ولدينا في سُوْرَة مَدَنيّة متأخرة أخرى: ـــ

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ سُوْرَة الأَنْفَال (٤٧/٨).

في مواجهة كل هذه المعارضة، أوحي لمُحَمّد في سُوْرَةِ القَلَمِ (٦٨) القول عن نفسه، وكأنما من الله: ـــ

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (٢).

---

[٢١] المراد أبو سفيان والوليد والنضّر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم، فسألوا النضر ماذا يقول فأجاب: « ما أدري ما يقول إلاّ أنّه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين »، وهم (يَنْهَوْنَ عَنْهُ) أي ينهون الناس عن الإيمان به وينأون عنه بأنفسهم، أو ينهون عن التعرض لمُحَمّدٍ، وينأون عنه فلا يؤمنون به كأبي طالب (البيضاوي، مجلد ١، ص ٢٨٧).

[٢٢] البيضاوي، م ٢، ص ٤١١. لقد قُتِلَ أبو جهل في معركة بَدْر.

أصبحت نظرية الإلهام الإلهي، خلال العام أو العامين التاليين، أكثر تطوراً وتأكدت معها عصمة النَّبِيّ بشكل أكثر اتقاداً. ولم تعد الآيات تُعلَن على أنها كلمات الله نفسه فحسب، بل قيل أيضاً أن أصلها في السماء:

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآن مَّجِيدٌ،[23]
فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ سُوْرَةُ البُرُوجِ (٨٥/٢١ ــ ٢٢).

إن هذا **اللوح المحفوظ** مودع قرب عرش الله. يقول القُرْآن: ــ

﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ؛
مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ سُوْرَةُ عَبَسَ (٨٠/١٣ ــ ١٤).

يشرح الزمخشري ذلك فيقول: « في صحف منسخة من اللّوح، مُكرمةٍ، عند الله، مرفوعة في السماء. أو مرفوعة المقدار ﴿ مُّطَهَّرَة ﴾ منزهة عن أيدي الشياطين لا تمسها إلاّ أيدي ملائكة مطهرين ». يقول البيضاوي: « مرفوعة القدر منزهة عن أيدي الشياطين بأيدي سفرة كتبة من الملائكة أو الأَنبِيَاء ينتسخون الكتابَ من اللّوح أو الوحي أو سُفراءَ يُسْفرون بالوحي بين اللهِ ورُسله ».[24]

أصبحت المعارضة في هذه الفترة قوية وقُوبلت بأشد أنواع الشجب في سُوْرَةِ المُرْسَلاَت (٧٧)، وهي سُوْرَة مَكّيّة مبكرة. في هذه السُّوْرَة ذات الخمسين آية قصيرة، وردت العبارة التالية عشر مرات على الأقل:

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ! ﴾
والآية التاسعة والثلاثون أُشارت إلى المعارضة القوية وتضمنت نوعاً من التّحدي:

﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ، فَكِيدُونِ ﴾[25]

وتنتهي الإدانات بالأمر التالي: ــ

---

[23] كتابٌ شريفٌ وحيدٌ في النَّظم والمعنى. البيضاوي، مجلد ٢، ص ٣٩١.
[24] البيضاوي، مجلد ٢، ص ٣٨٧.
[25] في سُوْرَةِ الطَّارِقِ (٨٦) لدينا الآيات التالية:
(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً
وَأَكِيدُ كَيْداً.
فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ، أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً) (١٥ ـ ١٧).

على أي حال، تضع بعض المصادر هذه السُّوْرَة لاحقاً، تقريباً في فترة الهجرة الأولى للحبشة.

﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ
انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ
لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ (٢٩ ــ ٣١).

السورة التالية، سُوْرَةُ النَّبَإِ (٧٨) جاءَت على النمط نفسه من التنديد المر:

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً،
لِلْطَّاغِينَ مَآباً،
لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً؛
لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً،
إِلاّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً؛
جَزَاءً وِفَاقاً!
إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً؛
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً؛
وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً:
فَذُوقُوا، فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً؟ ﴾ (٢١ ــ ٣٠).

تشير سُوْرَةُ البُرُوجِ (٨٥) إلى الاضطهاد الذي عانى منه المسلمون الأولون[٢٦] وإلى عقاب الذين يفتنون المؤمنين؛ حيث ينتظرهم عذاب جهنَّم، و﴿ عذابُ الحَرِيق ﴾. ومن أجل تأكيد إدانة الذين يعارضون النَّبِيّ، يأتي تذكير السامعين بأن هذه الكلمات ليست كلماته هو، بل هي ﴿ قُرْآن مَجِيدٌ، في لوحٍ مَحْفُوظٍ ﴾؛ فهذه كلمات الله نفسه.

النصوص الأكثر عمومية والتي تناولت الكافرين أنذرت بخطر كارثة دنيوية. تماماً، كما في الأزمنة السالفة، قبل أن يدمر الله مدينةً، كان يرسل أولاً نَبِيّاً لإنذارها، وهكذا هو الحال الآن:

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَى؛ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ سُوْرَةُ الشُّعَرَاءِ (٢٦/٢٠٨ ــ ٢٠٩).

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ. مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ سُوْرَةُ الحِجْرِ (١٥/٤ ــ ٥).

[٢٦] باستثناء الآيات ٨ ـ ١١ المتأخرة زمنياً كما يتبدى من أسلوبها.

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ،
لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ؛
فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ سُوْرَةُ الشُّعَرَاءِ (٢٦/٢٠٠ ـــ ٢٠٢).

لربما شعر المَكّيّون لبعض الوقت بالاضطراب جرّاء التكرار والحديث المستمر عن الخطر الوشيك المحدق بمدينتهم، لكنهم، ومع مرور الزمن دون أن تقع الكارثة، انتقلوا من الفضول إلى الشك ورفض هذه الأحاديث. وقد تحدّوا رسالة مُحَمّدٍ وسخروا من تحديه لهم، طالبين منه آيات معجزات إثباتاً لمصداقيته.

قالوا: ـــ

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً،
أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ، فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً؛
أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء، كَمَا زَعَمْتَ، عَلَيْنَا كِسَفاً؛ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (١٧/٩٠ ـــ ٩٢).
﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ: « لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ » ﴾ سُوْرَةُ الرَّعْدِ (١٣/٧).

لقد أدرك مُحَمّدٌ عدم حيازته تلك الملاكات، فاستعان بالوحي كي يبين أن غياب هذه القدرات جزء من غاية الله في تعامله مع عصاة مَكّة هؤلاء. وبالتالي، من أجل إظهار أنه لا يمكن إشباع الفضول التافه، لدينا الآية: ـــ

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ ﴾ سُوْرَةُ الحِجْرِ (١٥/٨).

فإذا هم لم يؤمنوا من مثال الذين مضوا، وإذا كانوا يرفضون عمداً النُّذر والنذير، فلا شيء يساعدهم، ونجد في السُّوْرَة نفسها ـــ الحِجْر (١٥):

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاء، فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ،
لَقَالُواْ: إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (١٤ ـــ ١٥).

في ختام الحقبة المَكّيّة الوسطى، جاءت الحجة الأشد قوة في هذا الموضوع، وهي أن إتيان مُحَمّد قوة القيام بمعجزات أمر عديم الجدوى،[٢٧] ذلك إن هذه الهبة لم تؤتِ أية نتيجة مع الأنبيَاء السابقين: ـــ

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ سُورَةُ الإِسْرَاءِ (١٧/٥٩).

لقد أكّد المُشَكِكون موقفهم وتشبّثوا به، وهكذا فعل مُحَمّد، مصراً أن القُرْآن هو الإعجاز المميَز، الشاهد على رسالته.

إعتبر المَكيّون مبدأ البعث المادي خيالياً بحتاً، وعندما ظهرت الآيات الخاصة به، اعتبروا أن مُحَمّداً نظمها نقلاً عن المعلومات التي استقاها من الأجانب في مَكّة؛ قالوا عنها إنها « أساطير الأَوّلينَ »، أو إسراف في الخيال الشعري. نقرأ في سُورَةِ المُطَفِّفِينَ (٨٣)،[٢٨] التي ظهرت في الحقبة المَكّيّة المبكرة من سيرة النَّبِيّ:

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ،
الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ!
وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ،
إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ: « أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ »،
كَلاَّ؛ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ.
كَلاَّ؛ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ؛
ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ؛
ثُمَّ يُقَالُ: « هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ » ﴾ (١٠ ـــ ١٧).

بعدها بفترة قصيرة، في مَكّة، نهى مُحَمّد عن الشعر بالآية: ـــ

﴿ وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ سُوْرَةُ الشُّعَرَاءِ (٢٦/٢٢٤).[٢٩]

---

[٢٧] قلّما أحتاج لقول إن حقيقة عدم قيامه بمعجزات ـ وعلى الرغم من أن ذلك مدون في القُرْآن بشكل لا لبس فيه ـ أمر لا يقبل به علماء الدين المسلمون اليوم.

[٢٨] يعتبرها بعض المفسرين سُوْرَة مَدَنيّة، بينا يرى آخرون أنها مَكّيّة متأخرة؛ لكن موير ونِلدِكه يضعانها في السنة الرابعة من العهد المَكّيّ.

[٢٩] « ذات مرة استخدم مُحَمّد الشعراء للدفاع عن نفسه وديانته بمواجهة هجاء الشعراء الآخرين. وكانت هذه الأشعار تُنشد في عكاظ. فيما بعد وضع حداً لها كونها تقود إلى مجادلات مزعجة » (Rodwell's *Qur'an*, p. 120).

ودفع عن نفسه تهمة كونه مجرّدَ شاعرٍ، نقرأ: ـــ

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآن مُّبِينٌ ﴾ سُورَةَ يس (٣٦/٦٩).

فلو أن مُحَمّداً كان شاعراً أو أنه كان ينظم الشعر، لظَهَرَ القُرْآن وكأنه من تأليفه هـو وليس كلام الله المباشر. إن هذه التأكيدات المشددة مقصودةٌ، هكذا قيل، بهدف تقديم البرهـان للكافرين الذين كانوا يروجون اتهامات زائفة. غير أن المعارضين، على ما يبدو، لم يقتنعوا، لذلك نجد الاتهام يتكرر بعد زمن، مع استمرار وجود مُحَمّد في مَكّة، في سُورَةِ الفُرقَانِ (٢٥): ـــ

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: « إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُوراً ».
وَقَالُوا: « أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ » اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (٤ ـــ ٥).

والظاهر أن مُحَمّداً نُعِت أيضاً بالكاهن[٣٠] فكانت السُّورَةَ الثّانية والخمسون [سُورَةُ الطُّورِ، م.] الآية ٢٩، والسُّورَةَ التاسعة والستون (الحاقّة) الآية ٤٢.

تكشُف السور المَكّيّة المبكرة عن مشاعر وشكوك النَّبِيّ القاتمة، رغم أن اللغة منمقة على الأغلب والإيقاع البلاغي مليء بالمسحة الشعرية. إن الأقسام التي قوى بها تعاليمه مميزة للغاية؛ والهجوم القوي والتهديدات الموجهة إلى أعدائه، والذين سمّى بعضهم بالإسم، كل هذه ميزت الحقبة المَكّيّة المبكرة من سيرة مُحَمّد، فأتت خلالها أجمل سور القُرْآن وتجلى معها انفعال النَّبِيّ الشديد وهو في ذروته.

لقد وُجهت دعوة مصالحة للمَكّيّين على خلفية امتيازاتهم: ـــ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ؟
أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ؟
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ،
تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ،

[٣٠] « إنَّ الكاهن مرتبط بالحرم... ويبدو أنَّ كل المسائل الغامضة والمظلمة ترجع إليهم. فهم ينبئون بالمستقبل وبغير المرئي. لقد كان مُحَمّد في هيئة كاهن أصيلة وروح كاهن » (Macdonald, *Religious Attitude and Life of lslam,* pp. 29, 31. See, Sell, *Life of Muhammad*, p. 38.).

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ سُوْرَةُ الْفِيلِ (١٠٥/١ ــ ٥).

في إشارة إلى نجاة أهل مَكّة من جيش الملك الحبشي، الذي جاء لتدمير الكعبة في سنة ميلاد مُحَمّد. إن الوباء الذي قضى يومها على عدد كبير من جيش الأعداء، يُصوَّر هنا على أنه تدخل معجزٍ للعناية الربانية.

وثمة إشارة، في سُوْرَةُ قُرَيْشٍ (١٠٦)، إلى الكعبة المقدسة وحرم أراضيها: ــ

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ،
الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ، وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (٣ ــ ٤).

وثمة مناشدة مشابهة معززة بالقسم في سُوْرَةِ التِّينِ (٩): ــ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ
وَطُورِ سِينِين
وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ (١ ــ ٣).

يقول المفسران ابن عباس وحُسين إن التين والزيتون يرمزان إلى تلّين قرب مَكّة، تينا وزيتا، وقد اشتهرا بشجرهما، أو إنهما يرمزان إلى مسجدي مَكّة ودمشق.[٣١] غير أن الشرح الذي يقدمه البيضاوي والزمخشري على أنهما يمثلان ما هو مغذٍ وصحي شرح أكثر واقعية. مولوي مُحَمّد علي تقدم بشرح استثنائي وخيالي إذ قال إن التين يمثل اليهودية التي انقضت، كون المسيح قال لشجرة تين عاقر « لا يَكُنْ مِنكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إلى الأَبَدِ » (متّى ١٩/٢١). وأما الزيتون فهو يمثل الإسْلام لأنه، وكما أن الزيتون ينتج زيتاً للنور، هكذا هو الإسْلام نور الأمم. هذا تصوير لخيال المؤلف الخصب ويخالف كل التفاسير المقبولة.

وكانت لاحقاً سُوْرَةُ الطُّورِ (٥٢): ــ

﴿ وَالطُّورِ
وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ،
فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ (١ ــ ٤).

---

[٣١] جاء في معجم البلدان: « **التّينُ والزّيتون:** جبلان بالشام، وقيل: **التّينُ** جبال ما بين حلوان إلى همذان، و**الزيتون:** جبال بالشام، وقيل.. **التّينُ** مسجد نوح...، و**الزّيتون:** البيت المقدس، وقيل **التين** مسجد دمشق، وقيل: **التّينُ** شعبٌ بمَكّة يفْرُع سيلُه في بَلْدَاح » ـ **المترجم**.

وهكذا، عَمِل النَّبِيّ في مساره المَكْيّ المبكر على تمجيد وإعلان فخره بالمكان العزيز على المَكيّين.

تبع ذلك إغراء من طبيعة مختلفة، إغراء للحواس الدنيا في الطبيعة البشرية. المتع السماوية، سُرُرٍ العرائس، الخمور المعتقة، روائح المسك، كلها قدّمت تشجيعاً لجماعة المؤمنين المخذولين الذين، يوم الجنّة، سيتمتعون بالتمدد على سُرُرٍ العرائس هذه والضحك من الكفار إزدراءً بهم؛ وقد شرح بعض المفسرين هذا المقطع قائلين إن باباً بين الجنة والجحيم سيُفتح حيث سيُدعى الملعونون إلى الباب المفتوح؛ فيجرون بكل قواهم بنشاط مفعم بالأمل، لكن ما إنْ يبلغوا الباب حتى يوصد في وجوههم؛ وستزداد متعة الذين يستمتعون بملذات الجنة الجسدية وهم يضحكون ملء قلوبهم من حسرة الضالين. لقد أُعطيت الأوصاف الأكثر تصويراً للجنة والجحيم خلال هذه الحقبة، ليس فقط دعماً لشجاعة المسلمين الأوائل وهم يعانون المحن، ولكن أيضاً لإرهاب أعدائهم. متع الجنة هي الراحة والطمأنينة، أثواب الحرير، الخمور والطيب، ويقوم على الخدمة ولدان مخلّدون. وتضاف مشاهد خلاّبة إلى كل متع الحواس هذه. من أجل إكمال الفتنة، نقرأ: ــ

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً،
حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً
وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً
وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ سُوْرَةُ النَّبَإِ (٣١/٧٨ ــ ٣٤).

﴿ وَحُورٌ عِينٌ،
كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ.
إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً،
فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾ سُوْرَةُ الوَاقِعَةِ (٢٢/٥٦ ــ ٢٣، ٣٥ ــ ٣٦).

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ سُوْرَةُ الطُّورِ (٢٠/٥٢).

كما نجد في سُوْرَة لاحقة، عائدة لحوالي منتصف العهد المَكْيّ: ــ

﴿ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ؛

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ،
عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ.
يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ،
بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ؛
لا فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ؛
وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾ سُوْرَةُ الصَّافَّاتِ (٣٧/٤٢ ــ ٤٨).

يلاحظ غيبون على سبيل التهكم « لم يحدد مُحَمّدٌ خليلات الرجال الأصفياء، لِئلا يشعل غيرة الأزواج السابقين، أو يعكر صفو مودتهم بالشك في أبدية الزواج ». والأزواج والزوجات الصالحات يعيدون صباهم في الجنة. إقتضت العدالة، بالتالي، أن تحوز النساء على الحرية نفسها التي تمتع بها الرجال، لكن مُحَمّداً تغاضى عن هذا الاستنتاج القانوني لتعاليمه.

كان من الطبيعي أنْ يبرزَ تساؤل حول ما إذا كان لهذه التصريحات معنى حرفيّ أم مجازيّ. لا شكّ أنَّ الصوفيين[32] والفلاسفة المسلمين ترفّعوا بها إلى المجازية، وهذا منحى الرجال ذوي الأخلاق الرفيعة في المجتمع الإِسْلاميّ العصري المتأثر بالفكر المسيحي والثقافة الغربية؛ غير أنه من الصعب التصديق أن مُحَمّداً أراد أن تفهم كلماته على هذا النحو، أو أن مستمعيه فهموها على النحو المشار إليه. لم يكن مُحَمّدٌ مستسلماً للصوفية على الإطلاق بل

[32] يقول سيد أمير علي في (*Spirit of Islam*): « إنّ الحوريات كائنات من أصل زارادشتيّ، كما الجنّة، بينما الجحيم في قسوة عقابه تلمودي. إنّ التّصاوير حقيقيّة، وفي بعض الأماكن حسيّة تقريباً، لكن القول إنّها شهوانية، أو إن مُحَمّداً أو أحداً من أتباعه ـ وحتى الحرفيين ـ قبلوها على هذا النحو، لهو محض افتراء » (ص ٣٩٤).

من الممتع ملاحظة كيف إن هذا الاعتراف بالطبيعة الإنسانيّة لهذا الجزء من تعاليم النَّبِيّ يحطم دوغما الطبيعة الأزلية للقُرْآن ولدعواه كونه كتاباً سماويّاً بكلّ أجزائه.

في ملاحظة على سُوْرَةِ الطُّورِ (٥٢)، الآية ٢٠، يقول مولوي علي (*Holy Qur'an*, p. 1009) بأن (**حُوْر عَيْنٍ**) تعني « ذات الجمال النقي »، وبأنّها « كلمات جمع تنطبق على الرجال كما النساء، كذلك على السجايا والأفعال الحميدة »، وأنّها تشير هنا إلى « السعادة السّماوية التي تجمع النساء الصالحات مع الرجال الصالحين ». وأنّ « الأنوثة ترمز إلى النقاء والجمال كما طهارة الخُلق، وأفعال الصالحين الحسنة »، ويشار بها هنا إلى « النّعم التي توصف في كلمات تنطبق على النساء ». إنّ ذلك منافحة ذكية بيد أنّها ليست تقليدية ولا مقنعة. إنّ هذا الانحراف عن « النظرة المنقولة » تُسجل على أي حال لحس المؤلف الأخلاقي.

إن التفاسير المقبولة هي: ـ

يترجم **تفسير الحسين** الكلمات بـ: ـ زنان سفيد روى گشاده چشم ـ « نساء وضيئات الوجه، نجلاء العيون ».

في **خلاصة التفسير**: اور نكاح كرديا هم ـنے حور خوش جشم ـ « سنزوجهم حوريات نجلاء العيون ».

في **مقبول الترجمة** نقرأ: برى برى آنكهون والى حورون سى هم ان كى شاديان كردينگ ـ سنزوجهم من نجلاوات العيون.

كما أن نضر أحمد وأحمد شاه، المترجمان للأوردية يفسرانها كذلك.

لدى الزمخشري، **قرّناهم بالحُور** ـ.

كان فكره واقعياً وعملياً بشكل كبير. ولم يرَ صعوباتٍ أو أسراراً في ترتيب العـــالم وشـــئون البشر. إن عقوبات الجحيم مادية، وما من مسلم تقليدي يسعى إلى اعتبارها مجازاً. فلمـــاذا إذاً اعتبار متع الجنة المادية ذات معنى مجازي؟ تجدر الملاحظة أن أوصاف الجنة الشهوانية هذه قد أُعطيت يوم كان مُحَمّد يعيش حياة معتدلة عفيفة مع زوجة واحدة، وهذا ما اُتخذ بيّنة لدعم نظرية المجازية؛ لكن علينا أن نضع نصب أعيننا أنه، رغم أن مُحَمّداً كان دون شك عاشـــقاً ومخلصاً لخديجة،[٣٣] إلاّ أنه كان تابعاً لها كذلك. لقد كانت السيد، إنتشلته من الفاقـــة، أعطتـــه مركزاً ومنحته وفرةً نسبية، لكنها أبقت ثروتها بين يديها. لم تكن لدى مُحَمّـــدٍ ـــ حتـــى لـــو افترضنا أنه رغب بذلك ـــ القدرة على إعطاء المهور أو ـــ بأية طريقة ـــ الحصـــول علـــى زوجات أخريات. لقد بدا واضحاً لبعض النقاد أن اعتداله هذا كان إلزامياً خاصة أنه، وما إن أصبح حراً، حتى أرضى نفسه بالرغبات حتى الثمالة. وجاء فـــي **(روضـــة الأحبـــاب)**[٣٤] أن مُحَمّداً، بعد موت خديجة، امتعض عندما قال صديقٌ له:[٣٥] « ألا تتزوج؟ » فأجابه: « من؟ »، أجاب: « إنْ شئت بكراً، فثمة عائشة، ابنة صديقك أبي بكر، وإن شئت ثيباً فهناك سودة [بنت زمعة، **م.**] التي آمنت بك واتبعتك ». وجد مُحَمّد الحل، قال: « فاذهب فأذكرهمـــا عَلَـــيّ ». وبعد شهرين من وفاة خديجة، كان مُحَمّد متزوجاً من سودة وخاطباً عائشة، الفتاة ذات الست سنوات آنذاك، والتي سيتزوجها بعد ثلاث سنوات. ومع ذلك يُطـــرح ســـؤال حـــول الســـور المتأخرة وكيف أنها لم تقدم هذه الأوصاف الزاهية لمتع الجنة الجسدية.[٣٦] يمكن إرجاع السبب

---

[٣٣] يُروى أن خديجة قد ذعرت لدى إخبارها بأن أبواها كانا في النار، مخافة أن يكون أبناؤها الميتون هناك بدورهم، التصريح الذي لن يجعل الديانة الجديدة تعجبها؛ لكن مخاوفها هدأت بعد أن جاءَ الوحي: ـ
(وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) سُوْرَةُ الطُّورِ (٢١/٥٢).

كان هذا نصاً ملائماً، فطالما أن خلاص ابنها متعلق بإيمانها، فإن ذلك يساعدها على الفعل. القصة رواها مسعود ويوردها مارغوليوث، (*Mohammed*, p. 93).

[لم نجد هذا النص، والرواية التي لدينا بعد مراجعة أئمّة التفسير تقول إنّ خديجة سألت مُحَمّداً عن ولدين ماتا لها في العهد الوثني، فقال مُحَمّد بأنهما في النار، فلما رأى الكراهة في وجهها، قال: « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما ». ولما تساءَلت عن ولديها منه، أجاب أنهما في الجنة. (تفاسير ابن كثير، والقرطبي، والبغوي) ـ **المترجم.**]

[٣٤] أورده كويل (*Mohammed and Mohammadanism,* p79).

[٣٥] حسب المصادر هي خولة بنت حكيم بن أمية ـ **المترجم.**

[٣٦] في السور المَدَنيّة، التي امتدت عشر سنوات بعد الهجرة، لم يُشر للنساء إلا مرتين بوصفهن أنماطاً من متع الجنة ومن ثم زوجات، وليس محظيات: ـ
(وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢٥/٢).
(لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) سُوْرَةُ النِّسَاءِ (٥٧/٤).

إما إنَّ الاتصال الأقرب مع اليهود في المدينة قد كبح الفهم الشهواني للجنة، هذه الصورة التي وُظفت في مَكّة بقوة كبيرة؛ أو إنها لم تعد ضرورية الآن لتشجيع المسلمين إلى هذا الحد، إذْ بات ممكناً الاستمتاع بوعود متعة الجنة على الأرض بشكل كامل.

إلى أن أتباعه في المدينة لم يعودوا مضطهدين، وبالتالي لم يعودوا بحاجة إلى هذه التشـــجيع؛ لكن ثمة من أعطى تعليلاً آخر كذلك.

إنَّ الإشباعَ هو أكثر الأسباب احتمالاً. فالمُتع التي تبدّت شديدة الجاذبية وهـــي بعيـــدة المنال، والتي كان بوسع مُحَمّد تقديمها على أنها المكافأة الأمثل للمؤمنين في الجنة، هذه المتع فقدت وهجها عندما باتت سهلة المنال ودون قيود.[٣٧]

في الجزء الثّاني من الفترة المَكْيّة، نجد صوراً حية للجحيم وعذاباته. إنَّ أهلَ النّـــارِ يُعذَّبون بشكل دائمٍ؛ فهم يُسحبون من فروة رؤوسهم ويدفعون بقوة إلى النار حيث يسكب الماء الغالي في حناجرهم وحيث ألبستهم من نار؛ وسوف يُضربون بعصي حديدية ويجرّون مجدداً إلى الجحيم كل مرة يحاولون فيها الهرب؛ نقرأ في الآيات التالية:

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ!
فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ،
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ
لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ سُوْرَةُ الوَاقِعَةِ (٥٦/٤١ ــ ٤٤).

تواصلت الإدانةُ الضّاريّةُ في المرحلة المَكْيّة الثالثة للدعوةِ، مظهرة امتداد موقف النَّبِيّ من معارضيه إلى نهاية هذه المرحلة: ــ

﴿ مُهْطِعِينَ، مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ؛
لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء.
وَأَنذِرِ النَّاسَ،
يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ،
فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ: « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ »؛
وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ؛
سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ ﴾ سُوْرَةُ إِبْرَاهِيم (١٤/٤٣ ــ ٥٠).

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ،[٣٨] وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ،

---

[37] Osborn, *Islam under the Arabs*, p. 36.

[٣٨] بالقُرْآن وبكتب الأَنبِيَاء السابقين.

إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ؛ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ سُوْرَةُ غَافِر (٤٠/٧٠ ــ ٧٢).

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ، جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ــ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ؛ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً. أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ: هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ سُوْرَةُ يُونُسَ (١٠/٢٧).

لقد أعاد مُحَمّد مراراً وتكراراً وباستمرار تصريحه بأنه مُرسل بوصفه نذيراً؛ لكن قُرَيْشاً لم تكن لتصغي للتحذير: ــ

﴿ وقُلْ: « إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » ﴾ سُوْرَةُ الحِجْرِ (١٥/٨٩).

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ. وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ سُوْرَةُ ص (٣٨/٤).

﴿ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ، الرَّحِيمِ، لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ سُوْرَة يس (٣٦/٥ ــ ٦).

﴿ قُلْ: « إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ » ﴾ سُوْرَةُ الأَنبِيَاء (٢١/٤٥).

كل هذه السور تعود إلى العهد المَكّيّ الأوسط، يوم كان إقناع قُرَيْش أمراً يقض مضجع النَّبيّ. على أن ثمة تعبيراً مشابهاً في سُوْرَة مَدَنيّة متأخرة إلى حدٍ ما، سُوْرَةِ الفَتْحِ (٤٨/٨): ــ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾

لقد أتى النذير لهدف خاص، ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾. هذا الجمع بين رمزي الإيمان نجده، بشكل حصري تقريباً، في كل السور المتأخرة. لقد كان مُحَمّد أكثر تواضعاً في مَكّة.

ثمة سورتان شهيرتان، سُوْرَةُ الفَلَق (١١٣) وسُوْرَةُ النَّاسِ (١١٤)، اللتان، وإن عادتا إلى المرحلة المكّية، وهذا غير أكيد،[٣٩] تظهران أن النَّبِيّ استعمل رقى شعبية وكان حتى الآن

---

[٣٩] يقول نِلدِكه: « من الصعب تحديد تاريخ هاتيْن السورتيْن، وليس بوسعنا أن نكون متأكدين من أنهما أُلقيتا قبل الهجرة » (*Geschichte des Qorāns*, p. 85.).
ثمة تعابير مشابهة في سور لا شك في مَكّيّتها: ـ

يساير الزمن؛ أو أنه، في كل الأحوال، كان محكوماً بالممارسات الخرافية التـــي اســتحوذت عليه؛ أو أنه كان تواقاً لإظهار حيازته على القوة ضد التأثيرات الشريرة التي كـــان أعـــداؤه يسعون لجلبها ضده. لقد قيل أنَّ يهوديـــّاً يُدعى لَبيد [بن أعْصم، **م.**]، بمساعدة ابنتيه، سَحَر مُحَمّداً، وأن جِبْرِيل حرَّره من السحر بتلاوة هاتين السورتين: ــ[40]

﴿ قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ.
مِن شَرِّ مَا خَلَقَ؛
وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ؛
وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ؛
وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ سُوْرَةُ الفَلَق (١١٣/١ ــ ٥).

﴿ قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ،
مَلِكِ النَّاسِ،
إِلَهِ النَّاسِ؛
مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ؛
الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ
مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ ﴾ سُوْرَةُ النَّاسِ (١١٤/١ ــ ٦).

تُسمى هاتان السورتان (**المعوذتيْن**)، وتنقشان على التمائم تعوذاً من الشر.

ولمّا لم ينجح بريق الجنة الموعودة والترهيب المنـــذر بـــالجحيم، ولا القـــوى فـــوق الطبيعية المزعومة ضد السحر، في استمالة قُرَيْش، ولمّا لم يكن بمقدور النَّبِيّ حماية أتباعـــه الفقراء،[41] ولا هو أراد المجازفة في ضلالهم، فإنّه نصحهم بالهجرة إلى الحبشة، الدولة التـــي

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ، فَاسْتَعِذْ بِالله إِنَّـهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) سُوْرَة فصلت (٣٦/٤١).
(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآن فَاسْتَعِذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) سُوْرَةُ النَّحلِ (٩٨/١٦).

إذاً، إنَّ هاتيْن السورتيْن مَكْيّتان، على أغلب الترجيحات، وتعودان إلى الحقبة التي لم يكن النَّبِيّ قد رمى فيها بعدُ ممارسات العرب الخرافية. على أي حال، إن مفسرين مسلمين كثر، يقولون إنَّ لبيداً كان يهوديّاً من المدينة وبالتالي يضعونهما بعد الهجرة. وبالتالي ليس ثمة تأكيد قاطع بصدد تاريخهما.

[40] في (**تفسير الحسين**) لسُوْرَةِ الفَلَقِ (١١٣) و(**قُرْآن المجيد نفس المكان**). ويُروى أن عائشة قالت إنه مَنْ كرر هذه السُّوْرَة سبع مرات بعد صلاة الجمعة يُحفظ من كل شر إلى الجمعة التالية. **خلاصة التفاسير**، المجلد ٤، ص ١٣٢.

[41] في هذا الوقت كان الأرقاء الذين يعتنقون الإِسْلام، إما مجلوبين من الأراضي المسيحية، أو كانوا قد وُلدوا لآباء مسيحيين في مَكّة. لقد رأوا في مُحَمّد محرراً ولهذا آمنوا بتعاليمه وبعضهم مات شهيداً. ويعتبر نِلدِكه أن الآية العاشرة في سُوْرَةِ العَلَقِ (٩٦)، (عَبْداً إِذَا صَلَّى) تشير إلى المُسترقين المهتدين؛ لكن التفسير الشائع

كانت يومها على علاقات تجارية وثيقة مع الجَزيْرة العَرَبيّة. كان المهاجرون قليلي العدد، لكن هجرتهم برهنت للمَكّيّين أن إيمانهم كان حقيقياً وأنهم فضلوا المنفى على احتمال رِدَّة إجبارية. التحق بعض المهاجرين بالكنيسة المسيحية في الحبشة، ذلك أن عداء الإِسْلام للمسيحية جـاء بعد حقبة متأخرة كثيراً عن هذه الفترة.[٤٢] ولو إن مُحَمّداً لم يجد لنفسه ملاذاً في المدينة بعـد عدّة سنوات، لكان من الممكن أن يرحل إلى الحبشة هو أيضاً، ولأمكن لبعض أشكال الهرطقة المسيحية أن تأخذ مكاناً لها في الإِسْلام.

عاد المهاجرون في غضون ثلاثة أشهر، حيث بدا لهم الآن أن ثمة أفقاً للسـلام مـع قُرَيْش. لم يكن المَكّيّون راغبين في فقدان عدد كبير من مواطنيهم كما أنهم خشـوا أن تمـنح رعايةُ ملك الحبشة مُحَمّداً وقضيته قوةً سياسيةً. كما أن مُحَمّداً، من جهته، خشي من تنـامي النفوذ الحبشي على أتباعه. وهكذا، كان احتمال الخطر وارداً لدى كِـلا الجـانبيْن: المَكّيّـين والمسلمين، وأصبح التوصُّل إلى تسوية بين الفريقين من مصلحتهما المشـتركة. فُـتِحَ بـاب المفاوضات وانُتدبت قريش أحد رجالات مَكّة البارزين لزيارة مُحَمّد[٤٣] وحثِّهِ على الوصـول إلى تفاهم ما وتقديم التنازلات. قال: « إنّ لكَ سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنا والله لا نَصبْر على هذا مِنْ شتم آبائنا، وتَسفيه أحلامنا وعَيْب آلهتنا ». وقد عُرض على مُحَمّد الغنـى والشـرف مقابل اعترافه وقبوله بالآلهات المحلية،[٤٤] على أن تعترف قُرَيْش بدورها بالله بوصـفه إلهـاً وتعبده كواحد من آلهتها. كان العرض إغراءً عظيماً،[٤٥] فمُحَمّد الذي سعى إلى هداية قومه، لم يستجب لدعوته إلاّ حوالي أربعين أو خمسين منهم، بعضهم الآن في المنفى. لقد كانت قُرَيْش عصية ومستعصية كما دائماً، وكان وضع مُحَمّد مظلماً وكئيباً، ولكن ثمـة فرصـة سـانحة للمصالحة وكسب موافقة الفريق المعارض على الدعوة، ولو بصيغة معدلة. تقول القصـة إن مُحَمّداً التقى يوماً رهطاً من زعماء مَكّة قرب الكعبة فانضم إليهم وشرع بود بتلاوة الآيـات الافتتاحية لسُوْرَةِ النَّجْمِ (٥٣) التي تؤكد بقوة وشدة موقفه: ــ

هو « عبد الله إذا صلّى »، ويقال إنه ينطبق هنا على مُحَمّد نفسه، بالارتباط مع التهديد الذي كان قد أعلنه أبو جهل بوضع قدمه على عنق النَّبِيّ لدى الصلاة (*Geschichte des Qorāns* p. 66؛ **تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٤٦٨؛ وكذلك **تفسير البيضاوي**، المجلد الثاني، ص ٤١٠).

[٤٢] نقرأ في سُوْرَةِ المَائِدَةِ (٨٢/٥):

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ؛ الَّذِينَ قَالُوَاْ: « إِنَّا نَصَارَى »)

على الرغم من أن هذه السُّوْرَة متأخرة، إلاّ إنها متبعّضة. وتسجل هذه الآية بكل جلاء ذكرى الحنان الودود نحو المنفيين، وهي يجب أن تكون قد كُتِبَت بعد ٣ هجرية، عندما كان العداء لليهود ملحوظاً وقبل ٨ هجرية، حيث شجُب كل من اليهود والمسيحيين.

[٤٣] في نص الكتاب أن الوفد جاء مُحَمّداً، بيد أن الأخبار تتحدث عن أن الوفد جاء أبا طالب ـ **المترجم**.

[٤٤] اللاَّتَ وَالْعُزَّى ـ **المترجم**.

[٤٥] انظر: Muir, *Life of Mahomet*, vol. ii., pp. 150-8.

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى
مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى؛
وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى،
إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى،
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (١ ــ ٥).

وإذ يشير إلى أسرار خاصة تنزّلت عليه، يزيد قائلاً بصدد أصنام مَكّة: ــ

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى
وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ (١٩ ــ ٢٠).

جاءَت بعد ذلك كلمات هدفت إلى استمالة القُرَشيين الذين كانوا يصغون باهتمام شديد، فسمعوا بدهشة وابتهاج شديدين الكلمات التالية: ــ

« تلك الغرانيق العلا
و إنّ شفاعتهن لترتجى ».[٤٦]

والكلمات الختامية في السُّوْرَة كما تلاها مُحَمّدٌ: ــ

﴿ فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (٦٢).

سجد الحاضرون كلهم وكان مشهداً رائعاً. كان القرشيون مبتهجين وقالوا: « قد عرفنا الآن أن اللهَ يحيى ويميت، وهو الذي يخلق ويرزق؛ ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإذا جعلت لها نصيباً فنحن معك ». لكن سرعَان ما أدرك مُحَمّد حقيقة أنه ضل عن جادة الصواب، وأنه يتوجب عليه التراجع عن الموقف الخاطئ الذي تبناه. لقد رأى أن النـاس مـا زالـت تعبـد

[٤٦] سعى بعض المؤرخين والمفسرين الإِسْلاميّين إلى تفسير الحدث على أنه مجرد تأثير سحري سببه الشيطان على آذان السامعين، وقد قالوا إن مُحَمّداً لم يسمع ولم يكن يعرف الكلمات حتى جاءه جِبْرِيل يخبره [سُوْرَةُ الحَجِّ (٥٢/٢٢)] أن الشيطان هو الذي تفوه بها. نقرأ في **(روضة الأحباب)**، « عندما نزلت سُوْرَة (وَالنَّجْمِ)، فإن سيد الناس ذهب إلى البيت العتيق وقرأ هذه السُّوْرَة في محضر من قُرَيْش. أثناء القراءة كان [مُحَمّدٌ] يتوقف بين الآيات، من أجل السماح للناس بتلقيها وبتذكرها كلياً. وعندما وصل الآية الكريمة، (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى) وجد الشيطان إنه من الممكن أن يحدث للكافرين سماعاً مغلوطاً من أجل سماع الكلمات التالية: ‹ تلك الغرانيق العلا، وإنّ شفاعتهن لترتجى ›. وقد كان الكافرون مبتهجين إلى أبعد الحدود ». بعض المراجع ترفض الرواية برمتها وتقول إنّها اختلاق الزنادقة.

الأصنام وأن تنازله لم يكن مفيداً. تقول الأحاديث إن الله عــزّاه بــوحي يظهــر أن الأَنبيَــاء السابقين قد أغرى الشيطان بهم أيضاً: ـــ

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيّ إِلاّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّــيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشّــيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِــهِ وَاللهُ عَلِــيمٌ حَكِيمٌ ﴾ سُوْرَةُ الحَجِّ (٥٢/٢٢).[٤٧]

يُروى أنه لما أعاد اللهُ ثقة مُحَمّد بنفسه، أرسل إليه الوحي الصادق بشأن الأصنام حسب النص الذي لدينا لسُوْرَةِ النَّجْمِ (٥٣): ـــ

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاّتَ وَالْعُزَّى
وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى،
أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى،
تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى،
إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ (١٩ ـــ ٢٣).

غَضِبت قُرَيْش من تراجع مُحَمّدٍ عما اتُفِق عليه، فأثارت الناس من أجــل اضــطهاد المؤمنين بفعالية أكبر. غير أن مُحَمّداً، رغم الضعف الذي أظهره في هذه الموضــوع، قطــع وللأبد أية صلة مع الوثنية وشرع بإعلان العقوبة التي يستحقها عابدو الأصنام. نقرأ في سُوْرَة ترجع إلى هذه الفترة: ـــ

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ؟

---

[٤٧] تشير هذه السُّوْرَة المَكْيّة بجلاء إلى الزلة في مَكَّة، وهي تنهض على صحتها التاريخية. ويترجم سِل (**إِذَا تَمَنَّى**) ـ بـ:«*but when he read*» وليس كما يفعل رودويل: «*among whose desires*». وتُترجم في **تفسير الحسيني**: ـ چون تالوت كرد ـ « عندما قرأ »، وتشرح بالإحالة إلى هذا الحدث في مَكّة. والترجمة الفارسية من قبل شاه ولي علا: ـ آرزو بخاطر بست ـ « حافظ على الأمنية في قلبه »؛ ويشرحها البيضاوي على النحو التالي: « زور في نفسه ما يهواه ».

ويترجم نضر أحمد العبارة بـ جب اسنى تمناكى ـ « عندما تمنى ».

ويقول ابن عباس إنها تعني « **قراءة الرسول أو حديث النَّبِيّ** ». وثمة مرجعية جيدة لهذه الترجمة.

ولدى أحمد شاه تترجم: ـ جب اسنے كجه جاها ـ « عندما رغب بشيء ما ».

ويرفض المفسر القادياني أن في الآية إشارة إلى زلة مَكّة على أساس أنه لو جرت هذه الحادثة، فإنه من غير المحتمل أن تمضي سنوات قبل أنْ يُشار إليها بوصفها ناشئة عن تحريض الشيطان. (*Holy Qur'an*. p, 674)

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ سُوْرَةُ الصَّافَّاتِ (٩٥/٣٧ ــ ٩٦، ٩٨).

وقــد دُعي النبي موسى كشاهدٍ على استياء الله من الــوثنية وصـّـور قــائلاً لبنـــي إسرائيل: ــ

﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْــيَمِّ نَسْفاً ﴾ سُوْرَةُ طَه (٩٧/٢٠).

ما إنْ كَبــا مُحَمّد حتى أُنزِل عليه وحيٌ يحذره مــن الاقتراب مجــدداً مــن هكــذا تسويات: ــ

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَــا غَيْــرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ ٤٨ سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (٧٣/١٧).

واُعتُبِرت شفاعة الأصنام عملاً باطلاً: ــ

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ. أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ؟ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ؟ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُــهُم بَعْضــاً إِلاَّ غُــرُوراً ﴾ سُــوْرَةُ فَــاطِرٍ (٤٠/٣٥).

[٤٨] على أي حال، تعتبر بعض النصوص هذه الآية إشارة إلى الإغراء الذي تعرض له النَّبِيّ من جانب أهل الطائف، جواباً على دعوته لهم، إذْ إنهم سألوه تنازلاتٍ معينة، مثل الإعفاء من الزكاة والصلاة والسماح بإبقاء صنمهم اللاّت فترة زمنية؛ أو إنها تشير إلى الفترة التي كانت فيها الطائف تحت الحصار، وإذا كان الأمر كذلك فإن الآيات تعود إلى السنة الثامنة أو التاسعة هجرية وبالتالي فهي جزء من السور المدنية انظر: (Sale's *Preliminary Discourse*, Wherry's ed, p. 39). ويستشهد رودويل (ص ١٩٨) بالزمخشري كونه يميل لهذه النظرية، ويقول بالمِر إنّ هذه هي نظرة أغلب المفسرين. إن رواية الواقدي للمفاوضات تتفق مع هذا الرأي. وثمة نظرة أخرى مبسوطة في **تفسير الحسيني** وهي تشير إلى الوقت الذي جاءَت قُرَيْش وقالت: « لن نسمح لك بتقبيل الحَجَر الأسود ما لم تلمس أصنامنا ولو كان برأس الأصبع (يعني لإظهار الاحترام). وكان جل شأنه يرغب بشدة بالطواف حول الكعبة، وفكر في نفسه عميقاً بما سوف يجري وهل يجب عليه القيام بذلك ».

قريش يه آن حضرت گفتند كه نميگذاريم تراكۀ استلام حجر كنى تا وقتيكۀ مس كنى بتان ما را و اكرجۀ بسر انگشت باشد آنحضرت غايت شوق كۀ بطواف حرم داشت در خاطر مباركش خطور كرد چه شود اگر چنين كنم

وعلى أي حال، يعتبر موير أن الآيات تشير إلى الزلـّة الكبرى في مَكّة، التي تم وصفها.

وذُكّر المَكيّون بسخافة الوثنية. وقد وظَّف النَّبِيّ هذه الواقعة التي تمخضت عنها كــل تلك الأحداث، من أجل تبرير سلوك مستقبلي أكثر تشدداً.

لقد انتفض مُحَمّد سريعاً من كبوته وعاد له موقعه بين أتباعه؛ لكن الأمر اختلف لمن لم يتَّبعوه. لم يكن بوسع هؤلاء قبول نظرية التأثير الشيطاني كسبب لسقوطه، كما جــاء فــي القُرْآن، فشككوا بوحيٍ معرّضٍ لهكذا تأثيرات. ولو أن القُرْآن كان حقاً رسالة الله، فــإن هــذا التلوّن وحذف الآيات لم يكونا بكل تأكيد إلهييْن. وعلى هذا، فإنهم ضحكوا مستهزئين من كل الجهود التي بذلها مُحَمّدٌ لجعلهم يتخلّون عن عبادة الأصنام. رداً على هذه الاتهامات بتبــديل الآيات، أجاب مُحَمّدٌ بوحي آخر بنيت عليه النظرية الإِسْلاميّة لمذهب النسخ:[٤٩]ــ

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيــَةً مَّكَانَ آيَةٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ: « إِنَّمَــا أَنــتَ مُفْتَرٍ! » بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. قُلْ، نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِــالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ.
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: « إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ[٥٠] إِلَيْــهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَــذَا (القُرْآن) لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ[٥١] ﴾ سُورَةُ النَّحلِ (١٠١/١٦ ــ ١٠٣).

بيد أنَّ قُرَيْشاً بقيت مع ذلك تسخر منه وقالت: ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَــا لَــوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾.[٥٢] لولا حماية أبي طالب القوية في تلك الفترة، لكان مُحَمّد في خطر عظــيم؛

---

[٤٩] « إنَّ تبديل آية مكان أخرى، كان ـ حسبما أكد ـ في مقدور الله. وهذا أمر لا شك فيه، لكن من الجلي بمقدور الإنسان أن يدهشنا كيف إن مثل هذه التسوية يمكن أن تسمح لإجراء بالدخول إلى المنظومة من قبل الأصدقاء والأعداء » (*Margoliouth, Mohammed*, p. 139).

وبشأن النسخ سيكون لدينا لاحقاً نص محدد في سُوْرَةِ البَقَرَةِ (١٠٦/٢) وهو: ـ
(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ، أَوْ نُنسِهَا، نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا)

ينكر المفسرون القاديانيون مذهب النسخ. ويقولون بصدد النص المستشهد به أعلاه، بأنه يجب ترجمة « آية » إلى « رسالة » وهي تعني بأن « شريعة موسى » قد نُسخت الآن. ولكن بما أن مُحَمّداً لم يتعلم قط قانون موسى، فإنه لا يمكن أن يُقال إنه نسخها. إن الأئمة المفسرين الكبار البيضاوي، الجلالين، جلال الدين، حسين وآخرين يقبلون المذهب. ويقول البروفسور ماكدونالد بأنه لم يستطع أن يجد في أعمال أي مؤلف من « ينكر مذهب النسخ وأن هذا إجماع ثابت للإِسْلام من البدء » (*The Moslem World*, October, 1917, p. 620). من الواضح إذاً، إن التفسير التقليدي للنصوص التي تشير للنسخ يجب أن يصمد.

يقول نِلدِكه: ـ

« لم تكن فكرة الله، الحاكم المطلق الذي يتأتى عليه تبديل أوامره بغيضةً لمُحَمّد. فالقُرْآن يحتوي على اتجاهات شديدة الاختلاف، والتي ناسبت الظروف المتغيرة، مثل معاملة الوثنيين » (Encyclopaedia Britannica, vol. xvi. p. 599).

يصف البيضاوي الظروف المتغيرة بـ (حسب الحوادث) ـ تفسيره، المجلد ١، ص ٥٥٣. حول الموضوع ككل انظر (*The Faith of Islam* (4th ed.), pp. 101-9).

[٥٠] يقول الزمخشري والبيضاوي إن بعضهم يشير إلى سلمان الفارسي، لكنهما يطرحان أسماءً أخرى.

[٥١] « المعنى إنَّ أسلوب القُرْآن شديد البلاغة. وإنَّ الأجانب لا يملكون مثل هذا الأسلوب وهم قادرون على التحدث بالعربية قليلاً جداً ». نضر أحمد.

لكن العم الكريم النفس، رغم أنه لم يكن دائماً سعيداً بتصرفات ابن أخيه،[53] إلاّ إنه وقف بثبات إلى جانبه؛ وذات مرة قال، عندما لاح بعض الشك في مؤامرة تُحاك ضد ابن أخيه: « بحـق الرب، إن قتلتموه، فلن يبقى أحدٌ منكم حياً ».

يمكن تلخيص وضع مُحَمّد في مَكّة آنذاك على النحو التالي: كان القرشيون شـديدي العداء لمُحَمّد كما لم يكونوا من قبل، وأتباعه مثبطي الهمة، وكان الناس عموماً إما مستهزئين أو غير مبالين؛ أما مُحَمّد نفسه فكان بمأمن من الخطر، بفضل نفوذ عمّه الكبير. ولمواجهـة الظروف المناوئة هذه، تبنى مُحَمّد خطَيْ مناظرة. ففي المقام الأول، أتى بمجموعة من الآيات تظهر أن الأَنبيَاء السابقين قد عوملوا بما يعامل به الآن، وبالتالي فإن هذه المعاملـة العدائيـة برهان جلي على رسالته الإلهية: ـــ

﴿ ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ؛
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ،
كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (أي أهل مكّة)؛
لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ سُوْرَةُ الحِجْرِ (١٥/١٠ـــ ١٣).

وكان البرهان الثاني تأكيداته المستمرة والمكررة على رسالته الإلهية وعلـى صـدق الآيات التي تنزّلت. ويتميز هذا العهد باحتجاج مُحَمّد الشديد ضد كلٍّ من عارض دعوته.

تظهر الآيات التالية كيفية استغلال الطريقة التي عُومل بها الأَنبيَاء السابقون كبرهـان على دعواه كونه نَبيّاً: ـــ

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَعَادٌ، وَفِرْعَـوْنُ ذُو الأَوْتَـادِ ﴾ سُـوْرَةُ ص (٣٨/١٢).

في سُوْرَةِ الأَنبيَاء (٢١)، من العهد المَكْيّ المتوسط ـــ مع أنه يُعتَقَد أن الآية الثامنـة تعود للمرحلة المَدَنيّة ـــ تم تحذير المَكّيّين من الخطر العظيم الذي يتربص بمدينتهم، من خلال إشارة إلى معاملة الله لأماكن أخرى: ـــ

﴿ وَكَـمْ قَصَمْنَا مِـن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَـأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ (١١).

---

[52] الفرقان: ٢٥/٤٢ ـ **المترجم**.

[53] قال مُحَمّدٌ لأبي طالب المحتضر: « يا عم! قلْ: « لا إله إلاّ الله »، كلمة أشهد لكَ بها عند الله »؛ لكن أبا طالب رفض متمسكاً بالوثنية. [دُقق هذا الهامش حسب المصادر التّاريخية ـ **المترجم**].

وتم تحدّي آلهتهم: ـــ

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ؟ ﴾ (٢١).

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً؟ قُلْ، هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَـــن مَّعِـــيَ. وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ (٢٤).

أعقبت ذلك إشارات إلى اعتناء الله بالآباء السابقين والأَنبِيَاء القدماء، وصـــولاً إلـــى زكريا. كما أُشير إلى رعاية الله لمريم العذراء بآيات تتحدث عن بُتوليتها ومعجـــزة حملهـــا ليسوع المسيح.[٥٤] فكما أن كل هؤلاء الرجال القدماء كانوا مميزين لدى العناية السماوية، كذلك هو الآن، أعظم الأَنبِيَاء، والحائز على نعمة الله. وكما عُوملوا من قبله بسخرية، كذلك عُومل هو أيضاً.

تعاد قصص الأَنبِيَاء في سُوْرَةِ القمر (٥٤) وكذلك المعارضة التـــي جـــابهتهم. وقـــد عُرِض الموقف العام على النحو التالي: ـــ

---

[٥٤] (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ). سُوْرَةُ الأَنبِيَاء (٩١/٢١).
في ترجمته للأوردية، يشرح نضر أحمد (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) بأنها « حملت بدون زوج »، ويفسر « آية » بأنها « قوة الله التامة ».
و يقول الزمخشري إنّ النّص يعني « نفخنا الروح في عيسى فيها، أي: أحييناه في جوفها ». وبصدد « الآية » يقول إن مريم قد أعطت ولداً من « غير فحلٍ ».
وعن مريم نقرأ في سُوْرَة مريم (١٩)، السُّوْرَة التي تعود لنفس الحقبة: ـ
(فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيّاً،
قَالَتْ: « إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ».
قَالَ: « إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً ») (١٧ ـ ١٩).

ويترجم بعض المفسرين الآية ١٨ على النحو التالي: « إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ. **فامضِ عنـي** إنْ كنت تَقِيّاً ».
إن الكلمات المشددة هي إضافة ضرورية لإتمام المعنى.
يقول البيضاوي إن (غلاماً زكيّاً)، يعني « طاهراً من الذنوب ».
ويحدد الزمخشري بأن (غلاماً زكيّاً) « وَلداً سوياً »، على سبيل المثال الخالي من العلة الشائنة أو الجسمية.
يقال إن الروح أتت بهيئة بشر. ويظهر في سُوْرَةِ الأَنْعَامِ (٩/٦) بأنه لو أُرسل ملاكاً فسوف يكون على شكل بشري؛ ومن المعتقد أن جِبْرِيل كان هنا وأنه هو الذي أُرسل إلى مريم.
يقول مولوي مُحَمّد علي بأن ذلك كان رؤيا وليس مشاهدة حقيقية.
وتتحدث سُوْرَة مَكِّيّة متأخرة عن طفل وُلد تاماً: ـ
(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا) سُوْرَةُ الأَعْرَافِ (١٩٠/٧).

وأُشير مجدداً إلى الحمل البتولي في سُوْرَة مَدَنيّة مبكرة: ـ
(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ). سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/ ٥٩).
وهذا يعني بأنه ليس لآدم ولا لعيسى آباء بشريون. ويعلق البيضاوي على ذلك « إنَّ شأنَه الغريب كشأن آدم ».

﴿ وكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٣).

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ؛[٥٥] وكَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ.[٥٦] ولقد جَاء آلَ فِرْعونَ النُّذُر لكن كَذَّبُوا بالمعجزات.[٥٧] وقد أتى الآن دور المكّيّين، يقول مُحَمّدٌ: ـــ

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ؟
أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ؟ ﴾ (٤٣).
﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٤٨).

أظهرت سُوْرَةُ الشُّعَرَاءِ (٢٦) كيف أن موسى ونوحاً ولوطاً وأَنبيَاءَ آخرين قد عُوملوا بازدراء وكُذِّبوا. وتُروى هذه القصص بإسهاب كبير لتَصِلِ إلى الإستنتاج أن معارضة المكّيّين لمُحَمّد، قياساً بالماضي، هي تماماً ما يمكن لنَبِيّ حقيقي أن يتوقعه؛ لكن ذلك لا يبرر سلوك المكْيّين الذين تُغلِظ الآية التالية اللائمة عليهم: ـــ

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (٢٢١ ـــ ٢٢٢).

ويجب على كلِّ هؤلاء الذين يستهزئون ويسخرون أنْ يتّعظوا من العقوبات التي لحقت بأعداء الأَنبيَاء السابقين ومن مآل الكافرين: ـــ

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ، وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ، وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ!
بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ؛ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا، وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ.
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ؛ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴾ سُوْرَةُ الأَنبِيَاء (٣٩/٢١ ـــ ٤١).

يبدو أن سُوْرَةَ الصَّافَّاتِ (٣٧) تعود إلى مرحلة لم تكن فيها المعارضةُ قويةً، مرحلة سادت فيها اللامبالة عوضاً عن العداء الفعلي. تظهر هذه السورة كيف إنَّ كفار مكّة اقتفوا

[٥٥] الآية رقم ٩ ـ **المترجم.**
[٥٦] الآية رقم ٣٣ ـ **المترجم.**
[٥٧] الآيتان رقم ٤١ و٤٢ ـ **المترجم.**

خطوات الذين، في العصور الغابرة، كذّبوا نوحاً وموسى وهارون وإِلْيَاس ولوطــاً ويُــونُسَ، وتروى قصصهم بإسهاب. يعتذر المَكيّون عن أنفسهم قائلين: ــ

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنْ الأَوَّلِينَ
لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٦٨ ــ ١٦٩).

ويُطلب من النَّبِيّ الكفَّ عنهم إلى حينٍ، حتى يُبصــر مصــيرهم المحتــوم (١٧٨ ــ ١٧٩).

وجاء في سُوْرَة مَكيّة متأخرة امتداداً للفكرة نفسها ووصف للجزاء عينه، لا بل كيــف إنه لن يمكن إيجاد مكان للتوبة: ــ

﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ؛ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون.
فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا، « آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ».
فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا. سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ.
وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ سُوْرَةُ غَافِر (٨٣/٤٠ ــ ٨٥).[٥٨]

كما تم الذكير بأن الأَنبِيَاء السابقين تلقوا يد العون على الرَّغم من كلِّ المعارضة: ــ

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ،
إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ،
وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ سُوْرَةُ الصَّافَّاتِ (١٧١/٣٧ ــ ١٧٣).

لذلك، فإنَّ نجاحَه آتٍ كما أسلافه من الأنبياء.

ثمة سُوْرَة أخرى لافتة تعود إلى الفترة الوسطى، هــي سُــوْرَةُ ص (٣٨)، والآيــات العشرة الأولى منها تنزلت إثر إحدى المناسبات عندما طلبت قُرَيْش من أبي طالــب ســحب حمايته لمُحَمّد فرفض رفضاً قاطعاً. كان ذلك حوالي سنة ٦١٥ ميلادية. لكن بعض الأحاديث تشير إلى أنها جاءَت عندما كان أبو طالب على فراش الموت، سنة ٦٢٠ ميلاديــة. التــاريخ

---

[٥٨] نادراً ما يشير مُحَمّد في كلامه عن الأَنبِيَاء الآخرين إلى آياتهم النبوية؛ بل يقدمهم كنذيرين ضد الوثنية والشر.

الأول هو التاريخ الأكثر احتمالاً، ولكن، وبكل الأحوال، فإن قُرَيْشاً قد حُذِّرَت بمصير مَن كان مِن قبلهم من المستهزئين، الذين قُرّعوا في مقاطع أشد عنفاً وقوةً:

﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ!
بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ.
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ! فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ!
وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ؛ وَقَالَ الْكَافِرُونَ، « هَذَا سَاحِرٌ، كَذَّابٌ؛
أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ!»
وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ. أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ.
مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ[٥٩] إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ؛
أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ سُوْرَةُ ص (٣٨/١ ــ ٨).

ثمة مَعْلم آخر لتنزيل هذه المرحلة المَكّيّة المتوسطة وهو التأكيد الدائم على وحي القُرْآن. لقد سمي الكتاب المبارك، الكتاب المنير، القُرْآن الشريف. إنه الكتاب المرسل من الله، أحسن ما أُملي، رسالة السماء: ــ

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ سُوْرَةُ ص (٣٨/٢٩).

لقد نُهي مُحَمّد عن الحزن لقسوة قلوب سامعيه وتم تأكيد إلهية رسالته، حيث آيات الكتاب المُبين: ــ

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.
إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً، فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ.

---

[٥٩] (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ).
يضع مُحَمّدٌ هذا الحديث على لسان المشركين وهذا يتضمن تهكماً بأنَّ المسيحية تعلّم تعدد الآلهة.
في **تفسير الحسيني** تشرح الإشارة إلى أنَّ الديانة المسيحيّة، هي الآخرة، حيث يقال بشكل خاطئ إنّها تقبل عقيدة التثليث فقط، لكن ليس التوحيد.
صلت عيسى كهٔ آخرين صلت است چه ايشان بتثلبث قائل اند نه بتوحيد
ويقول البيضاوي: « في الملة التي أدركنا عليها آباءَنا، أو ملّة عيسى وهي آخر الملل ».
ويقول ابن عبّاس: « لم نسمع من اليهود والنّصارى أنّ الله واحدٌ ».
ويقول الزمخشري: « في ملّة عيسى التي هي آخر الملل؛ لأن النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة. أو في ملّة قُرَيْش ».
ويقول مجاهد إنّها تشير إلى ديانة قُرَيْش. **خلاصة التفاسير**، المجلد ٤، ص ٤٤.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ سُورَةُ الشُّعَرَاءِ (٣/٢٦ ــ ٦).

نجد في الآية المئة والثانية والتسعين، وما بعدها من آيات هذه السُّورَة، تأكيداً شديداً على حقيقة أنَّ جِبْرِيل هو الذي أنزل الكتاب من السماء؛ لكن، وبما أنّه أُتي هنا على ذكر اليهود، يَعتَبر جلال الدين السّيوطي أن هذا المقطع يعود إلى الفترة المَدَنيّة، لذلك لن أستشهد بها هنا. وفي أجزاء أخرى من هذه السُّورَة، يُقدم خمسة من الأَنبيَاء القدماء قائلين: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾؛ النتيجة التي يجب استخلاصها هنا هي أنه يتوجب على قُرَيْش أنْ تطيعَ مُحَمّداً، أو أنها ستنال جزاء عصيانها؛ وإنْ أَعرَضَ عنه القرشيون، فإنَّ بوسعه أن يقول لهم باسم الله:

﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢١٦).

كانت طبيعة الوحي المجزأ مفيدة للنَبِيّ، إذ مكنته من مجارات الأحداث اليومية المختلفة بآراء إلهيّة مناسبة؛ غير أنّها كانت بحاجة لسلطان يبررها، وهذا ما نجده في الآية التالية: ــ

﴿ وقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾[٦٠] سُورَةُ الإِسْرَاءِ (١٧/١٠٦).

يواجه في سُورَةِ الطُّورِ (٥٢) الاتهام بالتزييف ويؤكد إعجاز القُرْآن: ــ

﴿ أَمْ يَقُولُونَ، « تَقَوَّلَهُ » بَل لاَ يُؤْمِنُونَ.
فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (٣٣ ــ ٣٤).
﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟ ﴾ (٤١).
﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً ﴾ (٤٧).

تتضمن سُورَةُ الحَاقَّةِ (٦٩)، والتي تعود إلى الحقبة المَكّيّة الأولى، أحدى أقوى الإنكارات في القُرْآن للتزييف: ــ

---

[٦٠] يشرح البيضاوي (تنزيلاً) بـ: « على أنّها **حسب الحوادث** ». لقد كانت هذه نظرية ملائمة، حيث سمحت بتلاوة الوحي لدى الحاجة. إنّ وحيه (على مُكثٍ) و(تنزيلاً) يمكن أن يكون لجعله في متناول السامعين. وباعث هذا النمط حسبما ورد في سُوْرَةِ الفُرْقَانِ (٣٢/٢٥) هو تثبيت فؤاد النَّبِيّ.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ،
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ،
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ؛[61]
قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ!
وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ــ
قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ!
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ.
وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ،
لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ؛
فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (٣٨ ــ ٤٧).

بتعبير آخر، نحن (الله) حجزناكم (القرشيين) عن إلحاق الأذى بالنَّبِيّ، ولو لم تكن هذه إرادتنا لما كنا بحاجزين. لقد كان مُحَمّداً في هذه الفترة كثيرُ الإهتمام بمحاربة فكرة أنّه مجرد شاعرٍ وأنّ القُرْآن نتاجٌ لقريحته الشعرية، وفي السُّوْرَةِ التي استشهدنا بها للتو، جعل النفي يأتي على لسان الله نفسه. إنّها أقوى التأكيدات لمصدر القُرْآن الإلهيّ التي نجدها في هذا الكتـــاب، وتنم قوتها وشدة تأكيداتها عن ظلال الشك التي كانت تخيّم على مُحَمَّدٍ، ولا تظهر ثقة راسخة لرجل على إيمان تام بما يقوله. إنّ الجلالَ الرصين لنَبِيّ الله غائبٌ كليّـــاً هنـــا. وجـــاء فـــي نصوص أخرى:

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ،
الْجَوَارِ الْكُنَّسِ،
وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ،
وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ،

[61] في السُّوْرَةِ السّادسة والعشرين، والمسماة « سُوْرَةُ الشُّعَرَاءِ »، يقول مُحَمّدٌ بأنَّ الشعراء الذين يكتبون ضده ضالون: -

(وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ
أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) (٢٢٤ - ٢٢٥).

في المقابل، قام مُحَمّدٌ بتوظيف شعراء للدفاع عن نفسه وعن ديانته. ولم يتعرّض أمثال هؤلاء الشعراء للتوبيخ. وحسب البيضاوي، يشار إليهم بوصفهم: -
(وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) (٢٢٧).

وحسب معالم فإن العبارة الثانية « تشير إلى أعداء النَّبِيّ »:
ية اشارة هى رسول الله كى هجو كرنے والوں كى طرف (**خلاصة التفاسير**)، المجلد ٣، ص ٣٨٨.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ،
ذِي قُوَّةٍ، عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِيْنٍ،
مُطَاعٍ، ثَمَّ أَمِينٍ،
وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ سُوْرَةُ التَّكْوِيرِ (١٥/٨١ ــ ٢٢).

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى،
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾[٦٢] سُوْرَةُ النَّجْمِ (٤/٥٣ ــ ٥).

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ،
وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ،
إِنَّهُ لَقُرْآن كَرِيمٌ،
فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ،
لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ سُوْرَةُ الوَاقِعَةِ (٧٥/٥٦ ــ ٧٩).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآن تَنزِيلاً ﴾ سُوْرَةُ الدَّهْرِ (٢٣/٧٦).

﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ!
إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ؛
وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ[٦٣] لَدَيْنَا.
لَعَلِيٌّ حَكِيم ﴾ سُوْرَة الزخرف (٢/٤٣ ــ ٤).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: « إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَـــرَاهُ، وَأَعَانَـــهُ عَلَيْـــهِ قَـــوْمٌ آخَرُونَ، فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً ».
وَقَالُوا: « أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا! فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ».
قُلْ: « أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ».

---

[٦٢] يقول المفسرون إنّه جِبْرِيل.
[٦٣] **أم الكتاب**: يقول حسين: ـ

در اصل همهٔ كتب سماوى يعنى در لوح محفوظ كه ايمن است از تغيير

« إنَّ أصلَ جميعِ الكتب السّماويّة محفوظٌ من التغّير في اللّوح المحفوظ ». **تفسير الحسيني**، مجلد ٢، ص ٣٠٠.

ويطلق البيضاوي عليها « أصل الكتب السّماويّة ». ولكن لم يتم إخبارنا ما هي اللغة الأصليّة، فقط تُفسر (عليٌّ، حكيم)، على أنّها تعني أمجد الكتب، وأنه مُحْكَمُ الإملاء، مبين، وليس منسوخاً بآخر.

وقَالَ الرَّسُولُ، « يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُــرْآن مَهْجُــوراً » ﴾ سُورَةُ الفُرْقَانِ (٤/٢٥ ــ ٦، ٣٠).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ سُورَةُ السَّجْدَةِ (٣/٣٢).

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّــذِينَ آمَنُــواْ وَهُــدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ سُورَةُ النَّحلِ (١٠٢/١٦).

من المرجّح أنّ سُورَةَ الزُّمَرِ (٣٩) تنزلت في فترة الهجرة الأولى إلى الحبشة، وهــي تؤكد القول بأنَّ القُرْآنَ جاءَ مباشرةً من الله، وتُسجل الأثَر المروع لهذا النوع من الوحي: ــ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢).
﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ، كِتَاباً مُتَشَابِهاً، مَثَانِيَ.[٦٤] تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُــودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (٢٣).

---

[٦٤] تترجم (مثاني) لدى سِل بـ « تتضمن (تحذيراً) مكرراً »؛ ولدى بولغرِف وبالمر بـ « تكرار »؛ ومن جانب رودويل كما في النص. انظر سُوْرَةَ الحِجْرِ (٨٧/١٥)، والملاحظة التي تلي في قُرْآن رودويل، ص ١٢٦. وتعطيها ترجمة الأوردية بـ « ايكث مدعا كئى طرح تقرير كيا » ـ « روى المطالب بطرق مختلفة ». واستعملت نفس الكلمة في سُوْرَةِ الحِجْرِ (٨٧/١٥)، (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ). وهي تشير إلى الآيات السبعة لسُوْرَةِ الفَاتِحَةِ التي تتكرر مرراً.
ويلاحظ المفسر الحسين بالفارسية على كامل المقطع (كِتَاباً مُتَشَابِهاً، مَثَانِيَ): ـ
كتابى مانند يكديگر يعنى قرآن كه بعضى از مشابهٔ بعضى ست در اعجاز يا در جودت لفظ وصحت معنى يا برخى ازان مصدق برخى ديگر ست ودر آن تناقض و اختلاف نيست
مثانى ... دوبارهٔ ودو تو كردهٔ بعنى مشتمل است برزوجات جون امر و نهى ووعد ووعيد وذكر وفكر ورحمت وعذاب وبهشت ودوزخ وصوصن وكافر
الذي يعني كالتالي: ـ القُرْآن، بعض الأجزاء تشابه الأخرى في المعجزات، أو في جودة اللفظ وصحة المعنى، وجزء منه يغيّر جزءاً آخر، وليس ثمة تناقضاً واختلافاً فيه. إنَّ المثاني نغمتان أو ثنائيتان، مثلاً يحتوي القُرْآن على أزواج (من التعابير) مثل أمر ونهي، وعد ووعيد، ذكر وفكر، ورحمة وعذاب، وجنة ونار، ومؤمن وكافر. **تفسير الحسيني**، المجلد الثاني، ص ٢٦٢.
ويشير الزمخشري إلى الصيغ الثنائية: « أوامر ونواهي »، و« وعد ووعيد ».
ولدى نضر أحمد في ترجمته للأوردية: ـا ايكث هى بات سمحهاـنے ـکے لئے بار بار دوهرائى كئى هين ـ، « لكي تكون المسألة مفهومة فإنها تعاد المرة تلو المرة ». في ملاحظة يبدو أنّها تشير إلى نزول القُرْآن في أوقات مختلفة ويعتبر ذلك برهاناً جليلاً على طبيعته الإلهية.
ويرى الحاخام غايغر أنّ الحيرةَ نشأت حول الكلمة من حقيقة اعتبارها مفردةً عربيّةً، ولم يتم تقصيها من مصادرها (שנה). إنَّ القانون اليهودي قد انقسم إلى جزئين، المكتوب والتعاليم الشّفويّة. وقد سُمي القسم الثاني **المشنا**، وفيما بعد فإن كامل مجموعة التعاليم الشفوية، أو التقاليد سميت بنفس الاسم. وبالتالي تسلل لاحقاً خطأ اشتقاقيّ، حيث اشتق المشنا من الكلمة التي تعني « يعيد »، وهذا ما طبق على قانون نسخ التعاليم المكتوبة

هذه الأمثلة التوضيحية لخطوط الدفاع التي تبناها مُحَمّدٌ لنفسه، والتي ارتكزت على المشابهة المزعومة مع مثيل ما لقيه الأَنبيَاء السابقون، والتكرار الدائم لدعاوي أنَّ القُرْآنَ وحيٌّ إلهيٌّ، ما هي إلا غيض من فيض في هذا الموضوع. وهي تترك لدى القارئ انطباعاً عاماً بأنَّها أساليب تعبير رجل قلق البال، يتطلع بتواتر وقوة تأكيداته لا إلى إسكات أعدائه فحسب، بل لبث الثقة في نفسه هو وتقوية إيمان أتباعه.

لقد تحدى مُحَمّدٌ أوائل مساره المَكْيّ الإتيان بكتاب شبيه بالقُرْآن: ـــ

﴿ أَمْ يَقُولُونَ، « تَقَوَّلَهُ »؟ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ.
فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ سُورَةُ الطُّور (٥٢/ ٣٣ ـــ ٣٤).

وتواصل سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (١٧)[٦٥] ـــ وهي واحدة من السور الأخيرة للمرحلة المَكْيّة الثانية ـــ التحدي: ـــ

﴿ قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٨٨).

و نجد بعد ذلك بقليل: ـــ

﴿ أَمْ يَقُولُونَ، « افْتَرَاهُ »، قُلْ، فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ ﴾ سُوْرة هُودٍ (١١/١٣).

لقد اُعتبر هذا البرهان مقنعاً للغاية، ونجد أنَّه قد تكرر في المدينة أيضاً: ـــ

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا، فَأْتُواْ بِسُوْرَة مِّن مِّثْلِهِ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/٢٣).

المحفوظة وليس على نص المجموع للتقاليد. وقد ارتكب يهود الجَزِيْرة العَرَبِيّة نفسَ الخطإ ولهذا فلدينا المثاني. وبالتالي، إذا كان مُحَمّد قد استعمل الكلمة بشكلٍ صحيح، فإنّه وضع القُرْآن عوضاً عن كامل التعاليم اليهودية، المشنا، ولم يشرِ إلى التكرار إطلاقاً. وهذا، على الأقلّ، ما يقرّ به مفسر عربي، حسب الحاخام غايغِر. لقد قال طاووس: - **القُرْآن كلّه مثاني**. انظر (Geiger, *Judaism and Islam* (S.P.C.K., Madras) p. 43.).

وليس مدهشاً أنَّ الوحي سبب الرعب للبشر، طالما يُعتقد أنَّ له تأثيراً (**الوحي**) في السّماء، حيث الطبيعة مضطربة، وتفقد الملائكة الوعي، وأنَّ جِبْرِيل أول من يستعيد الوعي. انظر **خلاصة التفاسير**، المجلد ٤، ص ٧٥.

[٦٥] إن هذه سُوْرَة متبعّضة، إذ يجب أن تكون الآيات (٧٣ ـ ٨٢) مَدَنيّة.

كان هذا التحدي أمراً خطيراً. فالنضر بن الحارث، الذي قام برحلات إلى فارس، قَبِل التحدي ونظم شعراً وكتب نثراً مقفى يروي قصص ملوك الفرس ــ خلّدها الفردوسي بعد ما يقارب الأربعمئة سنة ــ فأتت رواياتــه تشابه ما ذكره مُحَمّدٌ في القُرْآن. فجاءَت الآية التالية في سُوْرَة مَكّيّة متأخرة: ــ

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْــمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا. أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ سُوْرَةُ لُقْمَانَ (٦/٣١).

لقد وقع النضر بن الحارث أسيراً في معركة بَدْر. ولم تقبل منه الفدية حيث قتل.[٦٦]

يؤكّد المسلمون أنَّ هذا التحدي لم يُؤخذ به قطّ، وأنَّ العربَ منذ ذلك الحين لــم يــأتوا بمثله؛ لكنَّ هذا التأكيدَ مبالغٌ فيه إذْ إنَّ التحدي لم يكن للإتيان بمثل القُرْآن نظماً وشعراً، بــل جوهراً، يتعاطى مع وحدانية الإله، الثواب والعقاب، وهلم جرا.[٦٧] لم يكن بوســع القرشــيين الإتيان بمثيلٍ يُظهر ــ كما فعل القُرْآن ــ وحدانية الله، كونهم وثنيين لا يؤمنون بمثــل هــذه العقيدة. فإن هم حاولوا الإتيان بكتاب مثله، أتى عملهم مجرد نسخة عن عمله، وكل النسخ لا ترقى إلى الأصل؛ لقد اعتلى مُحَمّدٌ المنبر أولاً. وإذْ لم يتمكن أحدٌ من مقارنــة تفــرد مُحَمّــدٍ بكتابه، فإنَّه تمكن باطمئنان من تحدي أي كان الإتيان بمثله. وإذا كان ادعاء الإعجاز كامناً في بيانه، فإن ملاحظة بارون دي سلان دقيقة، حيث يقول إنّنا إذا تفحصنا القُرْآن علــى ضــوء قواعد علم البيان والنقد المقبولة في المدارس الإِسْلاميّة، وجدنا فيه نموذجاً كاملاً دون ريــب، حيث أنّ قواعد البيان مستلّة منه. ويقول بالمِر: « ليس مدهشاً عدم نجاح أفضل الكتاب العرب قطّ في الإتيان بما يماثل القُرْآن. لقد قبلوا مسبقاً بأنّه لا يمكن مضاهاته، وقد تبنــوا أســلوبه بوصفه المعيار المثالي؛ وأي انحراف عنه يعني بالضرورة ضعفاً.[٦٨] إنَّ الادعاءات المعترف بها أنَّ القُرْآن كلام الله المباشر، جعلت من المستحيل على المسلمين أن ينقدوا هــذا العمــل، ليصبح المعيار الذي تُقارن به التصانيف الأدبية. لقد انطلق النحويون والمعجميون والبلاغيون

---

[٦٦] البيضاوي، المجلد ٢، ص ١١٢؛ مارغوليوث (*Mohammed*, pp. 135, 266.) [عندما استعرض مُحَمّدٌ أسرى بَدْرٍ ووقعت عيناه على النضر، فقال النضر للأسير الذي بجانبه « مُحَمّد والله قاتلي؛ فإنّه نظر بعينين فيهما الموت » ـ **المترجم.**]

[٦٧] يقول مولوي مُحَمّد علي بأنَّ إعجازه الذي لا مثيل له يتكوّن من الأثر الذي أحدثه وهو ما لم يقم به كتاب آخر، أو يمكن أن يقوم بمثله، فكل كلمة تعطي انطباعاً بالعظمة والمجد الإلهييْن والتي لم يدانيه أي كتاب مقدس آخر (*Holy Qur'an*, p. 19). إنَّ هذا المفسر القادياني ميال للبيانات المبالغة، التي ليست لها قيمة نقدية.

[٦٨] « ليس ما طلبه مُحَمّدٌ من أعدائه على الإطلاق أن يأتوا بأي مثال شعري أو بلاغي شبيه بالقُرْآن. ففي هذه الحال سوف يتعرض للخزي مع أول شعر يخرج للنور، حتى في عيون أتباعه. ومع ذلك فإنَّ التأويل الخاطئ للتحدي قائمٌ على دوغما إعجاز أسلوب وبيان القُرْآن الذي لا يُضاهى » (Nöldeke, *Encyclopaedia Britannica*, vol. xxi, p. 601.).

من فرضية أنّه لا يمكن أن يكون القُرْآن خاطئاً، فكان نجاح الأعمال الأخرى نسـبياً بحسـب اقترابها من إعجازه ومحاكاتها لأسلوبه ».[٦٩] على أي حال، ليس ثمة إجمـاع رأي إسْـلاميّ إطلاقاً على ماهية هذا الإعجاز المزعوم. فالبعض يقول إنَّه في بلاغته، أو أخباره، أو تشابهه (كتاباً متشابهاً).[٧٠] ويقر المعتزلة بأن الله لو سمح فإن الإنسان بوسعه أن يأتي بسُوْرَة مثله في بيانه وترتيبه.[٧١]

وإذْ إنَّ الإعجاز لا يرتبط بالطبيعة الأزلية للقرآن، وهي المسألة المختلف حولها بشدة، فإنَّ مختلف الملل والنحل الإسْلاميّة تقبل إعجاز القُرْآن واقعاً لا نقاش فيه.

تظهر سُوْرَةُ الشُّورَى (٤٢) ــ وهي مَكيّة متأخرة ــ أنّ المَكيّين واصـلوا اتهـامهم مُحَمّداً بالافتراء حتى آخر أيام إقامته هناك. وقد جاء: ــ

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً؟ فَإِنْ يَشَأِ اللهُ، يَخْتِمْ عَلَـى قَلْبِـكَ ﴾ (٢٤).[٧٢]

في تلك الفترة من مسار النَّبيّ، نشأت علاقات بينه وبين أتباع الديانة اليهوديّة. ويبدو جلياً جداً، في العهد المَكيّ، أنّ مُحَمّداً كان يعتبر كلاً من المسيحيّة واليهوديّة ديانتيْن متساويتيْن في الرتبة، يجد أتباعهما بهما الخلاص؛ حتى أنَّه قال لاحقاً، في المدينة: ــ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ (أي المسلمون)، وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ــ، مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِـمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/٦٢).

---

[69] *Sacred Books of the East*, vol. vi, pp. lxxvi.

[70] Muir, *Beacon of Truth*, p. 26.

[٧١] الشهرستاني، الملل والنّحل، ص ٣٩ ونِلدِكه، *Geschichte des Qorāns*, p. 44.

[يطرح المعتزلة مقولة « **الإِعجاز بالصَّرفة** »، والتي تعني أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها وقد أبو إسحاق إبراهيم أول من طرحها ـ **المترجم**.]

[٧٢] ليس سهلاً تفسير هذه الآية. فربما تعني أنَّ اللهَ قادرٌ ـ إذا ما فعلت شيئاً مشابهاً ـ على سحب الرسالة النبوية منك، أو يختم على قلبك إذا كان الاتهام زائفاً، بحيث، يقويه على تحمل هذا الافتراء القاسي. يشرح الحسين عبارة (يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ) بـ: ـ

مهر نهد بر دل تو اگر افترا كنى يا مهر نهد بر دل تو بصبر وشكيبائى تا از آزارو جفاى ايشان متضرر نشوى

« سيختم على قلبك، إذا افتريت كذباً، أو سيختم على قلبك بالصبر وطول التحمل وهذا يسمح لك بصد أذاهم من الغيظ والغضب ». **تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٢٩٥.

« إنْ يشأ الله يمسك القُرْآن أو الوحي عنه أو يربط عليه بالصبر؛ فلا يشق عله أذاهم ». **البيضاوي**، المجلد ٢، ص ٢٣٠.

ويشرح نضر أحمد « الختام على القلب » بأنها تعنى أنَّ النَّبِيّ لا يمكن أنْ يقومَ بشيءٍ مثل هذا.

لا بل إنّـه قال في إحدى السور المَكّيّة المتأخرة إنّ اليهود استبشروا لـدى سـماعهم بالوحي المُنزل عليه: ـ

﴿ وَالَّذِينَ[٧٣] آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْـكَ ﴾ سُـورَةُ الرَّعْـدِ (١٣/٣٦).

على الرغم من الود الظاهر لليهود خلال الحقبة المَكّيّة، بدأ مُحَمّـدٌ بالإشـارة إلـى الطبيعة التبعية لليهودية منذ تلك الفترة، لتتطور هذه النظرة بشكل كامل فـي تعاليمـه فـي المدينة. مهما كان من أمر، بقي التأكيد على الطبيعة التامة لدعوة الإسْلام وهذا ما نجده فـي سورتَيْن من العهد المَكّيّ المتوسط: ـ

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ سُورَةُ المُؤْمِنُونَ (٢٣/٥٢).

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُـمْ فَاعْبُـدُونِ ﴾ سُـورَةُ الأَنبِيَـاء (٢١/٩٢).

أصبحت الإشارات إلى تاريخ **العهد القديم** كثيرة ومتنوعة في هذه الحقبة. وقد قيل إنَّ هدفَ القُرْآنِ ليس فقط المصادقة على أصله الإلهيّ، بل أيضاً تأكيد ما جاءَ مِنْ قبلِه.

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى، إِمَاماً وَرَحْمَةً، وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَـدِّقٌ لِّسَـاناً عَرَبِيّاً ﴾ سُورَةُ الأحْقَافِ (٤٦/١٢).

وورد أنَّ اليهود الذين كان مُحَمّدٌ يصادقهم في مكّة، قالوا له إنَّ الله غالباً مـا يُسـمى **(الرحمن)** في الأسفار الخمسة، وقد لاحظوا أنه لم يستعمل هذا المصطلح. وفيما بعد جـاءَت الآية: ـ

﴿ قُـلِ ادْعُواْ اللهَ، أَوِ ادْعُـواْ الرَّحْمَنَ، أَيًّا مَّا تَـدْعُواْ. فَلَـهُ الأَسْـمَاء الْحُسْنَى ﴾ سُورَةُ الإِسْرَاءِ (١٧/١١٠).

---

[٧٣] هم اليهود، الذين ـ في فترة نبوة مُحَمّد ـ يجب أنْ يكونوا قد شعروا بالرضى جرّاء الميل القوي تجاههم، والاحترام لكتبهم المقدسة وتواريخهم، والذي ظهر في سور مَكّة المتأخرة (Rodwell, *Qur'an*, p. 427). والبيضاوي أكثر تحديداً. إذ يقول بأنَّ النصَّ يشير إلى اليهود والمسيحيين الذين اعتنقوا الإسْلام كعبد الله بن سلام والنجاشي، وهم ثمانون رجلاً، أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون من الحبشة، فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم. المجلد الأول، ص ٤٨٣.

توقف استعمال لقب الرحمن في السور الأخيرة،[٧٤] لئلا يُفترض أنَّ الله والرحمن إلهان مختلفان؛ وقد تم التحذير من هذا الخطر في الآية: ـــ

﴿ وَقَالَ اللهُ، « لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِـدٌ » ﴾ سُـورَةُ النَّحلِ (٥١/١٦).

كما أن قُرَيْشاَ بدورها رفضت المصطلح قائلةً بحسب القُرْآن: ـــ

﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟ ﴾ سُوْرَةُ الفُرْقَانِ (٢٥/٦٠).

وعندما قالت قُرَيْش: ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُـوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ؟ ﴾ أتت الإجابـة: ﴿ بَـلْ جَـاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾،[٧٥] و﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ حسب المفسرين، هـم الأَنبِيَـاء الـذين سبقوه: ـــ

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...
ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ: فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِـعْ أَهْـوَاء الَّـذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ سُوْرَةُ الجَاثِيَةِ (٤٥/١٦ ـــ ١٨).

ثمة تعابير كثيرة مشابهة تظهر أنَّ مُحَمّداً قد حصَّل خلال هذه الفترة بعض المعرفـة العامة بتاريخ اليهود القديم. غير أنَّه لا يوجد دليل قطّ على حيازته كتاب التوراة.[٧٦]

---

[٧٤] وعلى هذا، إنَّ ورود لفظة الرَّحمن، هو أحد الشواهد الداخلية لتأريخ السُّوْرَة.

[٧٥] سورة الصَّافات: ٣٧/٣٦ ـ ٣٧ ـ **المترجم**.

[٧٦] لا يمكن أنْ يراودنا الشكُ هنا بأنَّ مُحَمّداً لم يقرأ بنفسه الكتب المسيحيّة واليهوديّة. لهذا فإنَّ مأثورات العهد القديم في القُرْآن تشابه أكثر قصص الهاغادا المزخرفة أكثر من الأصل، في حين أنَّ مأثورات العهد الجديد هي إلى حد بعيد أسطوريّة وهي تشابه أكثر ما ترويه الأناجيل المختلقة. (Nöldeke, *Geschichte des Qorāns*, p. 6). إن مصطلح **النَّبِيّ الأمِّي** (سُوْرَةُ الأعْرَافِ ٧/١٥٧ ـ ١٥٨)، ذو صلة بهذه النقطة. ونقرأ في سُوْرَةِ البَقَرَةِ (٢/٧٨): **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّون** (اليهود) لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ (الأسفار الخمسة)، ومن الجلي أنَّها تشير إلى أولئك الذين لا يعلمون الكتب المقدسة. وفيما يتعلق بالإشارة إلى مُحَمّدٍ، فإنَّ مصطلح **الأميّ** يعني ببساطة بأنّه مَنْ ليست له معرفة مسبقة بالكتاب المقدس، لا كما يقول المسلمون بأنّه المرء الجاهل، فاقد التعليم الضروري لنظم مثل هذا الكتاب، والذي يجب أن يكون بالتالي كلام الله. انظر (*Faith of Islam* (4th ed.), pp. 18-21). وأنّه لا يلامس مسألة قدرته على القراءة، أو تظهر بأنّه كان في المعنى العام للمصطلح رجلاً جاهلاً. (Nöldeke, *Geschichte des Qorāns*, p. 11). انظر ملاحظة غايغر المثيرة في (*Judaism and Islam*, p. 20). والنص الوحيد المستشهد به من العهد القديم في القُرْآن هو: ـ

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ، أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)
سُوْرَةُ الأَنبِيَاء (٢١/١٠٥).

وهي مأخوذة من المزامير (٣٧/٢٤): « إنّ الصّالحين سيرثون الأرضَ ».

فالقصص التي يرويها لا تتطابق مع نصوص التوراة، غير أنَّها تماشي الأسطورة اليهوديّة وحكاية الأحبار. ويبدو واضحاً أنَّه كان لمُحَمّدٍ بعض المعارف اليهود وقد استقى رواياته منهم، لتتخذ لاحقاً صيغتها الحالية في القُرْآن. يقول موير: « مزج الحقيقة بالخيال، والتصوير الروائي بتفاهة طفوليّة، وتكرار القصص نفسها مرة بعد مرة بتعابير مقولبة، والجهد الفائق والواضح لإظهار صورة التماثل بينه وبين الأَنبِيَاء السابقين عبر وضع حديثه اليومي على شفاهم وشفاه أعدائهم المزعومين، كل هذا يتعب قارئ القُرْآن الصبور ويصيبه بالغثيان ».[٧٧]

غير أنّ النقطة التي يجب ملاحظتها هي أنَّ كلَّ تلك القصص تُقدَّم بوصفها شاهداً على الإلهام المباشر: ــ

﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ: إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ سُوْرَةُ ص (٦٩/٣٨ ــ ٧٠).

قصة خلق الإنسان استقيت على الأغلب من اليهود، لكن مُحَمّداً قدَّم معرفته بها على أنّها برهانٌ آخر على نبوءته الإلهية. ونقرأ في تاريخ يُوْسُف أنه جاء بالوحي من الله: ــ

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآن ﴾ سُوْرَة يُوْسُف (٣/١٢).

تأتي بعدها قصة يُوْسُف، كما تُروى في الأساطير اليهوديّة؛ وتعطى لها أصول إلهية: ــ

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ سُوْرَة يُوْسُف (١٠٢/١٢).

لم يقتنع المَكيّون بالمصدر فوق الطبيعي لهذه المسائل، وقالوا: ــ

﴿ ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ سُوْرَةُ النَّحلِ (١٠٣/١٦).

ويعطي المفسر القادياني مُحَمّد علّي، ثلاثة معاني ممكنة للمصطلح: (١) الذي لا يجيد القراءَة والكتابة؛ (٢) واحدٌ من العرب؛ (٣) امرؤ من مَكّة ـ أم القرى (*Holy Qur'an*, p. 361.). وبشأن سُوْرَةِ العَنْكَبُوتِ (٤٨/٢٩) يقول إنّ مُحَمّداً لم يكن قادراً على القراءة والكتابة. ويجادل بأنَّ هذا « برهان على الأصل الإلهي لتعاليمه ويميزه عن باقي الأنبِيَاءِ الآخرين ويجعله متفوقاً عليهم جميعاً ». (*Op. cit.* p. 781.). بإمكاننا الإقرار بأنَّ هذا يجعله مختلفاً؛ لكن من العسير فهم كيف أنَّ الجهل يجعله متفوقاً.

[77] Muir, *Life of Mahomet*, vol. ii., p. 185.

ويأتي ردّ النَّبيّ على هذا الاتهام، في الآية نفسها، بأن لسان الذي يُلمِحون إليه أعجمي[٧٨] والقُرْآن عربي؛ فإذا بالردِّ على ذلك بحجة معاكسة سهل، بأنّ مُحَمّداً زُوِّد بالمادة فقام بمعالجتها في صيغة عربيّة. ومرّة تلو المرة كان على مُحَمّدٍ رد الحَجّة بنصوص مثل هذه: ــ

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ سُوْرَةُ الفُرْقَانِ (٢٥/٤).

كانت قُرَيْش متمسكةً بثباتٍ بقناعتها، وأصرّت على اعتبار أنَّ ذلك كلّه تاريخ يهودي، ونقرأ في الآية التالية: ــ

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (٥).

لقد تبنت قُرَيْش الآن سبلاً أخرى إذ قامت بقطع كل اتصال اجتماعي بين سائر الناس وآل مُحَمّدٍ، وعُزِل أقرباؤه وحُصروا في شعب من المدينة. ومع مرور الزمن، مال بعض القرشيين إلى الليونة؛ وفي هذه الفترة بالذات، غيَّب الموت أبا طالب ففقدَ مُحَمّدٌ حاميَه، وبعدها بخمسة أسابيع فقد أيضاً زوجته الحكيمة والمحبة خديجة، وهذا ما زاد الموقف تأزماً. في وحدته حزن النَّبيّ، وفكّر واليأس يمتلكه في إمكانية استقبال أهل الطائف ــ المدينة التي تبعد حوالي سبعين ميلاً الى الشرق من مَكّة ــ له، وهو الرجل التي رفضته مَكّة. دخل مُحَمّدٌ الطائف يرافقه زيدٌ [بن حارثة، م.] الأمين، فزار الأشراف وشرح لهم رسالته، لكنهم لم يقبلوه ولم يتّبعوا تعاليمه. بعد عشرة أيام، تعرّض مُحَمّد للرمي بالحَجّارة وأصيب بجراح وكان قد نال منه التعب كلّ منال، فاضطر للهرب من الطائف. وفي منتصف طريق رحلة العودة تقريباً، توقف في وادي نَخْلة. وإذ كان مهتاجاً بكلِّ الذي جرى، وحزيناً بسبب رفض رسالته، رأى في الخيال جماعةً من الجّن يعلنون الإيمان.

فتنزلت عليه إثرها سُوْرَةُ الجِنِّ (٧٢):[٧٩] ــ

---

[٧٨] يقول الحسين بأنّ (**أعجميّ**) تعني « بدون فصاحة ». ويضيف، « بأن كلام النَّبِيّ كان فصيحاً من حيث المادة والأسلوب (در فصاحت وبلاغت)، فكيف له أنْ يتعلّم القُرْآن من رجلٍ مثل هذا؟ ».

يقول ابن عباس بأنّ (**أعجميّ**) تعني عبراني. وثمة ملاحظة شديدة الغنى حول هذه الآية لدى ويري (*Commentary on the Qur'an*, vol. lii p. 45.).
إن الآيات: ١٠٩، ١٢٠ ـ ١٢١، ١٢٣ مَدَنيّة، ذلك أن سُوْرَةَ النَّحلِ متبعّضة.

[79] Rodwell, *Qur'an*, p. 157, note 3.
ومن أجل وصف ممتاز لهذه الرحلة، انظر: (Muir, *Life of Mahomet,* vol. ii, pp. 200-7.).

﴿ قُل: أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا، « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ » ﴾ (١، ٢).

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ، كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ (١٩).

كان قبولُ الجنِّ لرسالتِه تعزيةً جليلةً للنَبِيّ، بعد عدم المبالاة المزدرية التي أبداها البشر. وقد أُشير إلى هذه الحادثة في واحدة من السور المَكْيّة المتأخرة: ـ

﴿ وإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآن ﴾ سُوْرَةُ الأحْقَافِ (٢٩/٤٦).

لم تكن الرسالة قد لاقت بعد أيَّ نجاحٍ رغم أنَّ الجهد المبذول كان عظيماً ومدهشاً. وكما كتب موير بحق، « ثمّة شيء ما متعظرس وبطولي في رحلة مُحَمّدٍ هذه إلى الطائف؛ فرجل منفرد، مُحتَقَر ومرفوض من أبناء مدينته، يتقدم بشجاعة باسم الله، مثيل رحلة يُونَان إلى نِينَوى،[٨٠] ويدعو مدينة وثنية إلى التَّوْبَة وتأييد رسالته. هذه الرحلة تظهر مدى قوة إيمانه في أصول دعوته الإلهية ». عاد مُحَمّد إلى مَكّة ووجد معارضة قُرَيْش قوية كما كانت. وقد بات جلياً له الآن بأنه على أحد الطرفين أنْ ينهزم للآخر؛ وتدريجياً، بدأت فكرة الانسحاب كليّاً من مَكّة تأسر فؤاده.[٨١] كان الإخفاق في مَكّة تاماً: لقد تمتَّع مُحَمّد في مكَّة بصلات قربى مع كبار القوم، وعلاقات جيدة مع سدنة الكعبة، وكانت له مناقب شخصيّة عديدة، وصبر لا يقهر، وشجاعة صلبة وبلاغة متقدة، ورغم كلّ ذلك لم ينجح إلا في كسب عصبة قليلة جداً من الأتباع. لقد مُنيت رسالته في مَكّة بفشلٍ كليٍّ. وقد أَزِف الوقت ليحاول في مكان آخر.

---

[٨٠] الإشارة إلى العهد القديم، يُونَان (٤/٣) ـ **المترجم.**

[٨١] لقد أُلمح إلى ذلك في سُوْرَة مَكْيّة متأخرة، سُوْرَةُ العَنْكَبُوتِ (٥٦/٢٩): ـ

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا! إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ؛ فَإِيَّايَ، فَاعْبُدُونِ)

ويعلق رودويل عليها بالتالي: « إنْ ابتعدتم عن مسقط رءوسكم، فإنَّه بمقدوركم أنْ تجدوا أماكن لجوء، حيث بوسعكم عبادة الإله الحق في أجزاء أخرى من الأرض. إنَّ هذه الآية دالة على الأصل المَكْيّ المتأخر. يجب أن تكون مغادرة مَكّة وشيكةً عندما كان بوسع مُحَمّد قول هذا » (Rodwell, *Qur'an*, p. 329.).

ويفسر الحسين (أَرْضِي وَاسِعَةٌ) بـ: زمين گشاده است هجرت كنيد از موضع خوف بمنزل امن

« إنَّ الأرضَ رحبةٌ، فلترحل من مكان الخوف، إلى مكان الأمن ». **تفسير الحسيني**، المجلد الثاني، ص ١٧٣.

ويقول عباس إنَّ البعض يعتبرها إشارة خاصة إلى المدينة، ويقول آخرون: « بأنها أُعطيت من أجل تعزية المؤمنين في مَكّة في الوقت الذي كانوا يتعرضون فيه للاضطهاد، ولم يكن الله قد فرض مقاتلة الكافرين بعد، وبالتالي هي أمر بالهجرة ». خلاصة التفاسير، المجلد ٣، ص ٤٧١.

ومن الواضح من كل ذلك أنَّ مُحَمّداً كان يهيئ على هذا النحو أتباعه الآن على الهجرة.

لم تكن مدينة يثرب غريبةً عن مُحَمّد إذْ إنَّ جده وجدة أمه كانا من أهل تلك المدينـــة، كما أن والده قد دُفن هناك أيضاً. وقد كان ثمة تنافس بين يثرب ومَكّة، وبالتالي فإنَّ من رُفِض في إحداهما أمكن له أنْ يلاقي نصيباً أفضل في الأخرى. علاوة على ذلك، كانت ثمة أحقــاد وثأر بين كبرى القبيلتيْن اللتيْن تقطنان يثرب، إمتدت لأكثر من مئة عام، وكان هنـــاك ميــل لوضـــع حدٍ لهذه الخلافات عبر اختيار رجل ما كي يكون ملكاً أو حاكماً. « لهذا السبب كانت يثرب مهيأة كلياً للإسْلام؛ فهو لم يكسب أي دعم في مجتمع معافى مثل مجتمع مَكّـــة؛ لكنـــه، وفي مجتمع أثقلته جراحات سنوات نزاع أهلي طويل، يمكن أن ينتشـــر بســـرعة وســـهولة »؛[٨٢]هذا إضافة لوجود جالية يهوديّة قويّة هناك هيأت الطريق للإصلاح الـــديني. لقـــد كـــان المَكيّون صِرفَ ماديين ولم يرتقوا إلى الجانب الروحي من تعاليم النَّبِيّ. أما في يثرب، فقـــد كان الأمر مختلفاً؛[٨٣] إنَّ الاتصال الطويل مع اليهود جعل مواضيع كوحدانية الله والوحي عبر الأَنبِيَاء والحياة الآخرة كلّها أموراً مألوفة لليثاربة ولو بدرجات متفاوتة. إنَّ الإِسْـــلامَ يـــدين ليثربَ بالكثير. لقد أنقذت مُحَمّداً من المضي في دعوته كشخص متحمس، مرفوض ومنبـــوذ من قبل قومه. لقد « أضحت مسقط رأس الإِسْلام الحقيقي، ومهد قوتـــه السياســـية ومركـــز الفتوحات عبر الجَزِيْرة العَرَبيّة ». وقد سُميت بحق مدينة النَّبِيّ، وسُمي مهتدوها عـــن حـــق أنصاراً.[٨٤] ساعدت المشاعر السائدة في المدينة والوضع العام فيها على التخفيف مـــن كآبـــة النَّبِيّ. لقد كان حزيناً، منكسراً وتعِباً جرّاء إخفاق جهوده كلها وجـــراء المعارضـــة الدائمـــة لقُرَيْش. وليس غريباً أنْ تكون أفكار تغيير المسكن قد راودت تفكيره. ونجد في سُوْرَة من هذه المرحلة:[٨٥] ــ

[82] Margoliouth, *Mohammed*, p. 198.

[٨٣] « في الجانب الآخر، كان على مُحَمّدٍ في المدينة أنْ يواجه صعوبات، لم يختبرها في مَكّة قط. إنَّ جهلَ قُرَيْشٍ سمح له بتقديم أيّ روايةٍ أحبها للسور التي كان يتلوها. عندما كان يؤكد بأنَّ أساطيره المضحكة والمسفة حول نوح وإبراهيم وآخرين، قد لقنه إياه جِبْرِيل كبير الملائكة وأنها تماثل القصص المشابهة في كتب اليهود المقدسة، وقد كان المَكّيّون يفتقرون إلى المعرفة من أجل البرهنة على زيفها. وفي المدينة تواجه مع عين الناس ونفس الكتب التي احتكم إليها لتأكيد صدق بعثه » (Osborn, *Islam under the Arabs*, p. 43.).

[٨٤] تقول بعض المصادر إنَّ التسمية تشير إلى: (١) الذين صاروا مسلمين قبل تغيير القبلة؛ (٢) أولئك الذين « اشتركوا في صلح الحُدَيبِيَة ».

[٨٥] تحتوي هذه السُّوْرَة على بعض الآيات المَدَنيّة، حيث أنه لدينا في الآية الحادية والتسعين اتهام معتاد ضد اليهود بإخفاء بعض الأجزاء من كتبهم المقدسة. ولم يكن هذا الاتهام مألوفاً في مَكّة بل كان شائعاً في المدينة. ونقرأ في الآية الثانية والتسعين من سُوْرَةِ الأَنْعَام: ـ

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ، مُصَدِّقُ الّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)

يترجم سِل (أمّ القُرَى) بـ « حاضرة مَكّة »، مستنداً في ذلك إلى بعض المفسرين، ولكن من خلال السياق يبدو أنّه من الأفضل اعتبارها تشير إلى المدينة. بأي حال لم يعظ أو ينذر مُحَمّد الذين كانوا يقطنون حول مَكّة باستثناء البعثة الفاشلة إلى الطائف (*ante*, p. 61).

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ! لا إِلــــَهَ إِلاَّ هُــوَ! **وَأَعْــرِضْ عَــنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ سُوْرَةُ الأَنْعَامِ (٦/١٠٦).

تشير الكلمات الأخيرة إلى الهجرة وخروج النَّبيّ من مكَّة، وقــد تلقـــّى المصـــادقة والسلطان على رأيه بوحي من أعلى.

سنة ٦٢٠ م، في فترة حَجّ العرب الوثنيين السنوي إلى مَكّة، لاحظ مُحَمّد جماعة من الغرباء من المدينة. ولما سألهم قالوا إنَّهم من الخزرج، إحدى قبائل المدينة القوية، وأضافوا « إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم وعســى الله أنْ يجمعهــم بــكَ. وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هــذا الــدين؛ فــإنْ يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك ». وجواباً على سؤالٍ لاحق، قالوا إنّهم مــن أصــدقاء اليهود. عندها طرح مُحَمّدٌ عليهم مذهب الإِسْلام وتلا عليهم أجزاءً من القُرْآن. ويظهــر مــن سُوْرَةُ يُونُسَ (١٠) أن بعض اليثاربة الذين التقاهم مُحَمّد كانوا من اليهود: ــ[٨٦]

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٩).

ونقرأ أيضاً في سُوْرَةِ الأَحْقَافِ (٤٦)، وهي بدورها سُوْرَة مَكّيّة متأخرة: ــ

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله، وَكَفَرْتُم بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ[٨٧] مِّن بَنِــي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ؟ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّــالِمِينَ ﴾ (١٠).

حَدَثَ يوماً أنَّ اليهود تعرضوا للضغط من قِبل الخزرج، وكانوا يتطلعون إلى مجـــيء مسيحهم، فقالوا: « إنَّ نَبِيــّاً الآن مبعوث، قد أظلّ زمانه نتبعه ونقتلكم معه ». ولدى ســماع حجاج المدينة ادعاء مُحَمّدٍ أنه نَبِيٌّ، ظنّوا أنّه النَّبِيّ الذي ينتظره اليهــودُ واعتبــروا أنَّ مــن

لقد صار شائعاً الآن إرجاع الآيات المنزلة متأخراً إلى السور المبكرة. انظر (Wherry's *Commentary on the Qur'an*, vol. ii, p. 182, and Muir, *Life of Mahomet*, vol. ii, p. 268.).

[٨٦] وهذا ما جعلَ بعضهَم يعتبر أنَّ الآية أربعين أو حتّى كامل السُّوْرَة تنزّلت في المدينة.

[٨٧] « ما إذا كان هذا الشاهد ومؤيدي مُحَمّدٍ الآخرين من بين أتباعه المزعومين، أو ربما كانوا أرقاءً في مَكّة، أو كانوا زواراً عابرين من القبائل الإسرائيليّة، أو ينتمون إلى قاطني المدينة اليهود (الأهالي الذين كانت مدينة النَّبِيّ على وشك تأسيس علاقة طيبة معهم)، فنحن لا يسعنا إلاّ الحدس » (Muir, *Life of Mahomet*, vol. ii, p. 185).

يقول معالم بأنَّ الشاهد كان يهوديّاً عالماً، يُدعى عبد الله بن سلام، الذي صار مؤمناً في المدينة. ويقول كبير بأن الآية مَدَنيّة وبالتالي يجب أن يكون الشاهد من اليهود هناك. **خلاصة التفاسير**، المجلد ٤، ص ٢٠١.

السياسة أنْ يسبقوهم فيضمنوه إلى جانبهم. وهكذا، فقد استمعوا إلى مُحَمّدٍ وآمنوا بـه وقبلـوا الإسْلام. ورداً على طلب مُحَمّدٍ بالحماية في المدينة، أشاروا إلى أنّ ثمّة شقاقاً واسعاً وخلافـاً بين أهلها، ومن الأفضل أنْ يعودوا إلى المدينة فيدعوا الناس للإيمان، وإذا ما وحدهم الله فـي ذلك، فإنّهم سيرجعون إلى مَكّة في سنة الحجّ التالية ويبلغوه النتيجة.[٨٨] يقـول جـلال الـدين السّيوطي إنَّ مُحَمّداً تلا على هؤلاء المهتدين سُوْرَةَ يُوْسُف، ويلاحِظ أنها السُّوْرَة الوحيدة التي ينتظمها سلك موضوع واحد. كان أهل المدينة قد سمعوا عن يُوْسُف من جيرانهم اليهود، وها هو مُحَمّدٌ يعيدها الآن عليهم بكامل تفاصيلها إبرازاً لعلمه بالماضي بفضل ما منحـه اللهُ. إنّ الرّوايةَ ككلٍّ نسخةٌ ساذجةٌ عن الرّواية المُوْسَوية، وتُظهِر بوضوح أنَّها نقلاً عـن أشـخاص جاهلين، على إطلاع على القصص التقليدية الفضفاضة فحسب.

وقفت جماعة المهتدين الصغيرة بثبات في المدينة، ولما حان موعد الحَجّ ثانية، كـان ثمة اثنا عشر أنصاريّاً[٨٩] وسط حاج المدينة. فالتقوا النَّبِيّ، وقدموا قَسَم الطاعة التالي لمُحَمّـدٍ وتعاليمه:

« على ألاّ نشرك بالله شيئاً ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتـان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصي النَّبِيّ ». وهذا ما عُرف بـ « بيعة العقبة الأولى »، وإذْ لم تتضمن هذه البيعة وعداً بالدفاع عن النَّبِيّ، عُرَفت أيضاً بـ « بيعة النساء »، كون النساء تأخذ مثل هذه البيعة فحسب. وبعد عودتهم إلى المدينة أتباعاً متحمسين، التحـق قـوم كثـر بالتعاليم الجديدة مما اضطرهم طلبَ معلّمٍ خاصٍ من مَكّة. فأُرسل مُصْعَبَ [بنَ عُمَيـر، **م.**][٩٠] وأخذ الإسْلام يضرب بجذوره في المدينة. كانت هذه سنة متطاولة وكان النَّبِيّ يائسـاً بشـكل ظاهر من إحراز أيّ تقدمٍ في مَكّة وقد عَقَدَ آماله على المهتدين الجدد في المدينة، فعزم بشكل قاطع على ترك قُرَيْش، وتلقى في السُوْرَة المَكّيّة قبل الأخيرة تعليمات واضحة للقيام بذلك: ـــ

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ: لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ.
وَلَوْ شَاء اللهُ، مَا أَشْرَكُواْ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً، وَمَا أَنـتَ عَلَـيْهِم بِوَكِيلٍ.
وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ، فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْواً بِغَيْـرِ عِلْـمٍ ﴾
سُوْرَةُ الأَنْعَامِ (٦/١٠٦ ــ ١٠٨).

---

[٨٨] ميرخوند، **روضة الصفا**، الجزء الثاني، ص ٢٢٠.
[٨٩] **الأنصار**: الاسم الممنوح لمهتدي المدينة.
[٩٠] لقد كان مصعب مهتدياً، وقد عانى من الاضطهاد. وقد كان مكرساً نفسه لقضية النَّبِيّ، الذي كان يحبه كثيراً.

رغم غياب أيِّ صدامٍ في هذه الفترة، كانت هناك ثقة تامة في المآل النّهائيِّ، ألا وهو النّصر على سكان مَكّة المتعنّتين. وعلى ذلك: ـــ

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ، « لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِــي مِلَّتِنَا ».
فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ، « لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ».
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ؛ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ.
وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ سُوْرَةُ إِبْرَاهِيم (١٤/١٣ ـــ ١٥).

في غمرة هذا الصمت والحالة الموهنة للعزيمة، وعندما بدت سنوات العمل الـــثلاث عشرة المضنية وكأنَّها لم تثمر أيَّة نتيجة سوى أنّها، عمليّاً، قادت إلى وضع شبيه بالمنفى، حَلِمَ مُحَمّد أنّه، في الحلم على الأقلّ، عبر إلى بيت المَقْدِسِ حيث التقى الملائكة والآباء والأَنبِيَـــاء، ومن هناك إلى السّماء الأعلى وإلى حضرة الله نفسه: ـــ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْـــجِدِ الْحَـــرَامِ إِلَـــى الْمَسْـــجِدِ الأَقْصَى، الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (١٧/١).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ، إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ؛ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآن ﴾ (٦٠).[٩١]

منح هذا الحدث خيال الشعراء ورواة الأحاديث أفقاً واسعاً فقدموا وصفاً أكثر حيويّـــة لما رأى النَّبِيّ وسمع.[٩٢] ومن الظلم النظر إلى هذه الزخرفات المفرطة كمسائل وَجُبَ الإيمان بها. إنَّ أكثر أعضاء المدرسة الإِسْلاميّة الهنديّة الحديثة ينظرون إلى المعراج بوصفه رؤيـــا، بيد أنَّ التقليديين يدينون مثل هذه النظرة.[٩٣]

---

[٩١] يقول مُحَمّد عليّ بأنَّ المعراجَ كان روحيّاً وليس جسديّاً. والشجرة الملعونة تسمى الزّقوم في السُوْرَةِ السابعة والثلاثين [الصافات، م.] (٦٢). وهي طعام أهل الجحيم. وفيما بعد يقدم هذا المفسر استنتاجاً يدعو للاستغراب، وهو إنَّ هذه الرؤيا تظهر انتصار الإِسْلام وهزيمة أعدائه.

[٩٢] من أجل وصف كلي لهذه المعجزات، انظر (Koelle, *Mohammed and Mohammedanism*, pp. 304-14; also, Deutch, *Literary Remains*, pp. 99-112.).

[٩٣] « فيما يخص المعراج على كلِّ المسلمين أنْ يؤمنوا بأن النَّبِيّ قد شاهد بنفسه، في الرؤيا، أنّه نُقل من مَكّة إلى القدس وفي مثل هذه الرؤيا شاهد بعضاً من آيات ربه حقيقةً » (Syed Ahmad, *Essays*, vi. p. 34).

وتشير نظرة مُحَمّد علي إلى الهجرة من مَكّة، أي من الكعبة إلى المسجد الذي سيُبنى قريباً في المدينة. (*Holy Qur'an*, p. 561.).

مع حلول موعد الحَجّ التّالي، جاء مصعب بتقرير كامل عن النجاح الكبير الذي لقيه في المدينة. والتقى مُحَمّدٌ في الليلة الأخيرة للحجّ بمهتدي المدينة، وقد حضر اللقاء ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان. ألقى مُحَمّدٌ فيهم خطاباً وسألهم بيعة الدفاع عنه فقاموا بذلك، وقد عُرفت هذه البيعة بـ « بيعة العقبة الثانية ». وقد تحددت طبيعة الميثاق بما يلي: قال مُحَمّد[٩٤] « أبايعكم على أنْ تمنعوني مما تمنعون منه نساءَكم وأبناءَكم ». أجابه أحد الزعماء[٩٥] « والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر ». وقال آخر[٩٦] « يا رسول الله، إنّ بيننا وبين أقوامٍ حبالاً [أي اليهود]؛ وإنّا لقاطعوها، فهل عسيت إنْ أظهرك الله أنْ ترجع إلى قومك وتدعنا ». أجاب مُحَمّد « بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني ».[٩٧] وهذا يظهر أنّ تطور منظومة النَّبِيّ الدينيّة ــ السياسيّة قد تقدمت درجة أبعد في ذهنه، وأنّ رغبته الطويلة في توحيد العرب في كلٍّ سياسي باتت أقرب للتحقيق. كان هذا الميثاق مَدَنيّاً وسياسيّاً، دفاعيّاً وهجوميّاً، مبنياً على أُسُسِ رفض الوثنيّة وقبول الإِسْلام والخضوع لإرادة النَّبِيّ. « كان على المتعاطفين من المدينة، في الحَجّ الأَّول، أنْ يقسموا يمين الولاء الخاص بالنّساء؛ لكن، وفي الحَجّ الثاني، وبعدما تمّ إحراز تقدم وناهز عدد المتعاطفين السبعين، توجب عليهم أنْ يقسموا يمين الرجال والمحاربين ».[٩٨] لم يكن هذا الميثاق تغييراً لجبهة المواجهة، بل جسد ببساطة التطور التدريجي لمبادئ الإِسْلام، وشكَّل نقطة انطلاق واضحة للفتحيْن الدّاخليّ والخارجيّ وقد كان مقبلاً عليهما.

سُوْرَةَ الرَّعْدِ (١٣) هي آخر السُوَر المَكّية، توجهت بكليتها إلى قُرَيْش، وفيها كلمات النَّبِيّ الأخيرة إليهم. لقد سُميت عن حق « سُوْرَة المنافحة »، كونها تقدم أسباب عدم قيام النَّبِيّ بالمعجزات. فعندما سألوه إشارة، أُخبر أنْ يقول: ﴿ إنَّما أنتَ منذِرٌ ﴾[٩٩]. وقد قال الكافرون بأنّهم لن يؤمنوا ما لم يرسِل الله له إشارة. ولم يتم تلقي أيّة إشارة، بيد أنّ الرسالة جاءَت: ــ

﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ (٢٦).

تعتبر النظرة التقليدية كافراً من ينكر حقيقة الإسراء الجسدي إلى القدس، كونه ينكر **النص** أو التصريح الواضح للقُرْآن؛ وأما من ينكر المعراج اللاحق للسماء التي ترويها الأحاديث فتعتبره **فاسقاً**، مع أنّه يبقى مسلماً. أنظر (*The Faith of Islam* (4th ed.), p. 309.).

[٩٤] ميرخوند، **روضة الصفا**،الجزء الثاني، ص ٢٢٩.

[٩٥] البراء بن معرور ـ **المترجم**.

[٩٦] أبو الهيثم بن التيهان الأوسي ـ **المترجم**.

[٩٧] حسب ابن إسحاق، كما أورده كويل في (*Mohammed and Mohammedanism*, p. 325.).

[98] Koelle, *Mohammed and Mohammedanism*, p. 107.

[٩٩] الآية ٧ ـ **المترجم**.

﴿ قُلْ، إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (٢٧).

لقد قيل إنَّ سُوْرَةَ الأَنْعَامِ ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٦/٦) هي أمر بالرحيل عن مكّة.

لذا، وبإنذار ووعيد للذين رفضوا دعوته بالنّار الأبديّة والعذاب السّرمدي، غادر النَّبِيّ المدينة التي بشَّرَ فيها وترافع على مدى ثلاث عشرة سنة، ولكن عبثاً.

بعدها بأيام، أمر مُحَمّدٌ أتباعَه بالهجرة قائلاً: « إنّ الله قد جعل لكم في المدينة إخواناً وداراً تأمنون فيها ». وفي غضون شهرين هاجر الجميع تقريباً. إهتمت قُرَيْش لما جرى، وإذ كان مُحَمّدٌ قد تخلَّف، فإنَّ الأمور التبست عليهم وتساءَلوا عمّا هو آتٍ. فعزموا على تشكيل قوة تترصده؛ وإذْ كان مُحَمّدٌ يخشى مَكْيّدة ما، أنسل خارج منزله ملتحقاً بأبي بكر، وما إنْ أسدل الليل ستاره حتى ترك المدينة. وقد أُستذكر مسلك قُرَيْش فيما بعد، وأُشير إليه في سُوْرَة مَدَنيّة مبكرة: ـــ

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ، لِيُثْبِتُوكَ،[١٠٠] أَوْ يَقْتُلُوكَ، أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ سُوْرَة الأَنْفَال (٣٠/٨).[١٠١]

لجأ أبو بكر ومُحَمّدٌ إلى كهف لمدة ثلاثة أيام ريثما ينتهي البحث عنهما. وبعد ذلك بسنوات، ألمح القُرْآن إلى التدخل الإعجازي لله في حماية النَّبِيّ: ـــ

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا. فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ سُوْرَةَ التَّوْبَةِ (٤٠/٩).

---

[١٠٠] يقول سِل متبعاً إثر بعض رواة الأحاديث، بأن قُرَيْشاً تآمرت على قتله؛ لكن يبدو أنَّ الأحاديث نتجت عن الآية. « إنَّ قراراً مصيريّاً للغاية لا شك فيه، قد أُسهب به في القُرْآن والأحاديث، ونتج بوصفه تبريراً لكلّ العدوات اللاحقة » (Wherry, *Commentary on the Qur'an*, vol. i, p. 84). وانظر كذلك موير (*Life of Mahomet*, vol. ii, p. 125.).

[١٠١] يشير مُحَمّد إلى مؤامرة ضد النَّبِيّ صالح في سُوْرَة مَكْيّة متأخرة: ـ

(وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ.
انظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ. أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ.
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) سُوْرَةُ النَّمْلِ (٥٠/٢٧ ـ ٥٢).

لا شك إنَّ ذلك كان إنذاراً لقُرَيْش، التي كانت ألدَّ أعدائِهِ.

لقد أصبح ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ واحداً من ألقاب تكريم أبي بكر.[١٠٢] وتدوّن الأحاديث الإسْلاميّة معجزات عديدة عائدة إلى هذه الأيام الثلاثة.[١٠٣] ترك المسافران الكهفَ ووصلا المدينة، فتمت الهجرة، وهي إن دلَّت على أمر فهو أنَّ عملَ النَّبِيّ في مَكّة قد مني بالفشل. لقد رأى المَكّيّون أنَّ تبنّي أُسسه سيقود إلى استبداد مدنيٍّ مرتكزٍ على الدين وهذا ما لم يكونوا على استعداد لقبوله. أما في المدينة، فقد كانت التوقعات أشد إشراقاً. إنّ ترقب اليهود للمسيح عمم فكرة قدوم نَبِيّ؛ وكان الشقاق والعداء القبليان قد أرهقا الناس وبالتالي كان هؤلاء سعداءً بأنَّ أحداً ما، ذا سلطة، يمكن أنْ يحكم بينهم. لقد كان الدرب ممهداً من أجل تأسيس منظومة سياسيّة ـــ دينيّة لطالما فكر فيها النَّبِيّ مليّاً ورغبها بشدة. « لقد كان إخفاقُ مُحَمّدٍ في مَكّة إخفاقَ نَّبِيّ، أما نجاحه في المدينة فكان نجاح شيخ القبيلة والفاتح ».

حتى ذلك الوقت، كان القُرْآنُ ـــ كما رأينا ـــ جملةً من حججٍ دحضت الوثنيّة وشجبت بشكلٍ ضارٍ المَكّيّين الذين لم يقابَلوا بحججٍ عقلانيّة، ذلك إنّ مُحَمّداً دثّر نفسه بالجلال النّبويّ، وبإسم الله سكب اللعنات على أعدائهِ وحكم عليهم بأنْ يُحرَقوا في الجحيم. في مَكّة عالج القُرْآن صفات الله القدير، العليم والواحد؛ مع تصوير بارز لعذابات الجحيم ومتع الجنّة، وقصص أسطوريّة عن الأَنبِيَاء السابقين وتأكيد شديد لدعاوي مُحَمّد وطبيعته الإلهيّة الخاصّة. المبادئ الخاصّة بالسلوك القويم بقيت محدودة، وأوقات الصّلاة، وبعض القواعد المحددة للطعام،[١٠٤] والمحرمات فيما خصّ الطقوس القديمة وغير المحتشمة المرتبطة بالطواف حول الكعبة،[١٠٥] لكنَّ الشعائر لم يتعرّض لها بإسهاب بعد. المنظومة الاجتماعيّة وقوانين الإسْلام لم تثبت بعد في صرامتها. سور المدينة تناولت العقيدة الإسلاميّة بشكلٍ محدود ولكنها ركّزت على القوانين التي يتوجب على المسلمين إتباعها في حياتهم اليوميّة. إنَّ القُرْآن ككلٍّ ليس

[١٠٢] يقول السّنة الذين يقدرون أبا بكر عاليّاً، بأنَّ الآية الخامسة عشر من سُوْرَةِ الأَحْقَافِ (٤٦) ـ وهي سُوْرَة مَكّيّة متأخرة ـ، تشير إليه: ـ

(وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً. حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً: حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ: « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ، الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ »)

وحسب المفسر الحسين، فإنَّ أبا بكر اعتنق الإِسْلام وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وإنَّ أمه وأباه قد اهتديا، وقد قال في الأربعين من عمره، « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ». وتوصف النعم بأنَّها هبة وبركة الإِسْلام. **تفسير الحسيني**، المجلّد الثاني، ص ٣٢١.

ويعتبر رودويل بأنَّ هذا الشرح للآية قد أُختلق بعدما صار أبو بكر خليفةً. ونلِدِكه شكك بصدد ذلك.

[١٠٣] انظر (Koelle, *Mohammed and Mohammedanism*, pp. 315-21.).

[١٠٤] سُوْرَةُ طَه (١٣٠/٢٠)؛ سُوْرَةُ الرُّوْمِ (٣٠/٣٠ ـ ٣١)؛ سُوْرة هُودٍ (١١٤/١١)؛ سُوْرَةُ الأَنْعَامِ (١٤٥/٦ ـ ١٤٦)؛ سُوْرَةُ النَّحلِ (١١٥/١٦)؛ لكن قد تكون هذه الآية الأخيرة مَدَنيّة.

[١٠٥] سُوْرَةُ الأَعْرَافِ (٢٦/٧ ـ ٣٢).

مصوغاً حسب خطة محددة لكنه اتَّبَع الحاجات والإيحاءات اليوميّة وظروف الساعة. بلاغـة النَّبِيّ المتأججة غائبة الآن، وقد حلّت مكانها أوامر الإداري العملي. فالنَّبِيّ يتعامـل الآن مـع قضايا الحياة الاجتماعيّة والتفاصيل المحليّة والحرب والسّلام، ويمكننا تسميته بالقِسْم التّشريعيّ من القُرْآن. أما الأسلوب الخطابي فهو عموماً شبيه بالحقبة المَكّيّـة الثالثـة وغيـر منمـق باستثناءات قليلة. والسّور طويلة وربما مكوّنة من تحذيرات قصـيرة وآيـات ظهـرت فـي مناسبات مختلفة، ومن ثمّ رُتبت في سُوْرٍ من دون أيِّ خطةٍ واضـحةٍ أو نظـامٍ، علـى مـا يبدو.[١٠٦]

[١٠٦] من أجل وصف تدوين القُرْآن و« قراءاته المختلفة » انظر:
Sell, *Recension of the Qur'an* (C.L.S.), pp. 1-10, 15-19.

الفصلُ الثَّاني

الحقبة المَدَنيّة

خلال شهر حزيران (يونيو) ــ في الغالب ــ من سنة ٦٢٢ ميلادية، دخــل مُحَمّــدٌ المدينة على رؤوس الأشهاد،[١٠٧] يرافقه حوالي مئة وخمسون شخصاً. كان اليثاربة راغبــين باستضافته رغم عدم توافقهم فيما خص دعواه بالنّبوّة. وبسبب روحهم العشائرية والعــداوات القبليّة التي بينهم، فإن مُحَمّداً نأى عن أحزابهم وأختار، بإلهامٍ إلهــي ــ كمــا رُوي ــ بقعــةً منعزلةً محايدة لمسكنه.[١٠٨] وسرعان ما بنى مسجداً في المكان نفسه، فصار مركــزَ الإِسْــلام وانبثقت منه أوامر سياسية وعسكرية عديدة.

تشكّل مجتمع المسلمين من فريقيْن: القادمون من مَكّــة، وقــد دُعــوا بالمهــاجرين؛ والمهتدون من سكان المدينة، وقد أُطلقت عليهم تسمية الأنصار.

ويُروى أنّه تمّت الإشارة إلى المهاجرين في سُوْرَةِ النَّحلِ (١٦)[١٠٩]:

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ، لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَــنَةً، وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١).

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ، ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ، إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١١٠).

لم يكن مناخ المدينة مناسباً للمهاجرين الذين هفت قلوبهم شوقاً لهواء مدينتهم، وكــان من الضروري استمالتهم كي يستقرّوا عن طريق توطيد وحدتهم مع الأنصار. وقــام احتفــال

---

[١٠٧] بعد سنوات لاحقة، فإنَّ الإمامَ مالكاً وآخرين نافحوا عن أن المدينة أعلى من مَكّة. انظر ابن خلدون، المجلد ٢، ص ٢٧٠.

[١٠٨] وأتته الأنصار حيَّاً حيَّاً يسأله كلُّ فريقٍ منهم النزول عليه، ويتعلقون بزمام راحلته وهي تجذبه. فقال « خَلُّوا عنها فإنّها مأمورة ». المسعودي، **مروج الذهب**، المجلد ٤، ص ١٣٩.

[١٠٩] على أي حال، إنَّ هذه سُوْرَة مَكّيّة متأخرة، وعلى هذا إذا كانت الإشارة صحيحة فإن هذه الآيات يجب أن تكون قد أُدرجت فيها بعد الهجرة؛ وأما الذين يرفضون هذا الرأي، فيقولون إنَّ الإشارة إلى اللاجئين الذين هاجروا إلى الحبشة. ويقول المفسر حسين بأنَّ الإشارة في الآية الحادية والأربعين هي للهجرة إلى الحبشة، لكن (الدُّنْيَا حَسَنَةً)، هي المدينة وإنَّ الهجرة يشار إليها في الآية (١١٠): -

لِلَّذِينَ هَاجَرُوا: مر آنانرا كهٔ هجرت كردند بسوى مدينهٔ

من الجلي أنَّ آيات أخرى في هذه السُّوْرَة مَدَنيّة، مثل: ١١٤ - ١١٦، ١١٨.

وقد أُشير أيضاً إلى المهاجرين في الآية الثانية والسبعين في سُوْرَةِ الأَنْفَال (٨) كونهم يملكون حق القرابة، لكن في هذا الوقت فإنَّ مثل هذه الرابطة لم يعد بحاجة إليها بعد الآن، وفي الآية الخامسة والسبعين فإنَّ هذه الحق قد أُلغي، حيث إنَّ الأنصار، على العكس من المهاجرين، وقد كانوا يحوزون علاقة دم حقيقة قد فضلوا. ويقول المفسر حسين بصدد هذه الآية: -

اين آيه ناسخ توارث آن جماعت است بسبب هجرت ونصرت ميراث ميگيرند

« إنَّ هذه الآية قد نسخت إرث الذين قد حصلوا على ميراث بسبب الهجرة والفتح ». المجلد ١، ص ٢٤٦.

إخاء بين المهاجرين والأنصار، فدخل حوالي خمسين رجلاً تقريباً من كل جانب في رابطة أخوة كانت وثيقة لدرجة إنه في حال موت أحدهم فإن المتآخي معه يصبح وريثه. إستمر هذا العرف حوالي العام ونصف العام، حين إنعدمت الحاجة إليه وأُعيد العملُ بقانون الميراث العادي.

كانت الخطوةُ التَّاليةُ صياغةَ دستور وعهد هجوم ودفاع بين جميع المسلمين (وقد شارك فيه اليهود لمرامٍ حربية).[١١٠] كانت الفحوى العامة أنَّه يتوجب على المسلمين مساعدة بعضهم البعض، الثأر من قاتل المؤمن حتى لو كان مؤمناً، تحمل الفرد كلَّ نفقاته في حال دخولهم الحرب، الحفاظ على المدينة مقدسةً وغير منتَهكة الحرمة، منح امتيازات للذين إنْضَووا تحت حمايتهم، وأنْ يسلّموا، في جميع قضايا الخلاف، أمرهم لقرار النَّبِيّ. وقد سُمح لليهود بالإحتفاظ بديانتهم الخاصة، لكن لم تُسمح لهم بالمشاركة في الحروب دون إذنٍ شخصيٍّ من مُحَمّدٍ. هكذا، وفي هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المسلمين، أصبح مُحَمّدٌ حاكماً مطلقاً في جميع القضايا: الدّينيّة، المَدَنيّة والعسكريّة، وقد وظُف اليهود كقوات مساعدة في الحرب؛ غير أنَّه عَمِل كل ما بوسعه، في تلك الفترة، بهدف استرضائهم. ويعطي مارغوليوث أمثلة عديدة، من مصادر إسْلاميّة، لتبيان ذلك[١١١] فيقول إنّه، عندما توفي زعيم بني نجار،[١١٢] جاء اليهود مُحَمّداً طالبين منه تعيين خليفة له، فقال لهم: « أنتم أخوالي وأنا منكم وأنا نقيبكم ».[١١٣]

في تلك الفترة، يوم كان مُحَمّدٌ ما زال يتحسس خطاه في المدينة، تنزلت الآية المشهورة ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾.[١١٤] وليس واضحاً ما إذا كانت هذه الآية تشير إلى الموقف

---

[١١٠] يقال إنَّ الآية ٧٨ من سُوْرَةِ البَقَرَةِ (٢) تشير إلى ذلك.

[111] *Mohammed*, p. 226.

[١١٢] أبو إمامة أسعد بن زرارة ـ **المترجم**.

[١١٣] كما أورد ابن إسحاق حسب كويل في (*Mohammed and Mohammedanism*, p. 123.).

[١١٤] (**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**) (البَقَرة ٢٥٦/٢). على أيِّ حالٍ إنَّ هذه الآية متسامحة في الظاهر أكثر من الواقع. فهي تنطبق فقط على اليهود، والمسيحيين، والبارسيين، والصابئين، ولكن في حال قبلوا وضعية الذميين ودفعوا الجزية، أو ضريبة الرأس. فيما يخص القبائل الوثنيّة العربيّة، فإنَّ الآية نُسخت بآية القتال. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (١٩١/٢). فإنْ لم يصبحوا مسلمين فمن الواجب قتلهم، كما قال المفسر حسين (المجلد، ١، ص ٤٨) في المقطع التالي: -

اكراه بۀ بايد كرد هيجكس را از يهود ونصارى ومجوس وصابيان ببرآوردن اسلام بشرط قبول جزيۀ گفته اند حكم اين آيت بآيت قتال منسوخ است از تمام قبائل عرب جزدين اسلام قبول نبود اما با ديگران قتال بايد كرد تا مسلمان شوند

و في **خلاصة التفاسير** نقرأ: -

جهاد وقتال اسلیۓ نهين ہیں كة خواه صخواه لوگ مسلمان بنائں جائين بلكة اسلام نة لائين تو صطيع بنين

« ليس الجهاد والقتال من أجل جعل الناس مسلمين طوعاً أو كرهاً، لكن إن لم يعتنقوا الإِسْلام وجُب إخضاعهم ».

تجاه الوثنيين أو يهود المدينة، بيد أنّه من البيّن أنَّها قيلت في الجزء الأوّل من الإقامة في المدينة. ولم يكن بالوسع أنْ تقال بعد معركة بَدْر؛ حين نُحيّت روحها جانباً.

رسم المؤرخ ابن إسحاق الصورة العامة في المدينة على النحو التالي: عندما وجد مُحَمّدٌ ملاذاً آمنا في المدينة، وعندما التف حوله أصدقاؤه من المهاجرين، وعندما سُويت أمور الأنصار، عندها توطد الإسْلام بثبات. أُديت الصلوات العامة، بوشر بالصيام وتقديم الصدقات، أُنجز القانون الجزائي، حُدِدَّت الأمور الشرعية والغير شرعية، وزادت سطوة الإسْلام بين قبائل الأنصار[115] وأصبح، في الواقع، القوة الرئيس في المدينة، يُسيّر المسلمين في شتَّى شئونهم، ويمارس تأثيراً قوياً على أولئك الذين بقوا، حتى الآن، بعيداً عنه.

لم يكن كلّ الذين أعلنوا إسْلامهم صادقين ومخلصين بالتساوي. لقد نُسيت الأحقاد ظاهريّاً وليس واقعيّاً، إذ كان إيمان البعض إسمياً فقط وبقوا خاضعين لتأثيرات الصراعات القديمة. ولم تكن هناك معارضة فعليّة مكشوفة، غير أنَّ الشّك والريبة لم يبرحا قلوب رجال كثر. لقد وصفهم ابن إسحاق بأنَّهم « أهل نِفاق على دين آبائهم من الشِّرك والتكذيب بالبعث، إلاّ أنَّ الإسْلام قهرهم بظُهوره واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسْلام، واتخذوه جُنَّة من القَتْل ونافقُوا في السِّر، وكان هّواهم مع يَهُود، لتكذيبهم النَّبِيّ ».[116] إذاً استعملت القوة مبكراً واُتخذت تعاليم الإسْلام « **وقاءً من الموت** ». أطلق على هؤلاء الرجال وصف **المنافقين،** وكان لهم لبعض الوقت تأثير سلبي معادٍ؛ غير أنّه، وبعد سنوات، عندما تزايدت قوة مُحَمّدٍ، قام بشجبهم علنيّةً. وتحتوي سُوْرَةُ المنافقون (٦٣)، التي قيل أنها ألقيت حوالي السنة ٦ هـ، على حكم النَّبِيّ النهائي فيهم: ــ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ، قَالُوا « نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ». وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ.
اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ! إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١ ــ ٢).
﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ « لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ». وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ.

مرة ثانية: كافر اسير يا مرتد كا قتل كرنا عقوبةُ هے

« إنَّ سجن الكافر أو قتل المرتد (عن الإسْلام) هي العقوبة » **خلاصة التفاسير**، المجلد، ١، ص ٢٠٢.
إذاً، لا تعلّم هذه الآية التّسامح الدينيّ بأَيِّ شكلٍ، أو تُؤسس لحرية العقيدة؛ فكل ما يُستفاد هو أنَّ بإمكان طبقات معينة تفادي الموت بدفع الجزية والخضوع المذل لشروط الدين الرسمي في البلد.

[115] أورده كويل في (*Mohammed and Mohammedanism*, p. 124.).

[116] انظر (Koelle, *Mohammed and Mohammedanism*, p. 127.).

يَقُولُونَ: « لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَـا الأَذَلَّ ». وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ. وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧ ــ ٨).

شكَّل يهود المدينة جزءاً كبيراً ومهماً من المجتمع الذي عقد عليه مُحَمّدٌ، بادئ الأمر، آمالاً كبيرة، إذ لم تكن فكرة الوحي غريبة عنهم. كما ظلَّ مُحَمّدٌ يؤكد أنَّ للإِسْلام واليهوديّة والمسيحيّة مصدراً واحداً ــ أم الكتاب. ويبدو إنه كان يتوقع أنْ يقِرَّ اليهود بالأصل الإلهي للإِسْلام ويعترفوا بأنّه نَبِيّ مرسلٌ من الله، على الأقلّ بالنسبة للعرب. وكما رأينا فإنَّه قد اعترف لهم بامتيازات محددة واستخدمهم كحلفاء وسمح لهم بالحرية الدينيّة. يعتبر نِلدِكه[١١٧] أنَّ الآية السادسة والأربعين من سُوْرَةِ العَنْكَبُوتِ (٢٩) ــ سُوْرَة مَكّيّة متأخرة ــ هي آية مَدَنيّة وأنّها تنطبق على هذه الفترة. نقرأ: ــ

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْـلَ الْكِتَابِ، إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إلاَّ الَّـذِينَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ ﴾[١١٨]

مهما كان من حال، ليس ثمَّة شك بأنَّ مُحَمّداً سعى لكسب ولاء اليهود وجاهد بطـرق عديدة لجرِّهم إلى جانبه. كانوا يتوجهون صوب القدس في الصلاة، وكذلك فعل هو؛ وكـانوا

[117] Nöldeke, *Geschichtes des Qorans*, p. 116.

[١١٨] لقد سببت هذه الآية حيرة كبيرة للمفسرين المسلمين. يقول حسين إنَّها تشير فقط إلى الذين كانوا مرتبطين مع مُحَمّدٍ بمعاهدة أو كانوا خاضعين للإِسْلام، أي الذّميّين. ويكتب ما يلي: ـ

يا أهل الكتاب يعنى كسانيكة در عهد همند يا جزية قبول كردة اند

« أهل الكتاب، أيْ الذين لهم عهد معك، أو يدفعون الجزية ».

ويعتبر بعض المفسرين العرب هذه الفقرة برهاناً على الخشية من اليهود أكثر من نصح بحسن التعامل. نقرأ: ـ

كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإِسْلام، فقال رسول الله صلعم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أُنزل.

وتفيد رواية أخرى أن يهودياً مر للتو بجوار جنازة، فقال لمُحَمّد: ـ

هل تتكلم هذه الجنازة، فقال رسول الله صلعم إنْ حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم ولكن قولوا آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله؛ فإن كان باطلاً لم تصدقوهم، وإنْ كان حقاً لم تكذبوهم. أي حافظوا على موقف حيادي. (Geiger, *Judaism and Islam,* pp. 15, 16.).

ويقرّ البيضاوي (المجلد الثاني، ص ٩٨) بأنَّ الآية نُسخت بالآية الخامسة من سُوْرَةِ التَّوْبَةِ (٩)، وهي آخر سور القُرْآن، بإعلان القطيعة التامة مع اليهود. والآية: ـ

(فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ)

وقد سُميت هذه الآية « **آية السيف** »، من الصعب النظر ـ بما أنها تشير إلى الوثنيين، أو المسيحيين الذين كانوا يعتبرون مشركين ـ كيف أنّه يمكنها أنْ تنسخ آية ترتبط مباشرة باليهود.

ويقال إنَّ **آية السيف** هذه قد نسخت الآية التي انزلت على مُحَمّدٍ عندما كان حال النَّبِيّ في غير مأمن. عندما قال للرجال الذين تطلعوا إلى تسوية (لَكُمْ دِينُكُمْ، وَلِيَ دِينِي) ـ سُوْرَةُ الكَافِرُونَ (٦/١٠٩). عندما صار الإِسْلام قويّاً لم يعد يُسمح بهذه الوضعية، وبالتالي فهذا سبب لنسخ مثل هذا الرأي المتسامح.

يحتفلون بعيد الكفّارة في اليوم العاشر من الشهر بالأضاحي والصّيام، فأمر أتباعه بفعل الشيء عينه. كلُّ هذا سهّلَ على بعض اليهود التحول للإِسْلام وقد أثبت هؤلاء أنَّهم ذوو فائدة كبيرة إذْ كان بوسعهم تزويده بالمعلومات الضّروريّة عن الكتب والمخطوطات القديمة، وجعلوه يؤمن بأنَّ فيها نصوصاً تنبئ بقدومه.

يشار دائماً إلى هؤلاء الرجال على أنّهم « شاهد ». لكنَّ القسمَ الأعظم من اليهود لم يقبلوا به ولم يعترفوا بدعواه. فالنَّبِيّ الذي كانوا يتطلعون إليه لم يكن ليأتي إلا من آل داود؛ وبموقفهم هذا شكّلوا نفياً ثابتاً لما أعلنه مُحَمّدٌ بأنَّ كتبهم المقدسة تشهد له. مع النموِّ المضطرد للإِسْلام، كان واضحاً أنَّ على كلِّ الديانات الأخرى أنْ تتراجع، فترك عرب وثنيون كثرٌ وبعض من اليهود المدينة. يقول ابن إسحاق « ونصبت عند ذلك أحبارُ يهودَ لرسول الله العداوةَ، بَغياً وحَسَداً وضغْنا، لما خصّ الله العربَ من أخذه رسولَه منهم ». قبِلَ بعضُ اليهود مُحَمّداً والدين الجديد جرّاء الخوف، وقد وصفهم المؤرخون العرب بأنهم « تطلعوا للحماية في الإِسْلام وقد قبلوه ظاهرياً فحسب، بينا كانوا منافقين في قلوبهم ». على هذا، كان المنافقون من المهتدين الوثنيين واليهود على حدٍ سواء. كان عداءُ اليهودِ خطيراً بالنسبة لمُحَمّدٍ، تماماً كعداء الوثنيين، إذْ أنهم سببوا له الأذيَّة ليس في الحرب والسياسية فحسب، بل بالنقد الحاد والأقوال الموجهة إلى الإسْلام. وإذ رأى أنَّ كسب اليهود ككلّ أمر ميئوس منه، غيَّر مُحَمّد موقفه نحوهم، واتهمهم بالكفر والكذب والعبث بكتبهم المقدسة.

سُوْرَةَ الأَنْعَامِ (٦) من أواخر السّور المَكيّة، لكنَّ الآية الحادية والتّسعين منها أُضيفت بشكلٍ جلي في المدينة: ــ

﴿ قُلْ، مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِّلنَّاسِ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ، تُبْدُونَهَا، وَتُخْفُونَ كَثِيراً: وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ؟ قُلِ، اللهُ؛ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٩١).

تُظهِر هذه الكلمات أن مُحَمّداً لم يتهمهم بتحريف النّص، لأنَّهم « يجعلونَه قَراطِيسَ »، بل بحذف أو إخفاء أجزاء منه للتملص من دعاويه.[١١٩] تشتمل سُوْرَةَ البَقَرَةِ (٢)، وهي من

---

[١١٩] يقول رودويل « نادراً ما يتهم مُحَمّدٌ اليهود والمسيحيين بالتحريف، لكن غالباً بإساءة فهم كتبهم المقدسة من أجل التخلص من دعاويه. إنَّ اتهاماته مصوغة بشكلٍ غامضٍ. إنَّ أقواله معادلة لدليل قوي لا يرقى إليه الشك في صالح سلامة الكتب المقدسة لكلٍ من اليهود والمسيحيين بقدر ما كان يعرفها ». رودويل (*Qur'an,* p 434.).

فيما يخص شهادة القُرْآن للكتب المقدسة انظر (*The Testimony of the Qur'an to the Jewish and Christian Scriptures* (Agra, 1856) وفي ترجمتها الفارسية (**شهادت القُرْآن بار كُتب الرباني**).

أوائل السّور المَدَنيّة، تنزلت في بداية السّنة الثّانية للهجرة،[120] على آيات كثيرة ضد اليهـود. إنَّها سورة طويلة للغاية إذا ما أردنا دراستها بالتفصيل، بيد أنَّ اقتباسات قليلة منها ومن سور أخرى ستجعل الأمور جلية: ــ

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ! اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَوْفُواْ بِعَهْـدِي؛ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ؛ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ.
وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُـمْ وَلاَ تَكُونُـواْ أَوَّلَ كَـافِرٍ بِـهِ (أي القُرْآن)، وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ!
وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٠ ــ ٤٢).

كما تتضمن السُّورُة التّالية مقطعاً طويلاً يسرد نعمة الله على اليهود بقيادة موسى وفي العراء، وقد تسببت إحدى آياتها بجدلٍ كبيرٍ: ــ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ (المسلمين) وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ــ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ: وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٦٢/١).[121]

تُظهِر هذه الآية، على ما يبدو، أنَّ كلَّ هذه الأديان أصيلة بالقدر نفسه، إلاَّ أنّها ليست الفكرة المتلقـاة، إذْ يقول بعض المفسرين[122] أنَّ الآية ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَعَمِـلَ صَالِحاً ﴾ تعني بأنَّ على غير المسلمين أنْ يتخلّوا عن آثامهم ويصـبحوا مسـلمين؛ ويـرى آخرون أنَّ هذا المقطع قد أُلغيَ بالآية: ــ

[120] مهما يكن من أمر، فإنَّ أجزاءً عدة من هذه السُّوْرَة مَكْيّة، وبالأخص الآيات من الحادية والعشرين إلى التاسعة والثلاثين. وهذا جلي من الموضوع المطروح، وكذلك من استعمال عبارة (**يا أيها النّاس**)، التي جاءت في الآية الحادية والعشرين. وهذه عبارة لا تُستعمل لدى مخاطبة أهل المدينة، الذين يقال لهم: (**يا أيها الذين آمنوا**).

[121] إنَّ رأي المفسرين العام هو أن الصَّابِئِينَ كانوا جماعةً ديانتها مزيج من اليهوديّة والمسيحيّة؛ وأنّهم عبدوا إلهاً واحداً، رغم أنّ البعض ينكر ذلك، وقرءوا المزامير، وصلّوا صوب مَكّة وعبدوا الملائكة. ويقال إنَّ المعنى العام للمقطع هو: ـ

كوئى جو مسلمان يا كتابى يا غير كتابى جب ايمان لائى اور اجهى كام كرى اس سى خوف نهين

« كلُّ مَنْ كان مسلماً أو كتابياً (أي يهوديّاً أو مسيحيّاً)، أو غيرَ كتابيٍّ، يؤمن ويقوم بالأعمال الصالحة فلا سبب له للخوف ». **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٤٠. ويقول ردويل بأنَّ الصابئين هم المندائين، أو المعرفين باسم مسيحيي القديس يوحنا. انظر رودويل (*Qur'an*, p. 437.). من أجل وصف كامل للصابئين، انظر (S. Lane-Poole, *Studies in a Mosque*, pp. 252-88.).

[122] **دخل في الإِسْلام دخولاً صادقاً** ــ البيضاوي، المجلد ١، ص ٦٤. انظر كذلك (Wherry, *Commentary on the Qur'an*, vol. i, p. 312.).

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[١٢٣] سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٨٥/٣).

ويشار إلى نفاق بعض اليهود الذين أصبحوا مسلمين بالآيات التالية: ـــ

﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ، « آمَنَّا »، وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ، « أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ، لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ؟ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ».[١٢٤]

أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ، وَمَا يُعْلِنُونَ.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ،[١٢٥] إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ[١٢٦] ثُمَّ يَقُولُونَ: « هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ »، لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً. فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ.

وَقَالُواْ: « لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ». قُلْ، أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً؟ فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ. أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟

بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ـــ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٧٦/٢ ـــ ٨١).

لقد سبب اليهود الهوان بسبلٍ أخرى. يروي البيضاوي أنَّ أبا بكر طلب من يهوديٍّ قرضاً،[١٢٧] قائلا: « مَنْ يقرض الله قرضاً حسناً؟ »، قال اليهودي:[١٢٨] « إنّ الله فقيرٌ حتّى سأل القرضَ » فلطمه أبو بكر على وجهه، وقد اشتكى اليهودي تواً للنبِيّ، بيد أنَّه لم يُستنصف. بعد ذلك جاءَت الآية: ـــ

---

[١٢٣] لقد قيل بأنَّ هذه الآية نسخت كلَّ الأديان السابقة وكلَّ ما يمكن أن ينشأ في المستقبل: ـ
اس نے ان تمام دبنوں کو منسوخ کردیا جو گذرگئے یا بیدا کئے جائیں (**خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٢٧١).
« أنّه ينفي قبول كلِّ دين يغايره ». **البيضاوي**، المجلد، ١، ص ١٦٤.

[١٢٤] يُصور فريقاً من اليهود يلوم آخر لحذفهم مقاطع معروفة من الكتاب المقدس، التي يمكن لمُحَمّد أنْ يوظفها ضدهم. ويقول البيضاوي وجلال الدين بأنَّ هذه الكلمات (بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ) تعني « بما بين لكم في التوراة من نعت مُحَمّدٍ ». وتظهر الآية التالية بأنَّ الاتهام ضد اليهود هو أنهم **أخفوا** مقاطع يُفترض أنّها تشير إلى مُحَمّدٍ، وليس **تحريف** النّص، حيث لا يمكن إيجاد مقاطع تشير إلى مُحَمّدٍ على كلِّ حال.

[١٢٥] **الأسفار الخمسة**.

[١٢٦] إنَّ فئةً أخرى من اليهود التي ناوأت مُحَمّداً وحررت شواهد من تراثهم أو من الكتب الحاخاميّة قد سعت إلى أنْ تجريها كتباً مقدسة أصليّة. ولم يُتَهموا بتغيير النّص.

[١٢٧] بطلب من مُحَمّد إلى يهود بني قَيْنُقَاع، حسب رواية البيضاوي ـ **المترجم**.

[١٢٨] فنحاص بن عازوراء ـ **المترجم**.

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ، « إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ». سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ: « ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيــقِ » ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (١٨١/٣).

وقد أشير إلى طلب اليهود آية نبويّة في الآية التالية: ـــ

﴿ الَّذِينَ قَالُواْ، « إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَــانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ » ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (١٨٣/٣).

قال اليهود بأنّ النّار التي نزلت من السَّماء على مذبح الهيكل (**اللاويين**، ٢٤/٩) وبعد ذلك على مذبح هيكل سليمان (أخبار الأيام الثاني: ١/٧)، بقيت مشتعلة حتى قــام الكلــدانيون بتدمير هذا الهيكل. ويبدو أنَّهم كانوا يتوقعون بأنَّ نَبيّاً حقيقيَّاً سوف يوقد النَّار مجدداً.

أجاب مُحَمّدٌ فوراً على طلبهم في الآية التالية: ـــ

﴿ قُــلْ، قَدْ جَــاءَكُمْ رُسُــلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَــاتِ وَبِالَّــذِي قُلْــتُمْ، فَلِــمَ قَتَلْتُمُوهُمْ؟ ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (١٨٣/٣).

ويقول الشارحون بأنَّ الإشارة هنا هي إلى زكريا ويحيى (يوحنا المعمدان)[١٢٩] ويجادل بأنَّهم إذا كانوا قد قتلوا الأَنبيَاء الذين كانت لديهم المعجزات، فلماذا يتوجب عليه هو أن يشـــبع أمنياتهم وينزل ناراً من السَّماء.

ويخاطب الذين ينكرون أنّ أيَّ جزءٍ من الكتب يشير إلى مُحَمّدٍ، يقول: ـــ

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟[١٣٠] فَمَا جَزَاء مَــن يَفْعَــلُ ذَلِكَ مِنكُمْ، إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُــرَدُّونَ إِلَــى أَشَــدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٨٥/٢).

إذ إنهم لن يعترفوا بالقُرْآن كتاباً موثوقاً، وقد استدعت حالة العناد هذه من النَّبِيّ لعنــة مرّة: ـــ

---

[١٢٩] البيضاوي وعبد الله بن العباس وحسين.

[١٣٠] كانت ثمة نزاعات بين القبيلتيْن اليهوديتيْن الرئيسيتيْن، فكلٌ واحدةٍ كانت تدّعي المرجعيّة التوراتيّة لتصرفاتها. لقد وبخهم مُحَمّدٌ وأمرهم باتباع كامل كتبهم المقدسة. وهذا مثال لافت للنظر على شهادة قُرْآنيّة تعترف بموثوقيّة العهد القديم، كاملاً وتاماً، كما كان موجوداً حينئذٍ.

﴿ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/٨٩).

ويمضي قائلاً: ــ

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ، أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ، بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ، فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾[١٣١] سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/٩٠).

وقد وُعِدَ مُحَمّدٌ بحماية الله ضد كلّ هؤلاء الذين نأوا عنه: ــ

﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ، فَقَدِ اهْتَدَواْ؛ وإِنْ تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/١٣٧).

ووُجّه الاتهام بإخفاء الدليل عن مُحَمَّدٍ من الكتب المقدسة في: ــ

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً[١٣٢] عِندَهُ مِنَ اللهِ؟ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/١٤٠).

ويُعاد في سُوْرَةِ البيّنةِ (٩٨) ــ التّالية في الترتيب ــ نفس الاتهام مرة أخرى: ــ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ؛
رَسُولٌ مِّنَ اللهِ، يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً
فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ.
وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١ ــ ٤).[١٣٣]

---

[١٣١] (**بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ**) يقول المفسر مجاهد بأنَّ الغضب الأوّل على الذين يرفضون الأسفار الخمسة، والثاني على الذين يرفضون مُحَمّداً. **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٥١.
يقول المفسر حسين بأنَّ الغضب الأوّل على الذين يرفضون المسيح والأناجيل، والثاني على الذين يرفضون مُحَمّداً والقُرْآن المجلد، ١، ص ١٦.
خشمى به انكار عيسى وانجيل وخشمى به انكار محمد وقران
ويشرحها البيضاوي بأنَّ العقوبة لكفرهم بمُحَمّد بعد المسيح، أو بعد قولهم « عزيز (عزرا) ابن الله ». المجلد ١، ص ٧٢.
[١٣٢] يقول البيضاوي: « يعنى شهادة الله لإبراهيم بالحنيفيّة والبراءَة عن اليهوديّة والنصرانيّة ».
ويقول آخرون بأنّها تشير إلى إخفاء الشّهادة حول مُحَمّدٍ. إنَّ الاتهام هو **إخفاء** الشواهد وليس **تبديل** النَّص.

وتتابع الآيات التَّالية الاتهام: ــ

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم[١٣٤] بِالْكِتَابِ، لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ؛ وَيَقُولُونَ، « هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ »، وَمَا هُوَ مِنْ عِنـــدِ اللهِ؛ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/٧٨).

وفي السورة الأخيرة نجد: ــ

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظـّـاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ سُــوْرَةُ المَائِدَةِ (٥/١٣).

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخفُونَ[١٣٥] مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ. قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ، وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ؛ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ سُــوْرَةُ المَائِــدَةِ (٥/١٥ ــ ١٦).

إنَّ الاتهام في هذه الآيات ليس بتحريف نصوص الكتــب المقدســة، ولكــن بإخفــاء حقيقتها، وقد عنى مُحَمّد ما جاء فيها من إشارات إليه، والتي أكّد وجودها في تلك الكتب.

لم يرد أنَّ الكتب المقدّسة قد تعرّضت للتحريف لدرجة أصبحت معها غير أصيلة، كما أنّ الأدلّة تشير إلى عكس ذلك تماماً: ــ

---

[١٣٣] يبش از بعثت انحضرت همه مجتمع بودند بر تصديق وى وبعد ازانكهٔ مبعوث شد مختلف شـدند بعضـى گرويدند بوى وبرخى كافر شدند

« كانوا يتطلعون قبل زمن مُحَمّد إلى مجيء نَبِيّ يتبعونه، لكنْ عندما جاء ترددوا وتفرقوا في الرأي؛ لقد تبعه البعض، وآخر لم يفعل ذلك ». **تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٤٧٠.

[١٣٤] يقول البيضاوي: « يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف ».
مرة ثانية ليس ثمّة اتهام في تبديل النّص.

[١٣٥] إنّ الاتهامَ هنا بأنَّ اليهود أخفوا نصوصاً في الأسفار الخمسة تتعلق بالإشادة بمُحَمّدٍ وبآية الرجم، وبأنّ المسيحيين يخفون نبوءَة المسيح الواردة في الإنجيل بشأن مُحَمَّدٍ. وتُشرح عبارة (**كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ**) على أنَّها تعني بما تمّ النّص عليه بصدد اليهود والمسيحيين.

از آنجهت هستيد كهٔ آن راينهان ميداريد من الكتب از تورات چون نعت محمد مصطفى وآيت رجم واز انجيل جون بشارت عيسى بهٔ احمد (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ١٤٠. البيضاوي، المجلد ١، ص ٢٥١).

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ ﴾ سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥/٤٤).

لقد قيل إنَّ هذا التصريح خصَّ اليهود والمسيحيين فقط، أما بالنسبة للمسلمين، فإنّ كلَّ الديانات الأخرى قد أُنكِرت عليهم حسب الآية: ـــ

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْـــهُ ﴾ سُــوْرَةُ آلِ عِمْــرانَ (٣/٨٥).

وهكذا يعفي المسلمون المحافظون أنفسهم من الإهتمام بالكتب المقدسة السابقة رغم أنَّ القُرْآن أمر بها بوضوح شديد. وقد تناولت آياتٍ أخرى من سُوْرَةِ المَائِدَةِ هذا الموضوع وجاء فيها: ـــ

﴿ ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ، وَاتَّقَوْاْ، لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَـــاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ.
ولَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ،[١٣٦] لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ (٦٥ ـــ ٦٦).

﴿ قُلْ، يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ[١٣٧] وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (٦٨).

---

[١٣٦] إنَّ التفسير العام لذلك أنَّ هذه الآية تشير إلى القُرْآن: وفي حال كانت الإحالة إلى الكتب السّماويّة الأخرى فإنّه يقال بالتالي إنّها إذ تشهد على قدوم مُحَمّدٍ، فإنّ على القارئ أنْ يصبح بالتالي مسلماً. ولا تتمسك بأنَّ اليهود والمسيحيين الذين يقبلون العهد القديم والجديد فقط سوف يكونون بمأمن. **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٥٤٩.

على أيّ حال، إنَّ النقطة التي يجب ملاحظتها هي أنَّ العهديْن القديم والجديد يعاملان هنا على أنّهما يتساويان مع القُرْآن رتبةً، ومن المنطقي أنْ يقبلها المسلم كلّها. بيد أنّه من النّاحية الواقعيّة لا يقوم بذلك. وتحوز هذه الآية على أهمية كبيرة، كونها في آخر السور وهي لا تتعرض لخطر النسخ، وتقف بوصفها اتهاماً دائماً ضد المسلمين الذين يرفضون قبول تعاليم الكتاب المقدس.

[١٣٧] (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) [سورة المائدة: ٥/٤٨، م.]

يترجم حسين **مُهَيْمِناً** بـ « نگاهبان »، وبهذا: ـ

مُهَيمِنًا عليةِ: نگاهبان است بر كتب كۀ محافظت آن ميكند از تغير

« حارس على الكتب التي يحفظها من التغيير ». **تفسير الحسيني**، المجلد، ١، ص ١٤٨.
ويقول البيضاوي: « رقيباً على سائر الكتب ».
ومفسر آخر يقول: ـ

إس آيت مين قران كى فضيلت تمام كتب آسمانى بر ثابت هى اس لئى كة اسے محافظ ـ أمين ـ شاهد ـ أمانت دار تمام كتابون كا قرار ديا بس قران جامع وشامل هى اور هدايت مين كامل

لم يكن تثبيت فكرة إطاعة العهديْن القديم والجديد، كما القُرْآن أيضاً، وارداً لو أنَّ نصّ الكتب السّابقة تعرّض للعبث. في الواقع، وحسب شهادة مُحَمّدٍ نفسه وقد وردت في القُــرْآن، ليس ثمّة كتاب مصان كما الكتب المقدَّسة السابقة: ـــ

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنـــاً عَلَيْهِ ﴾ سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥/٤٨).

يتضح من ذلك أنَّ الكتب المقدّسة لم تُحرف قبل زمن مُحَمّدٍ حيث أنّ القُرْآن يؤكدها؛ ومن وجهة نظر إسْلاميّة، لا يمكن لها أن تكون قد حُرِّفت من بعد نظراً لأنَّ القُرْآن حاميهـــا وحافظها الأمين، « حافظهم الأمين ». لذلك، فإنَّ المسلمين الذين يطلقون بياناتٍ طائشة بصدد هذا الموضوع يظهرون جهلاً كبيراً بالقُرْآن نفسه، ويعاملونه بقليل من الإحترام، ناسبين إليـــه قصوراً في واجب الحماية الهام هذا والذي يدّعي أنّه ينجزه.

فإذا ما كانت الكتب المقدّسة قد حُرِّفت، فإنّ **القُرْآن قد فشل في مسعاه ولم يكن حامياً لها.** الحقيقة هي إنَّه لم يكن لدى مُحَمّدٍ من شكٍ فعليٍّ بأصالة ومصداقيّة الكتب المقدّسة. بيد أنّه الآن، وقد انتفت حاجته لليهود، أصبح من الضروري تكذيبهم وإظهـــار أنّهـــم لا يســـتحقون الثّقة.[١٣٨] إنّه لأمر منوِّر ملاحظة أنّ هذه الشواهد حول تحريف معنى التوراة والاتهام بإخفاء نبوآته قد **ظهرت في المدينة.**

بتعرُّض اليهود للذم، وتنحيتهم جانباً حيث بـــاتوا علـــى الأرجـــح غيـــر مفيـــدين أو ضروريين، لم يعد هناك من داعٍ لمشابهة الطقوس والممارسات الإسْلاميّة بتلـــك اليهوديّـــة؛ وعلى هذا فإنّ القبلة قد تغيرت الآن مجدداً[١٣٩] من القدس إلى مَكّة؛ وكالعادة، جاء وحي أجاز هذا التغيير.

« في هذه الآية مثبت رفعة القُرْآن على سائر الكتب السّماويّة، فوظيفته أنْ يكون حارساً، وشاهداً وحافظاً أميناً، بيد أنَّ القُرْآن خلاصةٌ وافيةٌ وشاملةٌ لكلِّ ما في الهدى الكامل ». **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٥٢٩.

يقول مفسر قادياني بأنَّ الحراسة على ما هو ذي قيمة دائمة والمحفوظة في القُرْآن وليس على شيء آخر. والمسائل الأخرى قد حُرفت. وهذا يعاكس النظرة المقبولة لدى المفسرين المسلمين، الذين، لا يولون قادة الطّائفة القاديانيّة المعاصرة أيَّ اهتمامٍ على أيِّ حالٍ.

[١٣٨] وهذا يظهر من الحديث الذي دونه البخاري: **« لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ».** وتمضي القصة لتروي بأنّ عُمَرَ [بنَ الخطّابِ، **م.**] جاء بكتاب من اليهود أو المسيحيين وقرأه على النَّبِيّ، الذي غضب وطلب منه عدم قراءته (فتح الباري، الجزء ٣٠، ص ٢٩).

[١٣٩] لم يذكر التغيير الأوّل من مَكّة إلى القدس في القُرْآن، لكن يفترض بأن كلمات الشكوى في (سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ، « مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ») [سُوْرَةُ البَقَرَةِ: ٢/١٤٢] تشير إلى ذلك.

والتي يقول عنها جلال الدين السّيوطي: « لما هاجر أمر باستقبال بيت المقدس تألّفاً لليهود ستة أو سبعة أشهر ».

سبق هذا الوحي، بشكل مباشر، شاهدٌ طويل في السُّوْرَةِ الثانيّةِ يظهر أنّ الكعبة وديانة إبراهيم ــ الذي يُصرح بأنَّ الإسْلامَ بعثٌ لها ــ أفضل من قبلة اليهود واليهوديّة. وقد أُلمِـحَ للمسيحيين أيضاً في عبارة « عِماد الله »،[١٤٠] حيث أنَّ قبولَ الإسْلام هو الانبعاث الرّوحـي الحقيقي للإنسان. من ثَمّ أعلن صراحةً تغيير القبلة في الآيات:[١٤١] ــ

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا، إلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُـولَ مِمَّـن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ. وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً، إلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ. وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ، رَّحِيمٌ.
قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ؛ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا. فَوَلِّ وَجْهَـكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ، فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ سُـوْرَةُ البَقَرَةِ (١٤٣/٢ ــ ١٤٤).

يروي أهل الحديث قصصاً عديدة مرتبطة بهذا الحدث في سيرة النَّبِيّ وتقول إحـداها إنَّ مُحَمَّداً لمَّا وجد أنَّ اليهود متصلبين في موقفهم، سأل جبْريل أنْ ينقل أمنيته إلى الله بتغيير القبلة، فأجابه جِبْرِيل بأنَّ عليه أن يسأل الله بنفسه لأن الله يقدِّره. وصار النَّبِيّ بعـدها يرنـوا ببصره صوب السماء، منتظراً خَبَرَ تغيير القبلة.

« لقد أمر أتباعه بعد الهجرة بالتوجه صوب بيت المقدس (בֵּית הַמִּקְדָּשׁ [حرفياً: البيت المقدس، انظر الأخبار: ٢٨: ١٠])؛ وهذا ما جرى على أيِّ حالٍ لاستمالة اليهود، وقد استمر الأمر على ما يرام لمدة ستة أو سبعة أشهر فحسب، وفيما بعد غيرها ». انظر غايغر (*Judaism and Islam*, p. 14.).

[١٤٠] الأصل في سُوْرَةِ البَقَرَةِ (١٣٨/٢) (**صِبْغَةَ الله**). يضيف سِل « تلقينا » ويضيف رودويل « إسْلام »، ويقرأ « إن الإسْلام عماد الله ». ويقول بالمِر « صِبْغَةَ الله »، إنَّ هذه العبارة مجاز مشتق من صبغ الملابس ولا يجب أن تخلط مع العماد. إنّ المفسرين يختلفون في شرحها. ويقول بعضهم إنها تعني ببساطة « **دين الله** »؛ وآخرون يرون أنّها تعنى « الختان » لتبيان أنَّ المسيحيين قد استبدلوا هذا الطقس بالعماد، وفوق ذلك فإنّ لدى المسلمين مراسيم تطهر المتلقي. ويشرح هؤلاء الذين يتبنون هذه النّظرة بأنَّ « **صِبْغَةَ الله** » بوصفها: ـ

ختان است وآن تطهير مسلمان باشد

« ختان يطهر المسلمين ». **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٢٣.

تعني الكلمة كذلك اللون، ولهذا فإنَّ البعض يقول إنَّ الرَّجلَ المقبولُ في الكنيسة المسيحيّة يصبغ جسده وثيابه باللّون الأصفر. ويقول آخرون إنَّ أطفاله يعمّدون بماءٍ صفراء. ولهذا فهم يمضون بالقول بأنه عندما يصبح الرجل مسلماً، فإنّه يتطهر من تلوث الوثنية ويتلقى ـ تحت مجاز صبغة ـ نوعاً من العماد الرّوحي. بهذه الطرق العديدة، على أي حال، يسعى المفسرون إلى تبيان أنَّ المسيحيين لا يملكون شعائر أسمى من شعائر الإسْلام، سواءً فيما يخص القبلة أو العماد. **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٨٠، يوافق البيضاوي بالعموم مع ما ورد أعلاه.

ويقول جلال الدين الرومي (**المثنوي**، الكتاب الثاني): « إنَّ عماد الله بواسطة الصبغة ذات الطّبيعة الإلهيّة: إنّ كلَّ الشّعائر والمراسيم تصبح واحدة فيها ». إنَّ هذا تصوّر صوفيٌّ سري للوجود الغارق، والذائب في الوحدة: إنَّ كلَّ الأشياءِ وكلَّ الموجودات في وحدة اللّون هذه كأنَّها واحد.

[١٤١] يقدم نِلدِكه مراجع عديدة للبيان أنّه حتى في مَكّة فإنّ مُحَمّداً توجه صوب القدس في الصّلاة، لكن يعتبر أنَّ هذه الآيات تظهر أنّ المسلمين في المدينة لم يكونوا يفضلون هذا العرف وبالتّالي كان على أغلب الاحتمالات آخر التجديدات. (*Geschichtes des Qorans*, p. 129.).

وكذلك فإن صيام رمضان[١٤٢] حلَّ محل صيامٍ كان، حتى يومها، مُتزامناً مـــع صـــيام اليهود.[١٤٣]

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ، الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (١٨٥/٢).

وثمة تحذير صارم لليهود في: ــ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ، وَيَلْعَـــنُهُمُ اللاَّعِنُـــونَ ﴾ سُـــوْرَةُ البَقَـــرَةِ (١٥٩/٢).[١٤٤]

رغِب بعض المهتدين من اليهود بالالتزام ببعض الأجزاء من التوراة اليهودي؛ جـــاء ذلك إما مرتبطاً بهذه الاتهامات أو لأسباب أكثر عموميَّة. يقول حسين إنَّ [عبد الله، **م.**] بـــن سلاّم وأصدقاءَه من المتحولين للإِسْلام كانوا راغبين بالحفاظ على قوانين الأســـفار الخمســـة فعُنِّفوا وحذروا بالتالي: ــ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ، ادْخُلُواْ فِي السِّـــلْمِ كَآفَّـــةً وَلاَ تَتَّبِعُـــواْ خُطُـــوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ؛[١٤٥]
فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ، فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.
سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ؛ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ،[١٤٦] مِـــن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ، فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢٠٨/٢ ــ ٢٠٩، ٢١١).

---

[١٤٢] إنَّ الصَّيام إجباريٌّ خلال شهرٍ كاملٍ، حيث يحظر تناول الطَّعام والشَّراب بدءاً من ظهور الشمس في الأفق. وهذا واجب ثقيل في حرّ الشرق، وبإمكان البعض أن يؤمنوا بيسر أنَّ في شهر الصيام هذا، ومع قرب نهاية اليوم، فإنَّ أغلبية المؤمنين تفكر بمتع الليل القادم أكثر بكثير من الله والآخرة (Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, p. 65.).

[١٤٣] صيام يوم الغفران اليهودي، « يوم كيبور » ـ **المترجم.**

[١٤٤] إنّ الكتاب المشار إليه هو الأسفار الخمسة. وستحلّ لعنة الله على الذين يخفون معناه. (واللاّعنون) هم الملائكة، وسوف يلعنهم الجن والبشر ـ **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٦. **تفسير عبد الله بن عباس**، ص ٢٩.

[١٤٥] يقول المفسرون بأنّ « (السِّلْمِ كَآفَّةً) تعني الإِسْلام؛ و(خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)، تعني حيل الشيطان، الذي يوسوس لليهود لإتباع الأحكام التي نسخت من قبل » ـ وسواس شيطانى باحكام منسوخة. **تفسير حسين**، المجلد ٢، ص ٣٥.

[١٤٦] يقول البعض إنَّ (**نِعْمَةَ الله**) تشير إلى مُحَمّدٍ، ويقول آخرون ـ وبدقة أكثر ـ بأنها تشير إلى القُرْآن. ويشير ويري، بصدد تفسير الرافي (*Tafsir-i-Raufi*) إلى الكتب اليهوديّة المقدسة. (*Commentary on the Qur'an*, vol. i, p. 315.).

كان هذا العداء بين مُحَمّدٍ واليهود طبيعيّاً تماماً؛ فهم لم يُظهروا عدم قــدرتهم علـــى الإقرار بدعاويه فحسب، بل كانوا معارضين لمبدإٍ أساسيٍّ مهمٍ للدعوة. لقد رغب مُحَمّدٌ، كمـــا سنرى لاحقاً، بالحفاظ على الأعراف العربيّة القديمة، حتى أنّه سمح لكثير من الطقوس الوثنيّة القديمة بالبقاء في الإِسْلامِ؛ أما اليهود فكانوا مؤيدين محـــافظين لطقـــوس تـــوراتهم المنزلـــة والأعراف المبنية على تفسيراتها. لقد آن أوان إتمام القطيعة مع اليهود، وقام مُحَمّد بتغييرات، حسبما أدعى كتابٌ من الجَزيْرة العَرَبيّة، بهدف محو أيَّ شبه بين الإِسْلام واليهوديّة.[١٤٧]

تزامناً مع هذا الرفض لليهود، سعى مُحَمّدٌ إلى الصلّح مع المَكّيين عبر المصادقة على الحَجّ إلى الكعبة: ـــ

﴿ وأَتِمُّواْ الحَجّ وَالْعُمْرَةَ للهِ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/١٩٦).

وتمّ الحصول على الموافقة الإِلهيّة للحفاظ على الشعائر الوثنيّة في الطواف حول تلي الصَّفَا وَالْمَرْوَة: ـــ

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/١٥٨).

غير أنَّ هناك احتمالاً أن تكون هذه الآيات قد أُقحمت في هذا الموقع، بينما هي رويت لاحقاً لدى القيام برحلة الحَجّ الأول.

تلقي هذه السُّوْرَة، سُوْرَةُ البَقَرَةِ، ضوءاً واضحاً على تغيّر سياسة مُحَمّدٍ في هذه الحقبة المبكرة من نشاطه في المدينة كما أنّها تَعكِس تاريخ تلك الحقبة. إنّها مثال ممتاز على الطريقة

---

[١٤٧] كراهة لموافقة النفي التشبيه باليهود.

استشهاد من الحاخام غايغر (*Judaism and Islam*, p. 157.). إنَّ الحبرَ العالم يتابع تبيان كيف أنَّ تغييرات كثيرة قام بها مُحَمّدٌ. ويشير من بينها إلى « **صلاة العشاء** » بوصفها نقيضاً للطقوس التلموديّة.

إنَّ القوانين حول المرأة تتطابق مع ما في الجَزِيْرة العَرَبِيّة أكثر من العرف اليهوديِّ. وإنَّ الإجازة في سُوْرَةِ البَقَرَةِ (١٨٧) تعارض توجهات التلمود.

إنَّ القانون الموضوع في سُوْرَةِ البَقَرَةِ (٢/٢٣٠) مثير للاشمئزاز بكل بساطة؛ لدرجة أنَّ سيد علي يعتبر أنه نُسخ في الآية التالية (*Life of Muhammad*, p. 248)؛ بيد أنّه ما زال قانوناً للإِسْلام. ويقول السيد عبد الرحمن: « إنَّ الهدف الواضح من إضافة هذا الشرط هو الإقلاع عن أمثال هذه الطلاقات » (*Muhammadan Jurisprudence*, p. 337.). وبوصفه مؤرخاً فإنَّه يأسف للأمر القُرْآني ويلقي بظلال من الشك على مرجعيته؛ ولكن بوصفه محاميّاً متدرباً وممارساً فإنّه يقرّ بوجوبه. ويُعطى القانون الموجود الفعلي حول هذه القضيّة في مؤلف البلالي الإماميّة، ص ١٢٠، والحنيفيّة، ص ٢٩٢. وبكلِ الأحوال، فإنّ هذا القانون يتعارض بشكلٍ قاطعٍ مع القانون اليهوديّ بهذه المسألة كما هو مبين في سِفر التَّثْنِية (١/٢٤ ـ ٤). إنّه لمثال واضح على الطريقةٍ التي سعى فيها مُحَمّد إلى تمييز الإِسْلام عن اليهودية.

التي كان توقيت الوحي يلبي فيها مقتضيات المراحل الاجتماعيّة والسياسيّة المتغيرة للنَبِيّ وقضيته. كما تظهر بأنّ مُحَمّداً، في هذه الحقبة المبكّرة من إقامته في المدينة، أدرك بأنَّ الحرب المفتوحة مع أبناء بلده محتومة وأنَّها آتية قريباً. مهما يكن من أمر، فقد حان أوان تهيئة أذهان أتباعه لهمومٍ ومشاكل من هذا القبيل، ولإلهاب حماسهم وشجاعتهم بأمثلة من التّاريخ اليهودي: ــ

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ، ولَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم؟ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/٢١٤).
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ ــ وَهُمْ أُلُوفٌ ــ حَذَرَ الْمَوْتِ؟ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ، « مُوتُواْ »؛ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ.
وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/٢٤٣ ــ ٢٤٤).

تبع هذه العظة وصف لحروب موسى وشاوول.[١٤٨] وقد أظهر مُحَمّدٌ جهلَه بتاريخ العهد القديم عندما خلط بين شاوول وجدعون. ومع ذلك، فإنَّ هذه الأمثلة لرجال العهد السابق ما برحت تستعمل بهدف إلهاب حماسة أتباعه.

إنَّ الكراهية التي أثيرت ضد اليهود تزايدت بعد معركة بَدْر. وبنشوة المنتصر، دعا مُحَمّدٌ يهودَ بني قَينُقَاع لاعتناق الإِسْلام، لئلا يصيبهم الله ببلاءٍ كما فعل بقُرَيْش في المعركة الأخيرة.[١٤٩] غير أنَّهم تفاخروا بأنَّ هزيمتهم لن تكون سهلة المنال وأنّهم قادرون على مقاومة المسلمين بكلِّ نجاحٍ. ولهذا جاءَ الوحيُ: ــ

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ.
وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ ﴾ سُوْرَة الأَنْفَال (٨/٥٨ ــ ٥٩).

---

[١٤٨] ورد ذكره بالقرآن باسم طالوت (سُوْرَةُ البَقَرَةِ: ٢٤٦ ـ ٢٥١) ـ **المترجم.**

[١٤٩] يعرض مارغوليوث (*Mohammed*, p. 231) حديثاً يروي أن أبا بكر، رغب باقتراض من **هؤلاء** اليهود، قائلاً: « من يقرض الله قرضاً حسناً؟ ». فأجاب فنحاص بن عازوراء، « إنّ الله فقيرٌ حتّى سأل القرض ». فتعرض للطم أبي بكر. وقد أشتكى اليهودي إلى مُحَمّدٍ، نافيّاً كما يبدو قوله هذه الكلمات. وقد تمسك مُحَمّدٌ بالفرصة لتبرير سلوكه تجاه اليهود. وجاء جِبْريل بشكل مناسبٍ بالوحي: ـ
(لَّقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ، « إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ». سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ، وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ؛ وَنَقُولُ، « ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ») سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٨١).

رفض بنو قَينُقَاع دعوةَ مُحَمّدٍ فطُردوا من البلاد وصُودرت ممتلكاتهم. أما بنو النَّضير فقد كانوا قوماً أغنياءً؛ وكان كعب بن الأشرف، أحد رؤساء أحبارهم، على صداقة مع مُحَمّــدٍ سَبَقت تغيير القبلة، فعاداه على إثرها. وبتشجيع من مُحَمّدٍ، طالته يدُ الاغتيال في تموز (يوليو) من سنة ٦٢٤. وبعد أشهر قليلة من معركة أُحُد، تسلَّمت قبيلته، في حزيران (يونيو) من سنة ٦٢٥، خطاباً ينذرهم فيه مُحَمّد بالرحيل خلال سبعة أيــام وإلاّ تعــرض المتخلِّفــون مــنهم للقتل،[١٥٠] فرفضوا هذا الإنذار. لم يحافظ اليهود على هذه الروح الشجاعة ولم يسعوا للمقاومة المشتركة، فأُخضعوا قسماً تلو آخر. ويُشار إلى ذلك في الآية: ــ

﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ (اليهود) جَمِيعاً، إلاَّ فِي قُرىً مُّحَصَّــنَةٍ، أَوْ مِــن وَرَاء جُدُرٍ. بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً، وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ سُوْرَةُ الحَشْرِ (١٤/٥٩).

أظهر المسلمون، عن حق، ازدراءً لتبجح اليهود، كونهم صــاروا الآن ذوي بــأس، فطُرد اليهودُ ووُزّعت حقولهم الخصبة وأملاكهم بين المهاجرين. وقد جاءت المصادقة الإلهية على هذا الإجراء في سُوْرَةِ الحَشْرِ (٥٩): ــ

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِــــن دِيَــارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ.[١٥١]
وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ.
مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْــزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ سُوْرَةُ الحَشْرِ (٢/٥٩، ٣، ٥).

كان قطع النخيل مخالفاً تماماً للأعراف العربيّة كما كان محرماً بقانون موسى (التَّثنِيَة: ١٩/٢٠). ولهذا تأتى على مُحَمّدٍ بهذا الوحي تسويغُ الحاصل بعد حصوله. وقد أجاز له الوحي إعطاء قسم كبير من الغنائم إلى المهاجرين:[١٥٢] ــ

---

[١٥٠] جاء في **الطبقات الكبرى** لابن سعد أنّ مُحَمّداً أمهل بني النَّضير عشرة أيام للرحيل، قبل أنْ يحلَّ دمهم. ويلاحظ سيد محمود القمني بصدد هذه الحملة « إنّ [بني] النَّضير كانوا حلفاءَ الأوس، وكان المنافقون من الأوس كثر، وهم من كانوا وراء غليان المدينة بالنفاق بعد هزيمة أُحُد » (**حروب دولة الرسول**، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، ط ٢، ١٤١٦ هـ/١٩٩٦ م، ص ٢٣٠) ـ **المترجم**.

[١٥١] بني قَينُقَاع.

[١٥٢] لقد جعل المهاجرين يتوقعون أيضاً ثواباً عظيماً في الحياة الآخرة: ـ

﴿ لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْــوَالِهِمْ، يَبْتَغُــونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ. أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ سُورَةُ الحَشْرِ (٥٩/٨).

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ، وَجَاهَــدُواْ فِــي سَــبِيلِ الله، وَالَّــذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً: لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.
وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِــنكُمْ ﴾ سُــورَةَ الأَنْفَال (٨/٧٤ ــ ٧٥).

كما أُدين اليهود وحُذروا بالكلمات المرّة القاسية هذه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا، سَوْفَ نُصْــلِيهِمْ نَاراً؛ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُــودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ ﴾ سُوْرَةُ النِّسَاءِ (٤/٥٦).

يقول المفسر حسين (المجلد ٢، ص ٣٩٦) بأن عدداً من المنافقين: ابن أُبي، وابن أبي قَوْقل وآخرين وعدوا بني النَّضير بالعون، لكنهم نكثوا بوعدهم. إنهم كمثل الشَّــيطان، يقنــع الإنسان أنْ يكون كافراً ويقول: « إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ » [سُوْرَةُ الحَشْرِ (٥٩/١٦)]؛ وقد بــرَّر مُحَمّد استثناء هؤلاء الرجال من المشاركة في الغنائم بالتالي: ــ

﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّــذِينَ كَفَــرُوا مِــنْ أَهْــلِ الْكِتَابِ، « لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ، لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ، وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَــداً؛ وَإِن قُوتِلْــتُمْ، لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللهُ ». يَشْهَدُ إِنَّهُــمْ لَكَــاذِبُونَ ﴾ سُــورَةُ الحَشْــرِ (٥٩/١١).

في السنة الخامسة للهجرة، أُبيدت بني قُرَيْظَة، وهي قبيلة يهوديّة كبيرة. فيوم حاصر المَكّيّون المدينة، عرضوا عليهم حوافز كبيرة للمشاركة مع أعداء مُحَمّدٍ، وقد كانوا دون شك، كباقي اليهود في ذلك الوقت، مكتئبين ومستائين. لكنّهم في الواقع لم يساعدوا المُحاصِرين، بل بقوا على الحياد. كما أنّهم رفضوا تقديم يد العون إلى بني النَّضير؛ لكن ذلك لــم يُــذكر فــي صالحهم. لو أنَّ بني قُرَيْظَة كانوا أكثر شجاعة ووقفوا إلى جانب إخوانهم يوم هوجموا، لكان بوسع هؤلاء اليهود على الأرجح أنْ يتوصلوا لاتفاق أفضل مع مُحَمّدٍ.

(الَّذِينَ هَاجَرُواْ، وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ، لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ الله) سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٩٥).

ربما كان وجود اليهود في المدينة مصدرَ خطرٍ سياسيٍّ، لكن ليس ثمّة ما يبرِّر المعاملة الوحشيّة التي تلقوها. لقد عرضوا الجلاء، وتوسّلوا من أجل الحفاظ على حياتهم، لكنهم توسلوا عبثاً. والتمسوا أصدقاءَهم وحلفاءَهم العرب ــ الأوس ــ من أجل التشفع لهم، وكانت التماساتهم صادقة. اقترح مُحَمّدٌ، بهدف استرضاء هذه القبيلة العربيّة القويّة، أنْ يقومَ عضوٌ منها باتخاذ القرار، وبهذا ألقى المسئوليّة بدهاء عن نفسه؛ لكنه أصرَّ على ألا يكون اختيار الحَكَمِ بيد اليهود. إختار مُحَمّد بنفسه سعد بن مُعاذ[١٥٣] وقد كان صديقاً لليهود فيما مضى، لكنه كان قد أصيب منذ فترة قصيرة بجروحٍ في إحدى المناوشات،[١٥٤] وقد ثار على اليهود لبقائهم محايدين عوضاً عن تقديم يد العون في صد المَكّيّين؛ بهذا قَضَى سعد لمُحَمّد في غير صالحهم. كانت نتيجة التحكيم محسومة مسبقاً. لقد قرَّر سعدٌ أن تُقتل الرجالُ وتُقسم الأموال وتُسْبى الذراري والنّساء. وأعلن مُحَمّدٌ بأنَّ العقوبة هي « حكم الله ». سِيق الرجال إلى المدينة وذبحوا جميعاً أرسالاً بدم بارد، وبحضور مُحَمّد. وفي آخر المطاف، تبلل السوق بدم ما يقارب الثماني مئة رجل. لقد حُفرت الخنادق في السوق، بتوجيه شخصي من النَّبِيّ، حيث اقتيد الأسرى إلى حافتها واجبروا على الركوع ومن ثم قطعت رءوسهم ورُميت أجسادهم في الخنادق ومن ثم طُمرت. وقُسِّمت بعض النساء بين المسلمين وبيعت البقية رقيقات. كان نصيب النَّبِيّ الخُمْس، وبلغ حوالي مئتي امرأة وطفل، تم بيعهم إلى البدو مقابل الجياد والسلاح. وقد احتفظ مُحَمّد بأرملة جميلة، كان زوجها قد قتل للتو، في حريمه الخاص. وبإجلاء قبيلتيْن وإبادة أخرى، فإنَّ قوةَ اليهود في المدينة تحطمت وإلى الأبد. وأضحى مُحَمّدٌ حراً يتطلع بعيداً خارج حدوده لفتوحات جديدة. لقد كان ثمّة زمن رغب مُحَمّدٌ فيه بصداقة اليهود، لكنه، ومع كلَّ نصرٍ جديد أحرزه، ومع كلَّ مجموعة من الغنائم استولى عليها، قلَّ اعتماده عليهم وحاجته لإعترافهم به ولمواردهم المالية. « كان التغيير من مبدإِ الحَجّة إلى مبدإِ القوة تدريجيّاً، وقد بلغ الآن منتهاه بشكل نهائي ».[١٥٥]

تتناول سُوْرَةُ الأَحْزَابِ (٣٣)، في الآيات التّاسعة إلى السَّابعة والعشرين، هزيمة مُحَاصري المدينة في ما عُرِف بـ « غزوة الْخَنْدَق ». وتجعل الآيتان الختاميتان للّنص الله مسئولاً عن مذبحة اليهود: ــ

[١٥٣] ميرخوند، **روضة الصفا**، الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٤٧٥.
[١٥٤] كانت جرت أبان حصار المَكْيّين للمدينة ـ **المترجم**.
[155] Margoliouth, *Mohammed*, p. 334.

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (اليهـود) مِـن صَيَاصِـيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ؛ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً.[١٥٦] وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ سُـورَةُ الأَحْـزَابِ (٣٣/٢٦ ـــ ٢٧).

رفضت رَيْحَـانة،[١٥٧] اليهـوديّة الجميلة التي أحتفظ مُحَمّدٌ بها لنفسـه، أنْ تتزوجـه قائلةً: « بل تتركني في مِلْكك، فهو أخفّ عليّ وعليك »، كما رفضت التخلّي عن دينها. وليس من الغريب الافتراض بأنّه كان لديها بغض شديد لأنْ تصبح زوجةً رجلٍ، لم يصادق فحسب على مجزرة وحشية قتل فيها زوجها وأقاربها، بل إنّه شاهدها. كما أنّها لم تكن قـادرة علـى رفض واقع أن تكون أَمَة؛ وعلى هذا فقد أخذها مُحَمّد جاريةً له وسوّغ عمله بالآية التالية: ـــ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيّ! إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللهُ عَلَيْكَ ﴾ سُورَةُ الأَحْزَابِ (٣٣/٥٠).[١٥٨]

إنَّ سور الحَدِيدِ (٥٧) والحَشْرِ (٥٩) والصَّفِّ (٦١) والجُمُعَةِ (٦٢) والتَّغَـابُنِ (٦٤) تُستَهلُّ كأغاني تمجيد، وقد ألقيت جميعها في هذه فترة إحتفالاً بإخضاع اليهود والكفار.

نعود الآن بالزمن قليلاً إلى الوراء لنشير إلى أكثر جهود النَبِيّ الحربيّة أهمية. كانـت معركة بَدْرٍ، رغم أنّها ليست أولى سراياه الحربيّة، أعظم ما تولى النَّبِيّ حتى الآن.[١٥٩] فقَبْـل

---

[١٥٦] يقول البيضاوي معلقاً على الآية بأنها تروي كيف أنَّ جِبْريل أتى النَّبِيّ صبيحة هزيمة المَكّيّين وسأله لِمَ انتزع لامته والملائكة لم يضعوا السلاح. وطلب منه التوجه صوب بني قُرَيْظَة وعدم آذان صلاة العشاء لحين بلوغه الموقع الذي يحتله اليهود (المجلد ٢، ص ١٢٦). ويروي البخاري القصة عينها، ويشير بوضوح إلى أن جِبْريل قاد الهجوم على اليهود. ويعيد مسلم الرواية في صيغة أخرى (**خلاصة التفاسير**، المجلد ٣، ص ٥٤٤). وعلى هذا فإنَّ المسلمين الأوائل لُقنوا الإيمان بأنَّ ارتكاب هذه المذبحة الوحشية تمّ بأمر مباشر من الله.

[١٥٧] رَيْحَانة بنت عمرو بن خُنافة ـ **المترجم**.

[١٥٨] يقول سيد أمير علي: « لقد اعتبرت قصة رَيْحَانة التي صارت زوجة النَّبِيّ الغامضة اختلاقاً » (*Life of Muhammad*, p. 114). إنَّ هذا الإنكار من جانبِ مؤلّفٍ ذي سمعة عالية مثل سيد أمير علي يظهر خطورتها، لكن الواقعة يُصادق على صحتها جيداً، والمفسر حسين، أكثر حرصاً ودقةً يقول بأنّ هذا النّص يشير إلى الأمتيْن: صفية وريحانة وأمثالهما:. ويقول بكلمات لا لبس فيها: ـ

چون صفيۀ وريحانۀ وأمثال أيشان. (**تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٢٠٤).

[١٥٩] لقد تناهى إلى مسمع مُحَمّد بأنَّ قافلة مَكّيّة ثريّة غادرت إلى سوريا. فأمر أتباعه بالاستيلاء عليها في طريق إيابها. لقد كان هو المعتدي، وكان مسعاه للسطو عليها السبب الحقيقي للمعركة. انظر سِل (*The Life of Muhammad* (C.L.S.), p. 115)؛ كذلك الطبري، **تاريخ الرسل**، « De Geoge's ed.) series 1, vol. iii, p. 1495).

اشتباك بَدْر، قاد النَّبِيّ بنفسه أربع سرايا قرصنة، وقاد نوابه ثلاثاً أُخر،[١٦٠] بيد أنّهم جميعاً أخفقوا في تحقيق هدفهم، حيث لم يُصِب قُرَيْشاً إلاّ القليل من الأذى، ولم يكسب المسلمون إلا القليل أو لم يغنموا. حالف النجاح النسبي الوحيد سريّةٌ هاجمت وسلبت في شهر رجب ــ شهر مقدس منذ قديم الأزمنة يسود فيه السّلم وتُحظر الغزوات القبليّة ــ قافلة من قريشٍ في نَخْلَة، وتمَّ أخذ بعض الأسرى. غير أنَّ هذا الإنتصار لم يكن موازيّاً للخوف الذي نشأ في أفئدة المسلمين لتجرئهم على انتهاك الأعراف العربيّة. نفى مُحَمّدٌ في البدء أنْ يكون قد أعطى الأمر للقيام بالهجوم في هذا الشهر، لكن، ومع استمرار مشاعر عدم الرضى عند العامة من الناس، فإنَّ الوحي جاءَ يغفر الإساءَة: ــ

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ؛ قُلْ: « قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ، وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله، وَكُفْرٌ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ؛ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/٢١٧).

يفسِّر ابن إسحاق ما سبق، يقول « إنْ كنتم قد قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخْرَاجُكم منه أنتم وأهْله أكْبَر عند الله مِن قتلِ من قتلتم منهم وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ». غضبت قُرَيْش وقالت إنَّ مُحَمَّداً وأتباعه انتهكوا حرمة الشهر الحرام بسفك الدماء والإستيلاء على البضائع وأخذ الأسرى؛ بيد أنَّ انتهاك الشهر الحرام لم يفقد مُحَمَّد أياً من أتباعه، وقد احتفظ المنفذون بأربعة أخماس السلب لأنفسهم.

أمّنت هذه السّرايا الغنائم الضّروريّة للمسلمين الذين كانوا جدَّ فقراء آنذاك،[١٦١] كما مهدت الطريق لجهود أعظم. وفي آيات هذه الحقبة جرى التركيز على غرس روح الثأر وإنهاض مشاعر الحماسة العسكريّة. إنَّ سُوْرَةَ الرَّعْدِ (١٣) مَكّيّة متأخرة، بيد أنَّ الآية الحادية والأربعين تعود إلى زمن المدينة ولا بد أنَّ مُحَمّداً نفسه، أو جامعي القُرْآن من بعده، قد أدرجوها في هذه السُّوْرَة فيما بعد. إنَّها تشير إلى التجاوز التدريجي للمسلمين على أراضي العرب الوثنيين: ــ

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا؟ وَاللهُ يَحْكُمُ، لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ سُوْرَةُ الرَّعْدِ (١٣/٤١).

---

[١٦٠] خلال عشر سنوات من إقامته في المدينة، نظّم مُحَمّدٌ ثماني وثلاثين سرية، وقد رافق شخصيّاً سبعاً وعشرين منها بوصفه قائداً أعلى لتعزيز قضية الإِسْلام. ابن إسحاق وابن هشام، استشهد بهما كويل (*Mohammed and Mohammedanism*, p. 324.).

[١٦١] لقد كانوا حطّابين وساحبي ماء: لقد باع أبو بكر الثّياب؛ وعثمان الثمرات وكان الآخرون يشغّلون أعمال الأرقاء. انظر مارغوليوث (*Mohammed*, pp. 234-8.) من أجل المصادر الأصليَّة التي تدعم هذا البيان.

سُوْرَةُ الحَجِّ (٢٢) مَكِّيّة على الأرجح، بيد أن بعض آياتها متـأخرة زمنيـاً وتعـود للمدينة، مثل:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا: « رَبُّنَا اللهُ » ﴾ (٣٩ ــ ٤٠).

في السنة الثانية لإقامته في المدينة، بات واضحاً لمُحَمّد أنَّ الحرب المفتوحة مع أبناءِ بلدهِ أصبحت أمراً لا مفرَّ منه. لهذا نقرأ في سُوْرَةِ البَقَرَةِ وهي مدنيّة مبكرة: ــ

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ، وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ؛ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٢١٦).
﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٢٤٤).

ثمَّة آيات من طبيعة مشابهة في نفس السُّوْرَة، لكنَّها تعود على الأرجح إلى حقبة متأخرة بعض الشيء، إلى زمن الحَجّ الأول إلى مَكّة في سنة (٧ هــ)؛ وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّها تشير إلى المَكْيّين ومنهم فقط غير الملتزمين صلح الحُدَيبِيَة.[١٦٢] والآيات هي: ــ

﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ؛ وَلاَ تَعْتَدُواْ.[١٦٣] إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.
وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ، وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١٩٠ ــ ١٩١).
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ، حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ،[١٦٤] وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ، فَإِنِ انتَهَواْ،[١٦٥] فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩٣).

[١٦٢] في سنة (٦ هـ) لدى الحملة الأولى ضد مَكّة، عقدت معاهدة بينهم وبين مُحَمّدٍ حيث تمّ الاتفاق على عشر سنوات سلم؛ وسمح للقبائل بالانضمام إلى أيٍّ جانبٍ شاءَت، وقد وضعت قوانين بصدد الهاربين والمرتدين؛ وتوجب على المسلمين الرجوع الآن، بيد أنّه سُمح لجماعة غير مسلحة من المسلمين بالحَجّ في السنة التالية. وإلى ذلك يُشار في سُوْرَةِ الفَتْحِ (٤٨) الآية الأولى: ـ
(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً)

ولرواية كاملة بصدد مسألة الحُدَيبِيَة والاتفاق المبرم، انظر ميرخوند، **روضة الصفا**،الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٤٩٤ ـ ٥٠٤.
[١٦٣] في الحُدَيبِيَة، حيث كان المسلمون يعسكرون، فإنَّ موقعَهم، من وجهة نظر عسكريّة، كان خطراً بعض الشيء. وقد كان نصح المسلمين بالبقاء في الدفاع تكتيكاً ممتازاً. والإشارة هي لوضعية محليّة بحت وقد أُلغي تطبيقها العام في الآيات التّالية.

إستمر إيقاد الروح الحربيّة في النّفوس بالإشارة إلى حروب بني إسرائيل وشاوول الذي خُلِط بينه وبين جدعون في إحدى المرات، مما يدلُّ على أنّ معرفةَ مُحَمّدٍ بالعهد القديم كانت مشوشةً للغاية. وقد صُوِّر الإسرائيليّون وهم يقولون: ـــ

﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا... كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ... تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٢).

هكذا، وكما أنَّ فئة قليلة من بني إسرائيل بقيادة جدعون غلبت أهل مَدْيَن،[١٦٦] كذلك فإنَّ فئة قليلة من المسلمين ستغلب المكّيّين، ومِثلُ هذه الانتصارت هي آيات الله أو شواهد على الحقائق التي يغرسها أنبياؤه. بهذه الطريقة وبمثل هذه التعاليم شحذ مُحَمّدٌ شجاعة أتباعه.

وهكذا فإنَّه يسوّغ الأمر: ـــ

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ سُوْرَةُ الحَجِّ (٢٢/٣٩).

إرتكزت الحجَّة على واقع إنَّه تأتى على رجال الأديان الأخرى الذود عن أماكن العبادة، وهكذا على المسلمين القيام بذلك أيضاً: ـــ

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا « رَبُّنَا اللهُ ». وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ

---

[١٦٤] يقتفي رودويل إثر البيضاوي، فيشرحها على أنّها تعني « إخراجهم إياك من مَكّة، أو، إغراءهم على الوثنية ». ويترجمها سِل « إغراء على الوثنيّة »، وهذا يتفق مع شرح المفسر حسين الذي يقول: (**حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ**) بأنها تعني:

تا آن غايت كهٔ فتنهٔ نباشد يعنى أز شرك أثر نماند

« حتى لا تكون فتنة، أيْ، عدم أثر للشرك ». ويفسرها البيضاوي بدوره على أنّها « شرك ».

ويبدو أنَّ مفسرين آخرين يعطونها معنى أكثر اتساعاً ومدى أشمل. مثل، « حتى يصبحوا مسلمين أو يدفعون الجزية، لا تغمد سيفك. فالجهاد سيستمر إلى يوم القيامة » ـ

جب تكث مسلمان نهون يا جزيهٔ ندين تلوار ميان مين نكرو الجهاد منفى الى يوم القيامهٔ. (**خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ١٣٢).

[١٦٥] يضيف البيضاوي « **عن الشرك** ».

[١٦٦] وردت قصة شُعيب مع أهل مَدْيَن في (الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣؛ هود: ٨٤ ـ ٩٥؛ الشعراء: ١٧٦ ـ ١٩١؛ العنكبوت: ٣٦، ٣٧) ـ **المترجم**.

وَمَسَاجِدُ، يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً، ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَــن يَنصُــرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ سُوْرَةُ الحَجِّ (٢٢/٤٠).[١٦٧]

عمليّاً، قامت قُرَيْش بطرد المسلمين من مَكّة ويمكن القول إن ذلك مسوغ للعداء. بيــد أنَّ الأمر ذهب إلى أبعد من ذلك، وتوجب شنّ الحرب حتى ﴿ يَكُونَ الــدِّينُ للهِ ﴾، أي حتــى يعتنق المَكيّون الإِسْلامَ. إن الإيمانَ الحق سيتأسس بالسيف. ولن يكون هناك تسامح مع أشكال دينٍ أخرى على الإطلاق. رغم كل ذلك، كان النَّاس ما زالوا خائفين وكــان « المنــافقون » يعارضون هذه السياسة الحربيّة. بعد زمن قصير، في سُوْرَة (٤٧) [سُوْرَةِ مُحَمَّدٍ، **م.**] أوحي لمُحَمّد بأنْ يحثَ المؤمنين على القتال وينذر الرعاديد و« المنافقين » بعذاب الجحيم. نقرأ: ــ

﴿ فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَضَرْبَ الرِّقَابِ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ، فَشُــدُّوا الْوَثَــاقَ. فَإِمَّــا مَنًّا بَعْدُ، وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَــا[١٦٨]... وَالَّذِينَ قُتِلُوا[١٦٩] فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٤).

---

[١٦٧] في بعض الأحيان يُستشهد بهذا النّص، لإظهار أنَّ الجهاد ـ أو الحرب الدينيّة ـ دفاعيٌّ بشكلٍ محضٍ، بيد أنَّه فعلاً تطبيق محلي. كان مُحَمّدٌ يرمي من أمثلة رجال العقائد الأخرى، إلى مقاومة قُرَيْش وليس لوضع قانون التسامح لكلِّ زمان. وهذه هي نظرة المفسرين.

مقصود يهى هى كۀ يهودى كى زمانى مين ان كى مسجدين اور نصارى كى وقت مين ان كى مسجدين اور اب

همارى مسجدين مراد هين نۀ كۀ سب كى هر وقت مقصود هى

« إنَّ المعنى يشير إلى الكنس في زمن اليهود، وإلى الكنائس في زمن المسيحيين وإلى المساجد الآن، ولا يشير إليها في كل الأزمنة » (**خلاصة التفاسير**، مجلد ٣، ص ٢٤٩). ويقال إنَّ المقطع ككل لإثبات « واجب الجهاد الأبدي ». ـ هم بر دائمى فرض هى۔

ونقرأ مجدداً، « من العبث الاحتفاظ بأماكن العبادة بعد نسخ الدين » (المصدر نفسه، ص ٢١٨).

بعد منسوخى دين ان كى عبادتكاۀ كا بتا عبث هى

و إذ ينسخ الإِسْلامُ كلَّ الأديان الأخرى، فإنَّ الكنائس، والكنس يجب بدورها أن تنتهي. يُشرح التسامح الظاهري لهذه الآية بهذا الشكل. مع أن السُّوْرَة ككلٍّ مَكّيّة، بيد أن نِلدِكه يعتبر أن الآيات ٣٨ ـ ٤١ مَدَنيّة، وأنّها ألقيت مباشرة قبل معركة بَدْر.

[١٦٨] يضع نِلدِكه سُوْرَةُ مُحَمَّدٍ هذه بعد معركة بَدْر. وهذا يدعم نظريات أولئك المفسرين، الذين يأخذون بالقتل كوصية عامة تدوم حتى تنتهي الحرب، والتي لن تكون قبل مجيء يسوع المسيح وعودة الإمام المهدي، حسب الأحاديث: « إنَّ الجهادَ باقٍ ليوم الدين ».

ويقول آخرون بأنّها منسوخة، أو إنّها تنزّلت قبل معركة بَدْر، ولهذا فهي تحوز على تطبيق محدود ومحلي. ويبدو أنّها نظرة الأحناف (البيضاوي، المجلد ٢، ٣٢١)، [الذين يرون أن الاسترقاق منسوخ أو مخصوص بحرب بَدْر، **المترجم**]. في حين أنَّ الشّيعةَ يميلون لنظرة أكثر اتساعاً. (**تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٣٦٢؛ **خلاصة التفاسير**، المجلد، ٤، ص ٢١٣). ويشــرح عباس بأنَّ (حتّى تَضَع الحَربُ أوزارها)، تعني « **حتى يترك الكفار شركهم** ». بيد أنّه وإذ يشير إلى الجزء الأول بصدد بَدْر، فإنّه من غير الواضح ما إنْ كان يعطي للجزء الثاني تطبيقاً محلياً أو عاماً.

ويقول الزمخشري بأنَّ الحرب ستستمر « إلى أن يقتل المشركين أو يؤسروا ويضعوا السلاح »؛ إلاَّ أنّه ليس جلياً ما إنْ كان ذلك تطبيقاً محليّاً أو عاماً. وجاءَ في تفسير أحمد أنَّ الكلمات منسوخة.

ويسجل **مقبول الترجمة** قولاً للإمام جعفر الصادق بأنّهم إذا ما بقوا على شركهم فإنَّ للإمام أنْ يأمر بقطع رءوسهم أو قطع أيديهم أو أرجلهم ويدعهم ينزفون للموت.

قاتلوا إذاً ﴿ حتّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ، ويَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لله ﴾ سُوْرَة الأَنْفَال (٣٩/٨).[١٧٠]

و قد أُشير إلى المترددين الخائفين في الآية: ـــ

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا: « لوْلا نُزِّلَتْ سُوْرَة »، فَإِذَا أُنزِلَتْ سُوْرَةٌ مُّحْكَمَةٌ، وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ، رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ، نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.
فَلا تَهِنُوا: وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ سُوْرَةُ مُحَمَّدٍ (٤٧/٢٠، ٣٥).

وبهذا مُهدت الأرضيّة، وحُرِض اليثاربة على لَعِبِ دورهم لأول مرة في حرب عدوانية. كان الوضع في المدينة متأزماً، وقد اضطر أهلوها للحصول على المؤن من بعض المصادر الغريبة.[١٧١] أما السببُ المباشر لمعركة بَدْر (٦٢٤ م) فكان رغبةَ مُحَمّدٍ بالاستيلاء على قافلة غنية عُلم أنّها في طريقها من سوريا إلى مَكّة،[١٧٢] وكان بمواكبتها أربعون مسلحاً. قال مُحَمّدٌ مخاطباً أتباعه: « هذه عيرُ قُرَيْش فيها أموالهم فاخْرجوا إليها لعلَّ الله يُنْفِلُكُموهما » فخرجت جماعة من ثلاثمئة وسبعة وأربعين رجلاً في هذه الغزوة. لم يكن على الأنصار واجب التوجه إلى القتال، ذلك أنَّ ميثاق العقبة الأول الذي دُعي فيه مُحَمّدٌ إلى المدينة لم يكن يتضمن أيَّ بندٍ بصدد القتال. بيد أنَّ ارتباطهم بقضيته وإخلاصهم لشخصه وحبهم للمغامرة ورغبتهم بالسلب جعلت أنصاراً عديدين يتطوعون.

---

[١٦٩] بصدد **(قُتِلُوا)**، هناك قراءَة أخرى **(قَاتَلُوا)**. ويتبنى القارئان عاصم من الكوفة وأبو عمرو القراءَة الأخيرة، في حين يرفضها الآخرون، وبهذا فثمة إجماع كبير على موثوقية الأولى.

[١٧٠] **(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ)** ـ وحسب حسين « حتّى لا يبقى أحد من المشركين من الوثنين أو اليهود أو المسيحيين ». **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٣٩.

ويقول البيضاوي، « حتّى لا تكون بينهم فتنة الشرك ». ويشير عبد الله بن عباس إلى الحرب ضد المَكّيّين، ويقول **خلاصة التفاسير**: ـ دوام جهاد كا حكم هى ـ « إنَّها حكم دوام الجهاد »، لكنَّه يمضى ليقول بأنَّه حكم فرض كفاية، أي ليس واجباً على كلِّ مسلم. ويقال أيضاً، إنَّها آية مُحْكَمٌ ولهذا فهي لا يمكن أن تكون منسوخة.

يظهر هذا التعليق القاسي، وجوب الحرب مع غير المسلمين وإنَّها مستمرة وأنَّ استخدام القوة مبرر حتى (**يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله**).

[١٧١] حول المصادر الأصلية بصدد هذه النقطة، انظر مارغوليوث (*Mohammed*, pp. 234-8.).

[١٧٢] من أجل إظهار أن الأعمال الحربيّة ضد المَكّيّين كانت مسوغةً، فإنّه تنزّلت الآية التالية:
(لاَ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ)
سُوْرَةُ المُمْتَحِنَةِ (٦٠/٨).

وإذ وصلت الأخبار إلى مكَّة بأنَّ القافلة في خطرٍ، إنطلقت مجموعة كبيرة من الرجال لحمايتها فكانت معركة بَدْر مع هذه الجماعة. وقد دافع مُحَمّد عن هذا العدوان الذي لا مبرر له مدَّعياً أنَّ المَكيّين قاموا بغارة ضد المدينة. لم يكن ادعاءُ مُحَمَّدٍ صحيحاً إذ إنّ المَكيّين قـدموا للدفاع عن ممتلكاتهم ليس إلا. أمطرت السماء قليلاً ليلة المعركة وحلِم مُحَمّد بأنَّ الأعداء قليلو العدد. وقد أُشير إلى هاتين الواقعتين في القُرْآن:ـــ

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ، أَمَنَةً مِّنْهُ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ، وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾
﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً؛ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً، لَفَشِلْتُمْ، وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ؛ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ ﴾ سُوْرَة الأَنْفَال (٨/١١، ٤٣).

هزمت قُرَيْش هزيمة منكرةً وقَتلَ المسلمون أسرى عديدين بشكل قاسٍ. كانت الغنيمة كبيرة جداً فسببت قسمتها خلافاً كبيراً. وفي ذلك اليوم افْتُقِدَت قَطيفَة حَمْـراءُ، فقـال بعـض المنافقين لعلَّ مُحَمّداً أخذها؛ بيد أنّه ردّ على الاتهام ــ حسب الترمذي[١٧٣] ــ بوحي خاص: ــ

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيّ أَن يَغُلَّ ﴾[١٧٤] سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٦١).

ويقول راوٍ تقليدي[١٧٥] بأنّه لإزالة التهمة التي رُمي بها النَّبِيّ جاءَت هذه الآية: ــ

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللهِ ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْـرانَ (٣/١٦٢).

ومن أجل وضع حد للّغَط حول تقسيم الغنائم، فإنَّ إرادة الله قد أَنزلت الآيات التالية:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ؛ قُلِ، الأَنْفَال للهِ وَالرَّسُولِ. فَاتَّقُواْ اللهَ، وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ، إِن كُنتُم مُّـؤْمِنِينَ ﴾ سُـوْرَة الأَنْفَـال (٨/١).

---

[١٧٣] يسجل الترمذي حديثاً يروي أنَّ بعضهم قال: « لعلَّ رسول الله أخذها ». **جامع الترمذي**، المجلد ٢، ص ٣٤١.
[١٧٤] **(وَمَا كَانَ لِنَبِيّ أَنْ يَغُلَّ)**. إنَّ القرّاءَ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، ويعقوب والكسائي يؤيدون قراءة أخرى ـ **أَنْ يُغَلَّ** ـ وهي على البناء للمفعول. والمعنى « وما صح لنَبِيّ أن يوجد غالاً أو أن يُنسب إلى الغلول ». البيضاوي، المجلد ١، ص ١٨٢.
[١٧٥] **تاريخ الواقدي**، ص ٢٤٢، ١٥.

وإذْ أكَّد حقه المطلق في الغنائم، فإنَّ النَّبِيّ قد خفف بعضَ الشيء من حــق المطالبــة قائلاً: ــ

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ، فَأَنَّ للهِ خُمُسَــهُ وَلِلرَّسُــولِ، وَلِــذِي الْقُرْبَى، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِــاللهِ وَمَــا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ،[١٧٦] يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ سُوْرَة الأَنْفَــال (٤١/٨).

إنَّ هذا التشريع في الإِسْلام ما زال سارياً حتى اليوم.

كان مُحَمّد بحاجة ماسة لنصر بَدْر لإعادة تثبيت موقعه في المدينة، وقد كان موقعــه هذا قد أُضعف كثيراً بالنجاح الباهت للحملات السابقة. ولم يُوفِّر مُحَمّد أيَّ جهدٍ لإرجاع هــذا النجاح الكبير إلى التدخل الإعجازي لله: ــ

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ، « أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَــةِ مُرْدِفِينَ ».[١٧٧]
وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بُشْرَى، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنــدِ اللهِ ﴾ سُوْرَة الأَنْفَال (٩/٨ ــ ١٠).

فيما بعد، يشار إلى هذا المدد كدعم لدعوى النَّبِيّ وتشجيع وعبرة لأتباعه.

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ،[١٧٨] فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا. فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْــرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ،[١٧٩] وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (١٣/٣).

---

[١٧٦] يشير جميع المفسرين إلى نصر بَدْر ويطلقون عليه **يوم الفرقان**. وشبه الجملة هذه تترجم بـ « يوم النعمة »، « يوم النصر »، « يوم الهلاك »، « يوم بَدْر الذي فصل فيه الحق عن الباطل » ـ

روز بدركة جدا شدن حق أز باطل در او بود

ويظهر الحبر غايغر بأنَّ **فرقان** مشتقة من الكلمة العبرية الحبْرية (פֻּרְקָן) التي تعني « إنقاذ »، اعتاق، ويطبقها على الآية (١٨٥) من سُوْرَةِ البَقَرَةِ (٢) في الإشارة إلى شهر رمضان، بوصفه شهر تحرر من الخطيئة وليس كما يفعل عادةً، بأنَّها تشير للقُرْآن، وإلى ما ينير ويفرّق. انظر غايغر (*Judaism and Islam* (S.P.C.K. Madras), p. 41) وترجمة رودويل للقُرْآن (ص ١٧٦، الملاحظة الثانية).

ويفسر حسين كلمة **(فرقان)** على النحو التالي:

الفُرقَانَ - أز حدود وسائر شرائع دين كهٔ جدا كنندهٔ است ميان حق وباطل

إنَّها « الشرائع والحدود وكل شرائع الدين التي تفرق الحق عن الباطل » ـ **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٣٠.

[١٧٧] في سُوْرَة تالية، فإنَّ العددَ يصبح ثلاثةِ آلآفٍ ـ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (١٢٤/٣).

﴿ فأنتـــم لم تَقْتُلُوهُم، ولكن اللهَ قَتَلَهُمْ، وما رميتَ إذْ رَمَيَـــت ولكـــن اللهَ رمى ﴾ (الأَنْفَال: ١٧/٨).

ويوصف الذين فقدوا حياتهم بأنَّهم شهداء في سبيل الله:

﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ: بَلْ أَحْيَاء ﴾ سُوْرَةُ البَقَـــرَةِ (١٥٤/٢).[١٨٠]

شعر بعض المهاجرين الذين فقدوا أقاربِ وأصدقاءً سابقين مَكْيّين في القتال، وقد رأوا أقرباءَهم بين الأسرى، شعروا بالأسى، وقد كان هذا الشعور قويّاً لدى النســـاء. ولهـــذا جـــاءَ التوبيخ التالي: ـــ

﴿ يَا أَيُّهـَـا الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُـــمْ عَـــدُوًّا لَّكُـــمْ؛[١٨١] فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ سُوْرَةُ التَّغَابُنِ (١٤/٦٤).

في الأسبوع التالي لمعركة بَدْر، تعرّض اثنان من المتهمين البارزين، أبو عَفَك وابـــن عوف، للاغتيال.[١٨٢] سرى النقد على هذا التصرف بين العامة في سرِّهم، بيد أنّه سِرعان مـــا نهي عنه: ـــ

---

[١٧٨] إنَّها في معركة بَدْر حيث كان هناك آية جلية على نبوّة مُحَمّد. وعلى هذا فإنَّ حسين يقول بأَنَّ الكلمات ـ (**كَانَ لَكُمْ آيَةٌ**) بأنها تعني:

شما را علامتی و نشانی درست بر نبوتِ محمد

« لقد كان لكم علامة وآية حسنة على نبوة مُحَمّد ». **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٧١.

[١٧٩] في سُوْرَةِ الأَنْفَالِ (٤٤/٨) قيل بأنَّه قد قـُلِّلَ المسلمون في عيون المَكْيّين. ويقر المفسرون بالتعارض ويجهدون من أجل التوفيق بين النَّصين بجعل النّص في سُوْرَةِ آلِ عِمْرانَ (١٣/٣) يلي الذي في سُوْرَةِ الأَنْفَال (٤٤/٨). حول هذه المسألة انظر ويري (*Commentary*, vol. ii, p. 7.).

[١٨٠] ليس مؤكداً إنْ كانت هذه الآية تشير إلى معركة بَدْر أو أُحُد. فالمفسر حسين يقول:

دو روز بدر جان شيرين بداد واز نعمت حيات ولذت نصيب دنيا محروم شد

« لقد أعطوا حياتهم الحلوة في بَدْر مفارقين نعمة الحياة ولذة الدنيا ».

ويقول عبد الله بن عباس بأنَّ عبارة، (**يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله**) تعني « **يُقتل في طاعة الله يوم بَدْر** ». وجاء في صحيح مسلم إنّ أرواح الشهداء عند الله في أجسام طيور خضر تسرح في الجنة وتجثم قرب أنوار محيطة بعرش الله. وينسب هذا الحديث لابن عباس في **تاريخ الواقدي**، ص ٢٤٢، مع أحاديث أخرى بصدد نعيم الشهداء.

[١٨١] ويشرح البيضاوي ذلك: يشغلكم عن طاعة الله، أو يخاصمكم في أمر الدين والدنيا. ويقول بعض المفسرين، بأنّها تشير إلى الهجرة من مَكّة والتي لم تكن رائجة لدى بعض عائلات المهتدين.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى، ثُمَّ يَعُـودُونَ لِمَـا نُهُـوا عَنْـهُ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِـيَت الرَّسُـولِ ﴾ سُـورَةُ المُجَادِلَـةِ (٥٨/٨).

حالف النَّصر في بَدْر القوة الأضعف على القوة الأعتى، وخسرت قُرَيْش رجالاً كانوا من أشد أعداء النَبِيّ؛ لهذا بدت فكرة التدخل الإلهيِّ تفسيراً طبيعيّاً إلى حدٍ بعيدٍ. لقد صار النَّبِيّ في موقع آمن مكّنه من المضي في سياسة، أضحت أكثر تطوراً بعد بَدْر، لإخضـاع القبائـل اليهوديّة بالكامل وقد انتفت حاجته إليها الآن. وكانت قيمة الغنائم وفداء الأسرى مرضية جـداً للمهاجرين الذين غدوا بها مستقلين عن الأنصار. أما الأسرى الذين كانوا غير قادرين علـى دفع الفدية ماليّاً فقاموا بإعطاء دروس الكتابة، وهي مهارة قدَّرها مُحَمّد حق قـدرها [سُـورَةُ البَقَرَةِ (٢) ٢٨٢ ــ ٢٨٣]. كما كان لنصر بَدْر تأثير كبير على القبائل البدويّة، فمالت إلـى التوصّل إلى اتفاق مع الذي بدا لها قائداً لقوة عسكرية منتصرة. كان اكتراث البدو بمُحَمّدٍ كنَّبِيّ قليلاً، بيد أنّ مُحَمّداً المحارب المظفر قد استدعى انتباههم واحترامهم.

كما أنَّ دعوى الدعم الإلهيِّ في النّصر رفعت بدورها من هيبة وقوة النَّبِيّ؛ بيد أنَّ هذا التاكيد وسلوك هذه السياسة كانا أمرين محفوفين بالمخاطر، فما إنْ تَحُلَّ الهزيمة حتى يأتي الاستنتاج الطبيعي بأنَّ الله قد تخلى عنه. وهذا ما حصل لاحقاً.

فبعد حاولي السنة من معركة بَدْر، كانت قُرَيْش متألمة من وطأة الهزيمة ولكن عازمة على القيام بجهود جبَّارة لقهر عدوها. في ربيع سنة ٦٢٥ م. حشد المكِّيون جيشاً كبيراً نسبياً وتقدموا نحو المدينة. كان السبب المباشر لحملتهم استمرار مُحَمّد في عمليات السلب، وشعور تجار مَكّة أن تجارتهم في خطر شديد. لما غدا الطريق الغربي الاعتيادي باتجاه سوريا غيـرَ آمنٍ، قاموا بإرسال قافلة غنية سالكين الطريق الشرقي.

وصلت أنباء تغيير الطريق مُحَمّداً فأرسل على الفور سرية مؤلَّفة من مئـة فـارس لمطاردة القافلة. كانت الغارة ناجحة وجُلبت البضائع المسلوبة وكلُّ من سار في القافلـة إلـى المدينة. بات واضحاً الآن أنَّ المسلمين لم يكونوا راغبين بالسلام، أو أنّه لـم يعـد بالوسـع السيطرة على حب العرب للسلب. لقد أُجبر المَكّيون على القتال حفاظاً على وجودهم كمجتمع تجاري وصوناً لحرية القيام بعملهم اليومي، فكان زحفهم مبرّراً تماماً.

---

[١٨٢] **أبو عَفَك**، يهودي من بني **عمرو بن عوف**، رُوي أنَّه كان يحرّض على مُحَمّد شعراً. أُغتيل على يد سالم بن عمير في عشرين شهراً للهجرة. ويبدو أنَّ الأمرَ التبس على المؤلّف فظن إن ابن عوف غير أبي عَفَك ـ **المترجم**.

كان السبب المباشر لمعركة بَدْر محاولة مُحَمّد الاستيلاء على قافلة؛ أما سبب معركة أُحُدْ فكان نجاحه في الاستيلاء على أخرى. رَغِب مُحَمّد بحكمة في اعتماد موقف دفاعي، بيد أنَّ أتباعه الأصغر سناً والأشدّ حماساً لم يجاروه على أمره؛ كانت حجّتهم أنَّ القبائل البدويّة، وقد بدأت الآن تتأثر بهالة قوته، سوف تعتبر اعتماده موقفاً دفاعيّاً على أنّه عمل جبان، كما أنَّ الشك سيلقي بظلاله على دعاويه السابقة بأنَّ القوة العليا تساعده في لحظات الخطر. لقد كان استعماله المتكرر لهذه القوة العليا كبرهان على الطبيعة الإلهيّة لرسالته حاجزاً أمام أي تصرف يتضمن الريبة في طياته، فيكون مشئوماً على هيبته. سلَّم مُحَمّد بالأمر ووافق على مقاتلة قُرَيْش، قائلاً لأتباعه بأنَّ الله سينصرهم إنْ صبروا.

جرت مناوشات متفرقة وعديدة بين الجانبين، بيد أنَّه، عندما التحم الفريقان، لحقت بالقوات الإسْلاميّة هزيمة منكرة. جرح النَّبيّ في أُحُد جرحاً بليغاً وهذا ما جعله غاضباً حيث قال: « كيف يُفلح قوْمٌ خضبوا وجه نَبِيّهم، وهو يدعوهم إلى ربهم! ».[١٨٣] أرضى نصر أُحُد قُرَيْش ولم تتابع نجاحها وتقدمها، بل انسحبت إلى مَكّة.[١٨٤] وبهذا انتهت معركة أُحُد.

رفع الحديث مرتبة المسلمين الذين سقطوا في هذه المعركة إلى شهداء؛ بيد أنّ التأثير المباشر لهذه الهزيمة كان كارثيّاً.[١٨٥] لقد جُعِل النَّصر في بَدْر مناسبة لادعاء عظيم بالعون الإلهيّ بحيث أنّ هذه الهزيمة في أُحُد قادت طبيعيَّاً إلى فكرة أن الله تخلّى الآن عن القضية. وقد استغلَّ اليهود ببراعةً هذه الحَجّة قائلين: « مَا مُحَمّد إلاَّ طَالِبُ **مُلْكٍ** مَا أُصيبَ هَكذا **نَبِيّ** قَطّ، أَصيب في بَدَنِه، وأُصِيبَ في أصْحَابِهِ ».[١٨٦] لقد تطلبت مواجهة اعتراض اليهود كل

---

[١٨٣] الواقدي، استشهد به موير في (*Life of Mahomet*, vol. iii, p. 175).

[١٨٤] يقول مولوي مُحَمّد علي في تفسيره (ص ١٨٥) بصدد الآية (ثُمَّ أنزَل عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الغَمِّ نُعَاساً) (سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ ١٥٤/٣). وحيث يترجم (**نُعَاساً**) بـ « سكوناً »، ذلك أن العدو انسحب والمسلمين لم يهزموا فعلياً. بيد أنَّ الانسحاب ليس بسبب من الشك في قوتهم، أو الخوف. إذ كان المَكّيّون راضين عندما رأوا أن بوسعهم الدفاع عن قوافلهم. وهذا ما جرى، فلم تكن بهم رغبة بمعاقبة المسلمين أكثر. ثم إن المَكّيّين ـ حسب الواقدي ـ سمعوا بأن مُحَمّداً قد قُتِل ولهذا قالوا: « مادام مُحَمّد قد قتل، فلنرجع إلى ديارنا ». لقد عادوا لأن هدفهم بالنصر العظيم قد تحقق.

[١٨٥] لقد انتهز القرشيون فرصة روح اليأس فحاولوا إغراء المسلمين بالارتداد عن إيمانهم بالنَّبِيّ بيد أنَّه كان قادراً تماماً على معالجة الموقف: ـ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ! إِنْ تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ) سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (١٤٩/٣).

يقول حسين بأنَّ المنافقين هم الذين قالوا للمسلمين الصادقين بأنَّ زمن النَّبِيّ قد ولّى، وأنَّ الكفار قد استردوا القوة مجدداً، وبأنّ عليهم أن يعودوا إلى ديانتهم القديمة.

منافقان مومنانرا مى گفتند كۀ اين زمان پيغمبر كشتۀ شد ورايت دولت كفار استيلا يافت شمارا ديگرباره بدين خود رجوع با يد كرد. **تفسير الحسيني**، ص ٧٥.

ويشير البيضاوي إلى المنافقين الذين قالوا: ـ « **ارجعوا إلى إخوانكم ولو كان مُحَمّد نَبِيّاً لما قُتل** ». المجلد ١، ص ١٧٩.

[١٨٦] الواقدي، استشهاد أورد موير في (*Life of Mahomet*, vol. iii, p. 189.).

مهارة وبراعة النَّبِيّ، وكذلك حاجته لإزالة الشك الكامن في أذهان بعض من أتباعه. وقد قـام مُحَمّد بذلك عبر إنتاجٍ شديدِ البراعة لآيات تشرح أنَّ الهزيمة في أُحُـد عائـدة جزئيّـاً إلـى خلافاتهم الدّاخليّة، وجزئيّاً إلى عصيانهم الأوامر ورغبتهم في السّلامة الشّخصيّة. وعلى هـذا قال: ــ

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ، إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ **وَتَنَـازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ**[187] **وَعَصَيْتُم**، مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ. مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ.[188] ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَـنهُمْ لِيَبْتَلِـيَكُمْ ﴾ سُـورَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٥٢).

وقيل أيضاً إنَّ الهزيمة كانت اختباراً لإخلاصهم وصدق إيمانهم. نقرأ:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ، فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُـهُ.[189] وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُـهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِـبُّ الظَّالِمِينَ.[190]
وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَـقَ الْكَـافِرِينَ ﴾ سُـورَةُ آلِ عِمْـرانَ (٣/١٤٠ ــ ١٤١).
﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ. وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ ﴾ سُورَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٦٦ ــ ١٦٧).[191]

وفيما تعلق بسخرية اليهود المهينة، فإنَّ وحياً جاءَ يُظهر أنَّ الأَنبِيَاءَ الآخرين قد عانوا النكسات وأن مُحَمّداً ليس استثناءً لهذه القاعدة: ــ

[187] في **خلاصة التَّفاسير**، المجلد ١، ص ٣١١ : حكم رسول كى يا حكم سرداركى عبد الله بن جبير. أمر النَّبِيّ أو أمر القائد عبدُ الله بنِ جُبَيْرِ ».
[188] يقول البيضاوي: « منكم من يريد الدنيا وهم التاركون المركز للغنيمة، ومنكم من يريد الآخرة وهم الثابتون محافظة على أمر الرسول ». المجلد ١، ص ١٨٠.
[189] يشرحها البيضاوي بالنحو التّالي: « والمعنى إنْ أصابوا منكم يوم أُحُد فقد أصبتم منهم يوم بَدْر ». المجلد ١، ص ١٧٧.
[190] يقول البيضاوي: « إنَّه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاءً للمؤمنين ». المجلد ١، ص ١٧٧.
[191] يشرح البيضاوي هذه الآية: « الجمعان جمع المسلمين وجمع المشركين يريد يوم أُحُد... وليعلم الذين نافقوا وليتميز المؤمنون والمنافقون فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء ». المجلد ١، ص ١٨٣.

﴿ وَمَا مُحَمّد إِلاَّ رَسُولٌ: قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِن مَّاتَ، أَوْ قُتِلَ، انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا؛ وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ.
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله، كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾[١٩٢] سُورَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٤٤ ــ ١٤٥).
﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَبِيّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[١٩٣] كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله، وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ سُورَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٤٦).

كما قُدمت عقيدة القَدَريّة وتأثير القوة الشّيطانيّة بوصفها شرحاً: ــ

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ سُورَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٦٠).

---

[١٩٢] تشير هاتان الآيتان إلى موت مُحَمّد المفترض في معركة أُحُد، والحَجّة هي أنَّه حتّى لو كان ذلك قد جرى فعلاً، فإنَّه لا يجب عليهم ترك الإسْلام. لقد رحل أَنبِيَاء آخرون، بيد أنَّ أديانهم قائمة. ويروي أهل الحديث أنَّه عندما سقط مُحَمّد إلى الأرض جريحاً، صرخ مؤمنٌ [ثَابِتُ بنُ الدّحْدَاحَة، **م.**] « إنْ كانَ مُحَمّد قد قُتِلَ، فإنَّ الله حَيٌّ لا يَمُوتُ، فقَاتِلُوا عنْ دِينَكُم ». بيد أنَّ المنافقين قالوا، « إن مُحَمّداً قد قُتِلَ، فَارْجِعوا إلى قَوْمِكُم؛ فإنّهم دَاخلُوا البيُوت » (الواقدي، استشهد به موير). ويقول البيضاوي بأن مُصْعَبَ بن عُمَيْر قتل على يد ابْن قَمِئَة، الذي حسب بأنه قتل النَّبِيّ، فقال: « قد قتلت مُحَمّداً »، وعندها بدأ أتباعه بالهرب، حتّى جاء نداء من النَّبِيّ، قائلاً: « يا عباد الله إليَّ ».

بعض المنافقين قال: « لو كان نَبِيّاً ما قُتل، عودا إلى إخوانكم وديانتكم ». انظر ملاحظة عبد القادر على ترجمة هاتيْن الآيتيْن القُرآنيتيْن، كذلك **تفسير الحسيني**، المجلد، ١، ص ٨٥.

عندما مات مُحَمّد، فإنَّ كثيرين لم يكونوا قادرين على تصديق ذلك، ويُروى أنَّ أبا بكر استشهد حينئذٍ بهاتين الآيتيْن لإقناع عُمَرَ [بن الخطّاب، **م.**] وآخرين بأن النَّبِيّ قد مات حقاً. ويقول بعضهم إنَّ أبا بكر هو من ألّفهما من أجل هذه الغاية، وفيما بعد وضعهما في القُرْآن. وهذا غير محتمل البتة.

[١٩٣] الترجمة الإنجليزيّة الواردة في النص لـ (ربيّون) هي جمع كثير، بيد أنَّ الكلمة تترجم أيضاً بعالم، رجل ورع، حبر، والنَّص العربي (**وَكَأَيِّن مِّن نَبِيّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**). يترجم المفسر المحدث هذه الآية بـ: بسا پيغامبركۀ قتال كردند كفار همراۀ او خدا پرستان بسيار . أي: « قتل النَّبِيّ عدداً من الكافرين وكان معه تقاة كثر ».

يقول عبد الله بن عباس بأن (**رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**) تعني **(جموع كثير)**. ويقول حسين بأنَّ الكلمات تعني (سپاه فراوان) ـ أيْ « قوة موفورة ».

ولدى **خلاصة التفاسير** « كان ثمة أَنبِيَاء قبل مُحَمّد، الذين قاتل معهم رجال أتقياء (أي ساعدوهم) ». المجلد ١، ص ٣٠٨.

آب سے پہلے بيغمبر گذرے جن كى ساتهى إلّه والى لزتى

ويقرأ القرّاء ابن كثير، نافع، أبو عمرو، ويعقوب **(قُتِل)** بدلاً من **(قَاتَل)**. ويقول البيضاوي بأن **(قُتِل)** ربما مسندة إلى رِبِّيُّونَ أو إلى ضمير النَّبِيّ. وإذا ما تمَّ تبني هذه القراءة التي يقدمها البيضاوي فإنَّ المعنى يكون في الحالة الأولى؛ « كأين من نَبِيّ قُتل عندما كان معه رجال تقاة »؛ وفي الحالة الثانية « كأين من نَبِيّ معه رِبِّيُّونَ قُتلوا ». إذاً، يبدو أنَّ معنى هذه الآية ليس فكرة نَبِيّ يقاتل ضد آلاف، بل رجال تقاة يقاتلون إلى جانب النَّبِيّ ويقتلون العدو، أو يُقتلون معه، أو إنه يُقتل بينما هم معه.

يفسِّرها البيضاوي قائلاً بأنّه إنْ ينصركم الله كما نصركم يوم بَدْر فلا أحد يغلبكم؛ وإنْ يخذلكم كما خذلكم يوم أُحُد فلا ناصر لكم.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله، كِتَابًا مُّؤَجَّلاً.[١٩٤]
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٤٥، ١٥٥).[١٩٥]
﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ سُوْرَةُ الحَدِيْدِ (٥٧/٢٢).[١٩٦]

أما أولئك الذين قُتِلوا فقد حازوا على أجر عظيم، وهم الآن شهداء، ينعمون في العوالم العلويّة: ـــ

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ.[١٩٧]
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ، أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ.

[١٩٤] يقول راوٍ بأنّه لما صاح الشيطان الذي تلبس هيئة بشريّة: « ‹ إنَّ مُحَمّداً قُتِلَ › سَقطَ في أيْدي المُسلمين وتَفرّقوا في كلِّ وَجْهٍ ». **تاريخ الواقدي**، ص ٢٣٩.
[١٩٥] يقول البيضاوي: « اقترفوا ذنوباً لمخالفة النَّبِيّ بترك المركز والحرص على الغنيمة ». المجلد ١، ص ١٨١.
[١٩٦] يرى نِلدِكه أنَّ هذه الآية تنزّلت في فترة كان فيها مُحَمّد في كربٍ وهذا ما قاده إلى تقديم سُوْرَة كاملة بعد معركة أُحُد. ولا يعطي المفسرون المسلمون سبباً خاصاً للآية، بل يعطون لها معنى عاماً. ويقول حسين بأنّها تشير إلى المجاعة، خسارة الملكيّة، المرض والفقر، وإلى كلّ ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ. (**تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٣٨١). بيد أنَّ موضوع السُّوْرَة هو إذكاء أوار حماسة المؤمنين وطاقتهم. إنَّ الله هو العزيز الحَكِيم: الأَوَّلُ والآخِرُ: الظّاهر والبَاطن وهُو بكُلِّ شَيءٍ عليمٌ؛ ويعد الصديقين والشهداء أجرهم، وينذر الذين كفروا وكذّبوا بالجحيم. وهي تلائم أكثر فترة غم وقلق مثل تلك التي أعقبت هزيمة أُحُد.
[١٩٧] ثمة أوصاف مدهشة في الأحاديث بصدد سعادة الشهداء في الجنّة حيث يُروى أنّ النَّبِيّ قال عنهم:

جب مؤمنين احد مين شهيد هوے اللہ تعالى كى اون كى روح سبز جزيون كى بدنون سين كردى جو جنت كى نهرون اور ميوون سى كهاتى بيتى هين

« عندما استشهد الذين آمنوا في أُحُد فإنَّ الله تعالى قد وضع أرواحهم في أجسام طيور خضر، تأكل وتشرب من فواكه وأنهار الجنة ». **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.
ويروي الترمذي حديثاً مشابهاً، « إنَّ أرْوَاح الشُّهَدَاءِ في طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرة الْجَنَّة أَو شَجَر الْجَنَّةِ ». **جامع الترمذي** (طبعة ١٩٠٣)، المجلد ٢، ص ٣٤١.
ويقول المفسر معالم إنَّ هذه الآية تشير إلى الرجال الذين سقطوا في بَدْر، وليس إلى شهداء أُحُد. ويقول البيضاوي: « نزلت في شهداء أُحُد وقيل في شهداء بَدْر والخطاب لرسول الله أو لكلِّ أحد ». المجلد ١، ص ١٨٤.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ، وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُــؤْمِنِينَ ﴾ سُورَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٦٩ ــ ١٧١).

ثمة آية غامضة بعض الشيء في نهاية السُّوْرَةِ الثالثةِ قد يكون القصد منها تبيان أنَّه، رغم أنَّ المَكّيّين يتمتعون بحرية كافية تسمح لهم بمزوالة التّجارة وقد أصبحوا مستقلين عموماً بعد معركة أُحُد، إلاّ أنّه يتوجب على النَّبِيّ أنْ لا يَهِن أو يضل بعد هذه الهزيمة: ــ

﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ.
مَتَاعٌ قَلِيلٌ. ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ سُورَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٩٦ ــ ١٩٧).[١٩٨]

يبدو واضحاً أنَّ هزيمة المسلمين في أُحُد كانت تامة بحيث كــان بمقــدور العــرب الوثنيين بعدها العيش بطمأنينة والمضي في أعمالهم المعتادة دون خوف، وهــذا مــا أوهــن عزيمة مُحَمّدٍ وأتباعه، فكان هذا الوحي بثاً للشجاعة فيهم.

تناولت سُوْرَةَ آلِ عِمْرانَ[١٩٩] موضوعَ هزيمة أُحُد بشكلٍ كبير مظهرة كم كان النَّبِــيّ يشعر بوطأة الأزمة، ومدى معاناته من أجل تجنب الخطر الذي يمكن أن تُحْدِثه هذه الهزيمــة في المدينة نفسها. كما أنّها لمثال جدير بالملاحظة على الطريقة التي تنزّلــت بهــا الآيــات الملائمة في الوقت المناسب من أجل تأييد ومؤازرة النّاس، وقد وهنوا أمام تقلُّب ظروفهم نحو الأسوإ. ومن الواضح أنَّ النَّبِيّ نفسه قد صار مفعماً بالأمل ثانيةً، إذ سرعان ما قــام بتــوبيخ الذين ولــّوا الأدبار عن الأعداء في أُحُد،[٢٠٠] وتحدث بثقة عن النصر التام والكامل للإِسْــلام الذي سيكون الدين العالمي الأول والوحيد: ــ

[١٩٨] يقول المفسر عبد الله بن عباس بأنَّ (تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ) تعنى « ذهاب اليهود والمشركين في تجارة ».

ويقول المفسر حسين: « لا يخدعنك ذهاب ومجيء المشركين في بلادهم للتجارة » ـ بايد كهٔ فريب ندهد ترا رفتن وآمدن كافران در شهرها براى تجارت. (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٩٥).

ويقول البيضاوي: « لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السّعة والحظّ ولا تغترْ بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم ». المجلد ١، ص ١٩٢.

[١٩٩] كان النَّبِيّ يقيم هذه السُّوْرَة عالياً، ويروى أنّه قال: « من قرأ سُوْرَةَ آلِ عِمْرانَ أُعطى بكلِّ آيةٍ منها أماناً على جسر جهنم ». وقال: « من قرأ السُّوْرَةَ التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تجب الشمس ». البيضاوي، المجلد ١، ص ١٩٣.

[٢٠٠] سُوْرَةُ الصَّفِّ (٦١/٢ ـ ٤).

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[٢٠١] سُوْرَةُ الصَّفِّ (٩/٦١).

وردت الخلاصة النّهائيّة للموضوع في الآية التي يشرحها المفسر حسين على أنَّها تشير إلى الحروب والأزمات: ـــ[٢٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ! اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ، وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/٢٠٠).

كانت نتيجة تعليلات النَّبِيّ هذه أنَّ الهزيمة لم تفقده ولو مهتدٍ واحد ولم تلحق الأذى بسمعته.

بعد معركة أُحُد[٢٠٣] افترق العدوّان على تهديد متبادل، متواعدين السنة التالية في بَدْر. ومع دنو الموعد، بدأت قُرَيْش تحشد قوة كبيرة تنفيذاً للاتفاق، بيد أنَّ قحطاً قاسياً أعاد هذه القوات إلى مَكّة؛ ولما وصل مُحَمّدٌ برجاله ولم يجدوا العدوَّ، مكثوا في بَدْر ثمانية أيامٍ اشتروا وباعوا فيها البضائع بربح كبير. استدعت هذه النّهاية السّعيدة لما أمكن أن يكون معركةً خطيرةً ودمويةً تنزيلاً خاصّاً: ـــ

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ،[٢٠٤] لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ؛

---

[٢٠١] يشرح المفسر حسين العبارة الأخيرة على أنّها تعني أنَّ النّجاح الكامل للإِسْلام سيتزامن مع المجيء الثاني ليسوع المسيح.

تا غالب گرداند دين را بۀ همۀ كيش وصلت بوقت نزول عيسى كۀ همۀ اهل زمين دين اسلام قبول كنند

« أَنّ هذا الدين سيغلب كلَّ الأديان والملـّل لدى نزول المسيح، حيث سيعتنق كلُّ النّاسِ في العالم الإِسْلام ». **تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٤٠٠.

ويقول كاتب آخر: ـ اِس آيت مين اشارة هى كة اسلام ناسخ اديان هى

« تظهر هذه الآية بأَنَّ الإِسْلام نسخ كلَّ الأديان ». **خلاصة التفاسير**، المجلد ٤، ص ٤٣٢.

ويقول البيضاوي بأَنَّها تعني « ليغلّبه على جميع الأديان ». المجلد ٢، ص ٣٣١.

[٢٠٢] يمكن أنْ تشيرَ إلى مخالفة الهوى. بيد أنَّ كلا التفسيرين أُعطيا من قِبل البيضاوي، وابن عباس ومفسرين آخرين. إلاّ أنّ التّأويل الحربيّ قدمه الجميع، كون الآية جاءَت في سُوْرَة معنية للغاية بمعركة أُحُد، وهذا هو التفسير الأرجح.

[٢٠٣] يقترح بعض المسلمين الآن حلفاً بين اليهود والمسيحيين، لكن هذا الوحي أتى لاحقاً ولم يكن قد عُقد من حلف قط: ـ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ، لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء. بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ. وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ الله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥/٥١).

وهي تتعارض مع الآية الثامنة والأربعين من نفس السُّوْرَة: ـ

(وَلَوْ شَاء الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم)

انظر كذلك ملاحظة ويري على هذه الآية، المجلد ٢، ص ١٣٧.

[٢٠٤] أي هزيمة أُحُد.

الَّذِينَ، قَالَ لَهُمُ النَّاسُ، « إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ »، فَـزَادَهُمْ إِيمَاناً، وَقَالُواْ: « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ».
فَانقَلَبُواْ[٢٠٥] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ،[٢٠٦] لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ؛ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللهِ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ.[٢٠٧]
إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ[٢٠٨] يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلاَ تَخَافُوهُمْ، وَخَـافُونِ إِن كُنـتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٧٢ ــ ١٧٥).

توالت بعد تلك الواقعة سرايا أخرى ضد بعض القبائل، دون أن يكون لأيٍّ منها أثـر مميز، باستثناء واحدة، تأسس فيها قانون الصّلاة في أزمنة الخطر ــ « صلاة الخَوْفِ »؛ قسم من الجيش يراقب بينما الآخر يصلي.[٢٠٩] لقد صار القُرْآن الآن وسيلة إعلاميّة تعلن الأخبـار الحربيّة والأوامر العسكرية ــ وكلها رسائل الله المباشرة ــ.

كما تنزلت، في بعض الأحيان، آيات تبرِّر تصرفات النَّبِيّ في حياته العائليّة. والآيات المرتبطة بالأحداث الجارية خلال هذه الفترة في المدينة مفيدة كأمثلة توضيحية، ومن الملائـم إيرادها هنا، رغم أنّها حصلت في فترة زمنية لاحقة، في سنة ٦٢٦ م، وبعد معركـة أُحُـد. تمضي القصة لتقول إنَّ مُحَمّداً، وبينما كان في زيارة إلى بيت زيد، ابنه بالتبني، بُهِر بجمـال زوجته زينب. عرض زيـدٌ عليه أنْ يطلقها، بيد أنّ مُحَمّداً قال له: « امسك عليكَ زوجـك، واتق اللهِ »، باشر زيد الطّلاق، ومن التوبيخ الواردِ في الآية السادسة والثلاثين مـن سُـوْرَةِ الأَحْزَابِ (٣٣) ظهر وكأنّ مُحَمّداً كان يشك في لياقة تصرفه. اعتبر العرب زواج رجل مـن زوجة ابنه بالتبني، حتى ولو كانت مطلقة، فعلاً أثيماً إلى حد بعيد. تزوج مُحَمّد زينب، وقـد اضطر لتسويغ تصرفه بالادعاء أنَّ لديه مصادقةَ الله المباشرة على فعلته هـذه. كـان مـن الضروري إظهار أنَّ الله لم يوافق على الاعتراض العام بالزواج من زوجات الأبناء بالتبني، فكان الوحي بذلك: ــ

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ سُوْرَةُ الأَحْزَابِ (٣٣/٤).

---

٢٠٥ من بَدْر.
٢٠٦ حسب البيضاوي « رجعوا بفضل وربح في التّجارة، لأنّهم لما أتوا بَدْراً وأوفوا بها سوقاً فاتجروا وربحوا ». البيضاوي، المجلد ١، ص ١٧٥.
٢٠٧ « قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان، والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب في الدّين وإظهار الجرأَة على العدو ». البيضاوي، المجلد ١، ص ١٧٥.
٢٠٨ ثمّة بعض الشك بخصوص على من ينطبق المصطلح. إنّ المفسرَيْن ابن عباس والبيضاوي يريان أنّه نعيم الذي سعى لتخويف المسلمين من الخروج، أو أبو سفيان زعيم قُرَيْش.
٢٠٩ سُوْرَةُ النِّسَاءِ (٤/١٠١ ـ ١٠٢). ولوصف أكثر لهذه الصلاة، انظر سِل *Faith of Islam* (4th ed.), p. 380. [وقد شُرِّعت صلاة الخوف في غزوةِ ذاتِ الرِّقاع، سنة ٤ هجرية. ـ **المترجم**]

تبعاً للعادات والأعراف العربيّة، كان زيد بالنسبة لمُحَمّد « بمثابة ابنه »، بيد أنَّ هذه النظرة نُحِّيت جانباً في الإسْلام بأمر إلهيٍّ. وإذ ثبَّت أسس المبدأ العام، كان الطريـــق ميســـراً لمُحَمّد ليتصرف في هذه الحالة الخاصّة، دون أي اكتراث لرأي عامة العرب. يمضي الوحي ليقول: ــ

﴿ وَإِذْ تَقُولُ (يعني مُحَمّد) لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ[٢١٠] وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ (يعنـــي زيد)،[٢١١] « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ »؛ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ؛[٢١٢] وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ. فَلَمَّا قَضَى زَيْـــدٌ مِّنْهَـــا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا، لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً.
مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَـــهُ ﴾ سُـــوْرَةُ الأَحْـــزَابِ (٣٣/٣٧ ــ ٣٨).

إنَّ تليين القانون الأخلاقي هذا لفائدة مُحَمّد، كونه نَبِيّاً، يظهر كم أضحى الانفصال بين الدين والأخلاق سهلاً في الإسْلام.

ثمّة صعوبة أخرى كمنت في أنَّ زينب بنت جحش كانت ابنة أُميمة، عمَّة مُحَمّد وبنت عبد المطلب.[٢١٣] غير أنَّ وحياً جديداً منح النَّبِيّ امتيازاً خاصاً ومميزاً، ولم يكن ليشمل أتباعه، فأزال الصعوبة: ــ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيّ، إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ.[٢١٤] مِمَّا أَفَاء اللهُ عَلَيْكَ، وَبَنَاتِ[٢١٥] عَمِّـــكَ وَبَنَاتِ عَمَّـــاتِكَ وَبَنَاتِ

---

[٢١٠] في إجازته أن يصبح مسلماً.
[٢١١] في أخذه بمثابة ابن. وقد كان يُدعى زيد بن مُحَمّد، والآن قد أُعيد إلى اسمه القديم زيد بن حارثة.
[٢١٢] في **تفسير الحسيني**، و**صحيح البخاري**، ينص على أنَّ (مَا اللهُ مُبْدِيهِ)، تشير إلى واقعة أن زينب ستصبح زوجة مُحَمّدٍ، وأنّ عبارة (وَتَخْشَى النَّاسَ) تحيل إلى الخوف الذي شعر به مُحَمّد لدى خرقه العادة التي كان لها الاعتبار لدى العرب؛ والتي كانت تمنع العرب من التزوج من زوجات أبنائهم بالتبني. ويقول صحيح البخاري: « إنّ هذه الآية (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ) نزلت في شأن زينب بنت جَحش وزيد بن حارثَةَ ». **صحيح البخاري**، المجلد ٣، ص ٣١٢.
يقول حسين:
وَتُخْفِى فى نَفْسِكَ و پنهان ميكردى در نفس خود ماَ الَّهُ مُبْدِيْهِ آنچه خدا پيدا كنندهٔ آن است يعنى آنرا كهٔ زينب داخل ازواج طيبات تو خواهد بود و تَخْشَى النَّاسَ وبترسيدى از سرزنش مردم كهٔ گويد زن پسر خواندهٔ را بخواست
« وما تخفيه نفسِك يجعله الله جليّاً، وإنّه يجب على زينب أنْ تنضم إلى جماعة الزوجات الطيبات، ولا تخشَ لوم الناس الذين قالوا: ‹ لقد طلب زوجة ابن بالتبني › ». **تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٢٠١.
[٢١٣] البيضاوي، المجلد ٢، ص ١٢٩.

خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ (من مَكّة)، وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً[216] إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَبِيّ، إِنْ أَرَادَ النَّبِيّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ــ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ سُوْرَةُ الأَحْزَابِ (٥٠/٣٣).

لم تشجّع زينب ولا زوجها طلب النَّبِيّ، فعُنّفا بقسوة بأمرٍ إلهيٍّ مزعوم في التنزيل: ــ

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ، وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ؛ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً ﴾ سُوْرَةُ الأَحْزَابِ (٣٦/٣٣).[217]

سويت القضية على هذا النحو، وأُعلن زواج مُحَمّدٍ على زينب قانونيّاً وشرعيّاً. ولم يعد اسم زيد يذكر على أنّه زيد بن مُحَمّدٍ بل زيد بن حارثة.

تضم هذه السُّوْرَة نفسها الآية (٥٢) التي تحرّم على مُحَمّدٍ زيادة عدد زوجاته التسعة اللاَّئي لديه، لكنها تسمح له بتملك ما شاء من السّراري ــ ﴿ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾،[218] بيد أنّنا لا نحتاج إلى البحث في هذا الموضوع. ونجد في الآية الثالثة من سُوْرَةِ النِّسَاءِ (٤) تحديداً

---

[214] إنَّ الإشارة إلى الإماء تحدد تاريخ هذه الآية بعد مجزرة بني قُرَيْظَة (٦٢٧ م)، عندما أُخذت ريحانة، أول مسترقة ـ محظيةً. وهذا متأخر عن قضية زينب (٦٢٦ م) وقد قصد بها تسويغ ما حدث.

[215] إنَّ هذا يرفع القيد عن النَّبِيّ والموضوع على المسلمين الآخرين في سُوْرَةِ النِّسَاءِ (٢٣/٤) التي حرمت الزواج من الأقارب الأقرب.

[216] يشير حسين إلى زينب وفي تعليقه على (وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ) يشرحها بـ ـ دختران عمهاى تو از اولاد عبد المطلب ـ « بناتك عَمَّاتِك إحدى أولاد عبد المطلب ». المجلد ٢، ص ٢٠٤.

[217] إنَّ المفسرين مجمعون على أنَّ هذه الآية تشير إلى زيد وزينب. وعلى هذا: ـ

ترمزى اور معالم اور دوسرى تفاسير مين مروى هے كة آيت زينب كى حق ميں نازل هوى

« يروى في شروحات التزمذي ومعالم وآخرين بأنَّ هذه الآية نزلت بخصوص زينب ». **خلاصة التفاسير**، المجلد ٣، ص ٥٥٩.

ويقول عبد الله بن عباس: « لِمُؤْمِنٍ زيد، ولاَ مُؤْمِنَةٍ زينب ». **تفسير ابن عباس،** ص ٤٨٤.

ويروي البيضاوي إنّها نزلت في زينب بنت جحش.

ويقول حسين أيضاً بأنّ الإشارةَ إلى زينب. **تفسير الحسيني،** المجلد ٢، ص ٢٠١.

وبصدد عبارة (وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ) يظهر هذا النَّص المهم تساوي رتبة السنة والقُرْآن:ـ

وَمَنْ يَعْص الله وَرَسُولَهُ: وهركۀ عامى شود ومخالفت كند خداى تعالى ورسول اورا يا از حكم كتاب وسنت بكذرد

« وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ، والذي يحيد عن أمر الكتاب (القُرْآن) والسنة ». المجلد ٢، ص ٢٠٧.

[218] سُوْرَةُ الأَحْزَابِ (٥٢/٣٣) ويروى أنها منسوخة بالآية السابقة. انظر ملاحظة سِل على هذه الآية و**خلاصة التفاسير**، المجلد ٣، ص ٥٧٨؛ بيد أنَّ الأخير لا يقدم مرجعية للتصريح الذي يقدمه، وبالتالي فإنَّ النسخ محل شك.

بأربع زوجات لعامة المسلمين علاوة على الإماء، وقد تنزّلت هذه الآية حوالي السنة الرّابعة أو الخامسة للهجرة، وقبل النَّص الذي حدّد زوجات النَّبِيّ بتسع.

خلال تلك الفترة تقريباً، قام مُحَمّدٌ بحملة صغيرة ضد قبيلة عربيّة، بني المُصْطَلِق؛ الحدث ذو الشأن هنا تسببت به فضحية عائشة، التي كانت ترافق زوجها، وهذا ما قاد إلى وحي خاص. لقد تخلّفت عائشة عن المسير ثم وصلت في النهاية بحراسة شاب يُدعى صَفْوانُ بنُ المُعَطِّلِ [السُّلَميّ، م.] وكان عُذرها أنها تخلَّفت من أجل البحث عن عقدها. تفوه مروجو الإشاعات بملاحظات مسيئة فجاءت الآية التالية: ـــ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ سُورَةُ النُّورِ (١١/٢٤).

يقول المفسرون حسين وابن عباس وكذلك البيضاوي إِنَّ الآية تشير إلى عائشة. وقد قدمت الحادثة دفعة لهذه السُّوْرَة التي أُلقيت بعد العودة إلى المدينة، وتصوغ، مع الآية التاسعة عشرة من سُوْرَةِ النِّسَاءِ (٤)، شجب النَّبِيّ للزنى، وتقدم القانون بصدده. ثمة حديث تناول ما قاله الخليفة عمر [بن الخطاب، م.] إِنَّ الرّجمَ كان العقاب في الأصل، غير أنّه أُلغي في سُوْرَةِ النُّورِ (٢/٢٤ ـــ ٥). على أي حال، لم تدرج « آية الرجم » في تدوين زيد للقُرْآن.

في فترة لاحقة، في السنة الثامنة أو التاسعة للهجرة، نجد وحياً آخَر مرتبط بشأن عائلي. كان حاكم مصر الرّوماني قد أهدى مُحَمّداً جاريةً قبطيّةً ذات جمال فائق، أنجبت بمضي الزمن ولداً سُمي إبراهيم. أثار هذا الأمر أشدّ الحسد وسط زوجات مُحَمّد. كما أنَّ مُحَمّد غضب لأن زوجه حفصة قامت بمكاشفة زوجة أخرى وهي عائشة بفعل مخجلٍ كان قد أوصاها بحزمٍ إبقاءّه سراً. تصاعد الاضطراب العائلي فكان على مُحَمّد أن يحوز على المصادقة الإلهية على تصرفه مع ماريا القبطية.[٢١٩] لقد أجاز النَّصّ التّالي تصرفه، وأحلَّه من القَسَم الذي أخذه على نفسه لإرضاء وتهدئة زوجاته: ـــ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيّ! لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ، تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.
قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ، وَاللهُ مَوْلاَكُمْ ﴾ سُوْرَةُ التَّحْرِيمِ (١/٦٦ ـــ ٢).

---

[٢١٩] لمزيد من التفاصيل انظر (*Life of Mahomet*, vol. iv, pp. 152-167; *Tafsir-i-Husaini*, vol. ii, p. 411, and Sell, *The Life of Muhammad*, pp. 201-2.)

في السنة الخامسة للهجرة، ضربت قُرَيْش حصاراً على المدينة. سميت هذه الواقعة بحرب الأحزاب، لعدد قبائل العرب وعدد اليهود الذين قدموا العون للمَكّيّين. كان اليهود يشعرون بيد مُحَمّدٍ الثقيلة عليهم، ورأوا أنَّ فرصتهم الوحيدة في حياة آمنة تكمن في الصداقة مع قُرَيْش أكثر منها مع مُحَمّدٍ. أثار هذا الموقف حفيظة النَّبِيّ وقام بتوبيخهم: ــ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ، « هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً » ﴾ سُوْرَةُ النِّسَاءِ (٥١/٤).

مع تطاول أمد الحصار خارت عزيمة بعض المسلمين. تصف سُوْرَةِ الأَحْزَابِ (٣٣) أهوال الحِصار وتصورها على النحو التالي:

﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ، وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا،
هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ، وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ سُوْرَةُ الأَحْزَابِ (١٠/٣٣ ــ ١١).

بدا مُحَمّدٌ الآن ضعيفاً، لا عونَ له، وشكّك الناس بوعده بالعون الإلهي، ورغبوا بالتراجع عن المواقع الدّفاعيّة من خارج إلى داخل المدينة. فكان وحي مسجل في نفس السُّوْرَةِ ليشدد النكير عليهم، نقرأ: ــ

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ، « مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ».
وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ: « يَا أَهْلَ يَثْرِبَ! لاَ مُقَامَ لَكُمْ؛ فَارْجِعُوا ».
وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيّ، يَقُولُونَ، « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ». وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ! إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً:
قُل، لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ ﴾ سُوْرَةُ الأَحْزَابِ (١٢/٣٣ ــ ١٣، ١٦).

قامت قُرَيْش بشكل مفاجئ بفك الحصار عن المدينة والانسحاب. « كانت هذه أفضل وآخر الفرص التي توافرت للمكّيّين واليهود من أجل تحطيم سلطان مُحَمّدٍ. لقد ضُيعت هذه

الفرصة تماماً لنقص في الشجاعة وأيضاً، وخاصة، لغياب البصيرة عند من كانوا في القيادة ».[220] أرجع مُحَمّدٌ هذا الإنسحاب إلى الله بهدف بث الشجاعة في أتباعه: ـــ

﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ! لَمْ يَنَالُوا خَيْراً ﴾ سُورَةُ الأَحْزَابِ (٢٥/٣٣).

صار موقف مُحَمّدٌ الآن كزعيم جماعة قويّاً، وقد اتخذ موقع التفوق، مطالباً بمركز خاص وقور: ـــ

﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾[221] سُورَةُ النُّورِ (٦٣/٢٤).

لقد هُزِمت قُرَيْشٌ على أرض المعركة في بَدْر، وفشلت في حصار المدينة، كما أنّ نصر أُحُد لم يُتَابَع. ودان عدد كبير من القبائل العربية بالإِسْلام، إما بالإقناع أو بقوة السيف. وأُضعف اليهود، إما بالجلاء أو بالذبح، حتى العجز. غير أنَّ مَكّة ما زالت تقف وحدها، باعتزاز، بعيداً عن رجل الجَزِيْرة العَرَبِيّة الذي صار فاتحاً وحاكماً. لقد عانى مُحَمّدٌ، لسنوات طوال، من اضطهاد وسخرية القرشيين؛ وقد اقتربت ساعة الحساب. توجه فكر النَّبِيّ صوب المدينة المقدسة، فطالما أنّه لم يبسط نفوذه عليها بعد، فلن يكون الحاكمَ المطلقَ في الجَزِيْرة العَرَبِيّة.[222]

مضت الآن ست سنوات على رحيل مُحَمّدٍ مع أتباعه عن مَكّة، وليس ثمة شك أنَّ الكثير منهم كانوا يرغبون بزيارة الأماكن التي نشؤوا فيها. وكان مُحَمّدٌ قد أعاد، منذ بعض الوقت، وجهة القبلة من بيت المقدس إلى مَكّة، كما أنَّ المسجد الحرام هناك كان مكاناً مقدساً لمسلمي المدينة. كان المسلمون، كلّ يوم من أيام حياتهم، يتوجهون صوبه لأداء الصلاة، رغم بعدهم عنه لست سنوات خلت، وكان الشوق لدخول ساحاته والطواف حول جدرانه عظيماً جداً. توجَّب اعتماد الحذر في تمهيد الطريق وأُنزلت سُوْرَةِ الحَجِّ (٢٢)، أو بعض من آياتها غير المَكّيّة، لهذه الغاية،[223] حيث تم تذكير المَكّيّين بأنّ الكعبة هي لكلّ الناس.

---

[220] Margoliouth, *Mohammed*, p. 326.

[221] إن هذه الفكرة مقتبسة من اليهود انظر رودويل، **القُرْآن**، ص ٥٨٢، الملاحظة ٢.

[222] إن سُوْرَةَ الحَجِّ (٢٢) هي سُوْرَة متبعّضة، والعديد من آياتها تعود إلى الفترة المَكّيّة المتأخرة، بيد أنَّ بعضها تعود لهذه الفترة وتظهر كم كانت فكرة الحَجّ إلى الكعبة تنفذ إلى ذهن النَّبِيّ. وقد كان المَكّيّون ما يزالون مدار تفكير، كونهم ذُموا على سوء سلوكهم فيما يخص الكعبة وقد أُمر مُحَمّد (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجّ) (الآية ٢٧).

[223] الآيات ٢٥ ـ ٣٧؛ ٦٧؛ ٧٧.

« كونه من قبيلة قُرَيْش، شبَّ مُحَمّد على توقيرٍ ورعٍ للكعبة ولِلحَجَر الأسود؛ كان هذا الاحترام في تعارض مع مبادئ ديانته لكنَّه نجح في جَمع الأضّاد من خلال نظريته بأنَّ هذه الطقوس المقدسة أسّسها إبراهيم، وأنَّها قد دُنست بالشرك ».[224] لقد أُعلنت الشعائر الوثنيَّة على أنّها ﴿ شَعَائِرَ اللهِ ﴾ وأنَّ القيام بها يُظهر ﴿ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾،[225] كما أمر بالاستمرار في أضاحي الجِمال. وهكذا أكد مُحَمّدٌ بأنَّ الكعبةَ وجميع شعائرها هي شعائر للإِسْلام، فكانت عملية التبنّي هذه خطوة ذكية زادت من سلطته في تلك الحقبة من الزمن.

عند هذا المفترق التّاريخيّ، حلِم مُحَمّدٌ أنّه وأتباعه يؤدون كافة مناسك الحَجّ، فقرَّ قراره. وإذْ دنا الشهر الحرام الذي تجرى فيه العمرة، أو الحَجّ الأصغر، انطلق عدد غير قليل من الحجاج صوب مَكّة في شهر آذار، ٦٢٨ م. عارضت قُرَيْش دخول الحجيج الى مكَّة، فقام الرسل بالوساطة بين الفريقين.[226] شكَّل موقع المسلمين في الحُدَيبِيَة خطراً نسبياً عليهم، فقام مُحَمّدٌ بجمع أتباعه حوله تحت ظلال شجرة، طالباً منهم البيعة، ولو على المَوْت، وقد أُعطيت هذه البيعة بابتهاج، وسوف يشار فيما بعد دائماً إلى « بيعة الشجرة » بتقدير كبير واحترام. إنَّ هذا الحدث مَثَّل مدهش على إخلاص أتباع النَّبِيّ لشخصه والتعاطف الكبير الذي وُجِد بينهم. وقيل إنَّ اللهَ كان راضٍ عن ذلك: ـــ

---

[224] Nöldeke, *Sketch's from Eastern History*, p. 67.

[225] سُوْرَةُ الحَجِّ: ٣٢/٢٢ ـ **المترجم.**

[226] إنّ الآية التالية حسب بعض المصادر تشير إلى هذا: ـ

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ الله، أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَى فِي خَرَابِهَا. أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ، لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) سُوْرَةُ البَقَرَةِ (١١٤/٢).

إذا كان صحيحاً فإنَّ هذه الآيةَ متأخرةٌ عن السُّوْرَةِ الثانية ويجب أن تكون قد أُدرجت لاحقاً. ويختلف المفسرون. ففي **تفسير الحسيني**، ص ١٩، أنَّ هذه الآية تشير إلى خراب مسجد القدس على يد تيتوس الروماني، وإنّ كلمة مسجد قد استخدمت لها صيغة الجمع عوضاً عن صيغة المفرد للتعظيم. ويقول البيضاوي (المجلد ١، ص ٨٠) بأنّها تشير إلى خراب بيت المقدس على يد الروم، أو إلى منع قُرَيْش مُحَمّد من دخول المسجد الحرام عامة الحُدَيبِيَة. وفي **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٦٤، تُعطى نظرات مختلفة. وإحداها تشير إلى تيتوس، الذي يقال بأنه نصراني (دين نصرانيت قبول كيا)؛ لكنّ النظرة الأخرى تشير إلى رفض قُرَيْش دخول المسلمين مَكّة، والتي قُدمت ببعض الطول. نقرأ: ـ

اى قريش تونے مكة معظمة كى مسجد سى الله كے بيغمبر كو نكالديا اور مؤمنين كو عبادت وذكر خدا سے روكا اور اس سبب سى كة عبادت وذكر كعبيمين موقوف رها تم اس كى ويران اور خراب كرنى مين ساعى تهرى

« أيها القرشيون، لقد ألقيتم نَبِيّ الله عن مسجد مَكّة المكرّمة، ومنعتم المؤمنين من الصّلاة والتّسبيح هناك، وكذلك الصّلاة والتّسبيح في الكعبة أوقف. لقد جهدتم في جعلها مقفرة وخربة ».

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ سُوْرَةُ الفَتْحِ (١٨/٤٨).[٢٢٧]

انتهت المداولات برفض قُرَيْش القاطع لدخولهم مَكّة، بيد أنَّها وافقت علـى الشّـروط التّالية: ـ

« وَضع الحرب على النَّاس عشرَ سنينَ. يَأمْن فيهنَّ النـاسُ، ويكـفُّ بعضُهم عن بعض. على أنَّه من أتى مُحَمّداً من قُرَيْش بغير إذن وليِّـه ردّه عليهم،[٢٢٨] ومن جاء قُرَيْشاً ممن مع مُحَمّد لم يردّوه عليه. وأنّه من أحبّ أن يدخل في عقْد مُحَمّد وعَهْده دَخل فيه، ومن أحبَّ أنْ يدخل في عَقْد قُرَيْش وعهدهم دخل فيه. وأنّه يرجع عن قُرَيْش عامَ هـذا، فـلا يدخل عليهم مكّة، وأنّه إذا كان عام قابل، خرَجوا عنه فدَخلْها بأصحابه، فيقيمَ بهـا ثلاثة أيـامٍ، معه سلاح الـرّاكب، السـيُّوف فـي القُـرُب فحسب ».[٢٢٩]

خاب أمل المسلمين في البدء وشعروا أنَّهم لم يحققوا غاية مجيئهم،[٢٣٠] بيد أنّ مُحَمّـداً سرعان ما أنتج وحياً يُظهر كم أنَّ هذه النّظرة خاطئة، كما يظهر المكتسبات التي تم الحصول

---

[٢٢٧] لقد سُميت (**بيعة الرضوان**). بعد سنوات من محاربة الخوارج لعليٍّ وشيعته، قالت إحدى الفرق بأنَّ عليّاً وطلحة والزّبير في الجّنة، لأنّهم بايعوا تحت الشّجرة.

[٢٢٨] يُشاهد هنا بأنه ليس ثمة تمييز بالجنس وهذا ينطبق على الإناث كما الذكور، لكن ما إنْ عاد النَّبيّ إلى المدينة، حتى جاءه شاب [عُتْبَة بن أُسيد، **م.**] من مَكّة. فطالب وليه به وقد أقرّ مُحَمّد بذلك. وفيما بعد جاءَت امرأة [أمّ كُلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط، **م.**]. فتبعها أخواَها إلى المدينة مطالبين بإعادتها. رفض مُحَمّد الآن تسليم المرآة وأنتج الآية التالية: ـ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ، فَامْتَحِنُوهـُنَّ: الله أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ. فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ؛ فَلاَ تَرْجِعُوهـُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ؛ لاَ هـُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) سُوْرَةُ المُمْتَحِنَةِ (١٠/٦٠).

يقول المفسرون إنَّ (فَامْتَحِنُوهُنَّ) تعني أنْ يُستجوبن عن السبب الفعلي لهربهن، بأنّه ليس ثمّة شيئاً آخر غير رغبتهن في اعتناق الإسْلام، وفي هذه الحالة فحسب فإنّ إبقاءَهن شرعيٌّ. مع أنّ تصرّف النَّبيّ في هذه الحالة كان خرقاً فاضحاً للمعاهدة المعقودة مؤخراً. إنّه لمثال موضح ذي فائدة عظيمة له، للتطبيق العملي لتنزيل القُرْآن على مُنَجَّماً. لقد أُحتاج للشرح، وبصدد الإشارة إلى الشرط الموضوع في معاهدة الحُدَيبِيَة، يقول حسين: « جاء جِبْرِيل وقال: ‹ يا نَبِيّ الله، إنَّ الشرط مطبق على الرجال فقط، ولا يخصّ النساء › » ـ جبرائيل آمد و گفت يا رسول الله آن شرط بر مردها واقع شدۀ نۀ زنها ـ **تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٣٩٧.

[٢٢٩] **روضة الصفا**، الجزء الثاني، المجلد الثاني، ص ٥٠٥ ـ ٥١٤.

[٢٣٠] لقد رُوي أنّ مُحَمّداً نفسه لم يكن بوسعه الثقة بالمَكّيين وقد صُودق على الخطوات الحربيّة في حال كفوا عن الالتزام ببنود معاهدة الحُدَيبِيَة (سُوْرَةُ البَقَرَةِ: ١٩٠/٢ ـ ١٩٤). وإذا ما كان هذا المقطع يشير إلى هذه الحقبة فإنَّ التفسيرَ متأخرٌ. انظر **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٣٢؛ و**البيضاوي**، المجلد ١، ص ١٠٨. وعلى الأرجح أنَّ الآيات (١ ـ ٩) من سُوْرَةِ المُمْتَحِنَةِ (٦٠) تشير إلى نفس الحدث.

عليها من معاهدة الحُدَيبِيَة. ومِن على جَمَلِهِ، أعلن لهم ما ادّعاه رسالة الله، مبتـدئاً بالكلمـات التالية: ــ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِيناً ﴾ سُوْرَةُ الفَتْحِ (٤٨/١).[٢٣١]

وقد كان مُحَمّد على حق. ذلك أنَّ قُرَيْشاً، بمعاملتها له معاملة الندّ، إعترفـت ضـمناً بموقعه السّياسيّ. يلاحِظ ابن إسحاق أنّه، عندما وضعت الحرب أوزارها، واجتمع الناس بأمان ودخلوا في نقاشات، كان كلُّ شخصٍ ذكيٍّ يناقش فضائل الإسْلام يعتنقه. لقد أصبح هذا التزايد سريعاً الآن. ويشير مارغوليوث إلى النّساء اللّوَاتِي جئنَ المدينة، يقول: « لقد أقامت الزائرات المرحب بهن، بسهولة، علاقات جديدة في المدينة، رغم أنّهن أُخضعن لنوع مـن الامتحـان لاختبار صدق إيمانهن ».[٢٣٢] أما الذين لم يلتحقوا بالمسلمين فقد وُبّخوا بمرارة في هذه السُّوْرَة وذُكّروا بأن ﴿ لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴾ [٢٣٣]، وأما الذين بايعوا تحت الشجرة فقد ﴿ أَنـزل السَّـكينة عليهم وأَثَابَهُمْ فَتْحاً قريباً، ومَغَانمَ كَثيرةً ﴾.[٢٣٤] ومن أجل التعاطي مع الإحباط الناتج عن عدم وجود المغانم، فقد أُخبر المسلمون بأنّ ثمة مغانم:

﴿ وأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ سُوْرَةُ الفَتْحِ (٤٨/٢١).

يقول البيضاوي بأنَّ هذه الآية ربما تشير إلى المغانم بعد هزيمة عرب هَـوَازن فـي معركة تَبُوكَ.[٢٣٥] وقد أشار المسلمون إلى حلم مُحَمّدٍ وتساءَلوا لـِمَ لـَمْ يتحقق بعد، فأشار بأنّه لم يشاهد سنة تحققه، وبهدف تهدئتهم، جاءَهم بوحي آخر لإقناعهم بتحققه الأكيد: ــ

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ــ إِنْ شَاء اللهُ ــ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ، لاَ تَخَافُونَ، فَعَلِـمَ مَـا لَـمْ تَعْلَمُوا، فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً.[٢٣٦]

---

[٢٣١] يقول نِلدِكه بخصوص الآيات (١ـ ١٧): « يمكننا أن نرى بجلاء أنَّ مُحَمّداً كان ينوي الاستيلاء على مَكّة، بيد أنَّ البدو كانوا قد تخلفوا عن تقديم العون له؛ ولهذا فكر بأنَّه من المستحسن عقد صلح الحُدَيبِيَة. وكانت هذه سياسة ممتازة وفتحاً حقيقياً » (*Geschichtes des Qorans*, p. 161.).

ويُشار إلى تخلف العرب في: -

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأعْرَابِ، « شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا، فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ ») سُوْرَةُ الفَتْحِ (٤٨/١١).

[٢٣٢] *Mohammed*, p. 351، وسُوْرَةُ المُمْتَحِنَةِ (٦٠/١٠). انظر كذلك **روضة الصفا**، الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٥٧١ والصفحات التالية.

[٢٣٣] سُوْرَةُ الفَتْحِ (٤٨/١٣).

[٢٣٤] سُوْرَةُ الفَتْحِ (٤٨/١٨ ـ ١٩).

[٢٣٥] يورد حسين قول مجاهد بأنّها قد تشير إلى أيّ نصرٍ. ويشير مفسرون آخرون إلى فتح خيبر. انظر **خلاصة التفاسير**، المجلد ٤، ص ٢٤١.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى، وَدِينِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الـدِّينِ كُلِّـهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ سُوْرَةُ الفَتْحِ (٤٨/٢٧ ــ ٢٨).[٢٣٧]

وهكذا، ورغم أنَّ الحَجّ قد تم تأجيله، فإنَّ النصر كان حليف المسلمين: إذ ستتحقق مغانم أخرى وبوسعهم التريث، ذلك أنَّ ما جرى نُذِر لمُحَمّد. وسيكون مجد الإِسْلام عظيماً. ولن تعود المسيحيّة واليهوديّة تساويه رتبةً. وفي الإِسْلامِ وحده يمكن إيجاد الخلاص؛[٢٣٨] لقد تخطى وتجاوز كلَّ الأديان الأخرى؛ إنَّ بمقدورهم الآن الانتظار سنةً لتحقيق أمانيهم بالحج، ويكفيهم أنْ يعلموا أنَّ تلك هي مشيئة الله. إنَّ السورة الثامنة والأربعين [الفتح، م.] بكاملها جديرة بالملاحظة وتتناسب جيداً مع الحدث.

لقد قدم الادعاء الخاص للإِسْلام بأنَّه الدِّين الأوحد في سُوْرَة مَدَنيّة سابقة: ــ

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلام، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/١٩).

---

[٢٣٦] حسب البيضاوي وحسين فإنَّها إشارة إلى فتح خيبر. ويقول الواقدي: -اوس فتح قريب سى فتح خبير هى - « وقوله (فَتْحاً قَرِيباً): قال هو فَتْحَ خَيْبَرَ ».

[٢٣٧] حسب حسين، فإنَّ الآية التاسعة والعشرين هي « وعيدٌ لأتباع الديانات الأخرى وللمرتدين عن الإِسْلام ». نقرأ: -

دين پسنديده نزد خداى دين اسلام نۀ بهوديت ونصرانيت واختلاف نكردند در آن دين اسلام حق است ومحمد رسول بيغمبر بحق آنانكۀ دادۀ اند بديشان كتاب يعنى تورات وانجيل مگر پس ازانكۀ آمد بديشان دانشى بحقيقت امر يعنى قرآن بديشان فرود آمد. **تفسير الحسين**، المجلد ١، ص ٧٤.

وهذا ما يؤكده مفسر آخر. نقرأ: -

جو سواے دين اسلام كى كوئى اور دين اختياركرے يهوديت يا نصرانيت يا كجهى هو تو منظور ومقبول نهوگا اور وة ابنى ستى اور كوشش مين محروم ومخذون رهيگا - اس آيت نى تمام دينون كو منسوخ كرديا جو كزركئى يا بيدا كئى جائين

« من يختار غيرَ الإِسْلامِ ديناً، لو كان اليهوديّة أو النصرانيّة، أو ديانةً أخرى، فلن يستحسن ولن يُقبل منه، وستحبط أعماله وسيُصابُ بالخيبة. وقد نسخت هذه الآية جميع الديانات التي سبقت والتي ستلي (الإِسْلام) ». **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٢٧١.

وعلى هذا فإنَّ إدعاء الإِسْلام بأنه ولاء البشرية المطلق قد بسط للناس بجلاء في المدينة.

ويقول مفسر قادياني بأَنّه « سيكون دين غالبيّة البشريّة وإنّه ليس لدين آخر هذا المستقبل المتنبأ به » (*Holy Qur'an*, p. 989.).

[٢٣٨] (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/٨٥).

وقد جاء في التفاسير لما سبق إنَّ الإِسْلامَ ــ وليس اليهوديّة والمسيحيّة ــ هو الــدين الحق، وأنّ اليهود والمسيحيين لم يرفضوه حتى مجيء القُرْآن، وأنّهم فعلوا ذلك حسداً أو رغبةً في الحفاظ على تفوقهم الخاص.[٢٣٩]

بعد عودته إلى المدينة، وبإدراك شديد لقوته المتنامية في الجَزِيْرة العَرَبِيّة، توسَّــعت أُفُقُ رؤية النَّبِيّ، وهذا ما يتبدى في روح نصٍ من سُوْرَة مَدَنيّة متأخرة: ــ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ، « إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » ﴾ سُوْرَةُ الأعْرَافِ (١٥٨/٧).

من ثَم قام مُحَمّدٌ، حوالي سنتيْ ٦٢٧ ــ ٦٢٨ م، ببعث رسل إلــى حكــام مســيحيين مختلفين بمن فيهم هرقليوس، الإمبراطور البيزنطي، وملك فارس وآخرين.[٢٤٠] يقــول نِلدِكــه بأنَّ مُحَمّداً دعا، في هذه الرسائل، الحكام المسيحيين لاعتناق الإِسْلام والإقرار بسلطانه، وقــد ضمنها النص التالي:[٢٤١] ــ

﴿ قُلْ: « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَــوَاء بَيْنَنَــا وَبَيْــنَكُمْ ــ أَلاَّ نَعْبُــدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ ». فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ، « اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ».
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ،[٢٤٢] وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ. أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟

[٢٣٩] « إنَّ الإِسْلام هو الدين المقبول لدى الله وليس اليهوديّة أو المسيحيّة، والذين أُعطوا كتاب الأسفار الخمسة والإنجيل لم يختلفوا بأنّ الإسْلام صحيح وأن مُحَمّداً نَبِيّ صــادقٌ، حتى جاءهم العلم (أي القُرْآن) ». والنص الأصلي تالياً:

دين پنديده نزد خداى دين اسلام نۀ بهوديت ونصرانيت واختلاف نكردند در آن انـۀ ديـن اسـلام حـق اسـت ومحمد رسول بيغمبر بحق آنانكۀ دادۀ اند بديشان كتاب يعنى تورات وانجيل مگر پس ازانكۀ آمد بديشان دانشـى بحقيقت امر يعنى قرآن بديشان فرود آمد. (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٦٢).

يحدد البيضاوي بأنَّ الإِسْلام هو الملّة المقبولة للتوحيد والشريعة التي جاء بها مُحَمّدٌ. المجلد ١، ص ١٤٨.
سواى اسلام كى اور كوئى طريقة مقبول نهين جيسا فرمايا مَنْ يَبْتَغِ غَيْرِ الْاِسْلام دِيْنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ اسلام كى سوا دوسرا دين دو اختيار كرى نة مانا جائيكا

« ليس ثمة طـريق مقبول غير الإِسْلام، كما قال الله: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) » (**خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٢٤١).

[٢٤٠] لراوية وافية بصدد هؤلاء السّفراء ونتائجهم، انظر ميرخوند، **روضة الصفا**، الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٥١٧ وما بعدها.

[٢٤١] على أيٍّ حال، يُروى أنَّ هذه الآيات والآيات السابقة تنزّلت فيما بعد، عندما جاء مسيحيو نجران مع أسقفهم للقاء مُحَمّدٍ. ويُروى أيضاً أنّها تشير إلى يهود المدينة. البيضاوي، المجلد ١، ص ١٥٩.

[٢٤٢] يعلّق البيضاوي على هذه الآية: « تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم، وزعم كلُّ فريقٍ أنّه منهم وترافعوا إلى رسولِ الله فنزلت ». ويمضي ليقول بأنّ التوراة أعطي لموسى والإنجيل للمسيح، وأنّ إبراهيم كان قبل موسى وعيسى.

هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ.
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً، وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/٦٤ ـــ ٦٧).

كان النَّبِيّ، كلّما مني بالفشل أو أتى نجاحه منتَقَصاً، عوَّض عنه بالهجوم على اليهود. لقد نجحت هذه السياسة في السابق فعاد مُحَمّد إليها بعد نكسة الحُدَيبِيَة، وأعدّ بسرعة غارة جديدة على يهود خيبر.[٢٤٣] وقعت الغارة في خريف ٦٢٨ م، وعادت بثروة كبيرة على معسكر المسلمين. لقد تطلع مُحَمّد في البدء إلى اليهود لمساعدته ولكن، وإذ أخفق في الحصول على تلك المساعدة، قام بمهاجمتهم قبيلةً قبيلةً، فذبحهم وأجلاهم عن أراضيهم، وجعلهم خاضعين لا حول لهم ولا قوة. وبإخضاعه يهود خيبر، وضع مُحَمّد حداً لاستقلال اليهود في الجَزِيْرة العَرَبِيّة. خلال تلك الغزوة، أُسرت صَفِيَّةَ [بنتَ حُيّيٍّ، م.]، ابنة أحد أشد أعداء مُحَمّدٍ وكان قد اُغتيل بأمر من النَّبِيّ، ودُعيت لاعتناق الإِسْلام، فأجابت الدعوة ومن ثم صارت زوجة الفاتح. عاش أهل خيبر بعيدين عن المدينة ولم يشكلوا أيَّ خطرٍ عليها، لكن الغنائم هناك كانت كبيرة. وبهذه الغزوة، بدا وكأن عملية اخضاع الجَزِيْرة العَرَبِيّة كلياً باتت شبه أكيدة.

وإذ غدا مُحَمّدٌ الآن بمأمن من أيِّ هجومٍ من طرفِ قُرَيْشٍ، قام بشن الغارات على قبائل بدويّة مختلفة حتى انقضى الوقت وحلَّ شهر العمرة، أو الحَجّ الأصغر، مجدداً. خلال تلك الفترة، كان بعض البدو المرضى من أُسر عُرينة قد أسلموا، فسمح لهم النَّبِيّ بالبقاء في مرعاه والشرب من ألبان إبله؛ إلا أنّهم كانوا عاقين، فما إنْ ابلوا من مرضهم حتى قتلوا حارس الجمال وسرقوا خمسة عشر جملاً وهربوا. ولما أُلقي القبض عليهم، اُنزلت بهم أشد العقوبات إذ قطعت أيديهم وأرجلهم، وغرزت الأشواك في عيونهم وألسنتهم (**تفسير الحسيني،** المجلد ١، ص ١٤٤)؛[٢٤٤] وتُركوا في العراء حتى قضوا؛ وبعدها تنزّلت الآية التالية: ـــ

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ، فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا. نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥/٣٨).

في ربيع سنة ٦٢٩ ميلاديّة، وحسب اتفاقه السابق مع قُرَيْش، قصد مُحَمّدٌ مَكّة مع حوالي الألفين من أتباعه. بعد انكفاء قُرَيْش عن الأماكن المقدسة، دخل المسلمون مَكّة وهم لم

[243] Margoliouth, *Mohammed*, p. 355.

[٢٤٤] في سيرة ابن هشام النفر من قَيْس كُبَّة (قبيلة من بجيلة)، وقد بعث مُحَمّد في آثارهم سرية بإمرة كُرْز بن جابر ـ **المترجم.**

يدوسوها منذ سبع سنوات، تاركين أسلحتهم خارجاً. وعندما جاء مُحَمّد الكعبة [٢٤٥] قال: « رحم الله امرأً أراهم اليومَ من نفسه قوةً »، ثم أدى شعائر الحَجّ الوثنيّة مثل تقبيل الحَجَر الأسود والطواف سبع مرات حول الكعبة والهرولة بين الصَّفَا وَالْمَرْوَة.[٢٤٦] بعدها ضُحّي بالحيوانات المجلوبة، وبهذا انتهت شعائر الحَجّ الأصغر. كان لتكريم مكّة والبيت العتيق أثر إيجابيّ على المَكّيّين؛ كما أنّ عرض القوة العسكريّة للمسلمين دفع قائديْ سلاح فرسان من قُرَيْش إلى الانضواء تحت راية مُحَمّدٍ؛ أضف إلى ذلك الصداقات المعقودة، من خلال زواجه الآن بميمونة ــ الإضافة الرابعة لحريمه خلال هذا العام ــ والتي رفعت من شأن قضيته. عند عودة مُحَمّد إلى المدينة كانت قوته، على مختلف الصعد، قد تعاظمت أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

هُوجمت في ما بعد قبائل عربيّة أخرى وأُجبرت على الخضوع، كما تعرَّض القسم الجنوبي من الإمبراطوريّة الرومانيّة للغزو؛ بيد أنّ المسلمين منوا بهزيمة نكراء في معركة مُؤتَة. جعلت الحملة العسكريّة ضد البيزنطيين، رغم فشلها، من مُحَمّدٍ بطلاً لفكرة قوميّة، وهي فكرة لم تراود العرب من قبل. لقد رأى مُحَمّدٌ أنَّ الهجوم هذا كان سابقاً لأوانه وأنّه، قبل الفتح الخارجي، وَجُب عليه تعزيز موقفه الداخلي في الجَزِيْرة العَرَبِيّة. وفيما بعد جاء وحيٌ في هذه السُّوْرَةِ القصيرة للغاية، سُوْرَةِ النَّصْرِ (١١٠): ــ

﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ الله، وَالْفَتْحُ،[٢٤٧]
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجاً.
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾

بهذا التشجيع، واصل مُحَمّدٌ مسيرته. ومما لا شك فيه أنَّ وحدة الجماعة السّياسيّة واندماج أتباعه كجمعية دينية كانت تحتاج إلى مركزٍ آخر غير المدينة. لقد آن الأوان، إذا ما كان مقدراً للإِسْلام أن يُصبح القوة الدينية ــ السياسية الوحيدة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة، وهذا ما كان يبغيه مُحَمّدٌ منذ البدء، آن الأوان أن تكون مَكّة هي المركز.

[٢٤٥] حسب **روضة الصفا** (الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٥٩٨) فإنّ مُحَمّداً تلا عليهم في طريقه سُوْرَةَ الفَتْحِ (٤٨) التي تبدأ بـ (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا).

[٢٤٦] يقول مولوي مُحَمّد علي « يقول الجميع إنَّ هذا الطقس قد استمر بوصفها ذكرى جري هَاجَر بحثاً عن الماء. إنّ هذا تصَّور خالص، فهذه الشعائر كانت وثنيّةً قديمةً، أبقيت إرضاءً للمَكّيّين » (*Holy Qur'an*, p. 72).

[٢٤٧] يقول البيضاوي إنَّ (الْفَتْحُ) فتح مَكّة، وإنّ (أَفْوَاجاً) جماعات كثيفة كأهل مَكّة، والطّائف واليمن وهَوَازن وسائر قبائل العرب. المجلد ٢، ص ٤٢٠.

رأى مُحَمّدٌ أنَّ المَكْيِّين كانوا متعبين من الصّراع، وأنَّ زعماءً عديدين من قريش كانوا إما قضوا أو التحقوا به، وأنَّ سلطته بلغت كلَّ بقعةٍ في البلاد، وأصبح بالمستطاع الاستيلاء على مَكّة وتحطيم ما تبقى من معارضة قُرَيْشٍ.

السُّوْرَةَ الثالثة عشرة هي آخر السور المَكْيّة، بيد أنّ الآية الحادية والأربعين منها مُقحمة وتشير على الأغلب إلى هذه الفترة: ـــ

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا؟ وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ سُوْرَةُ الرَّعْدِ (١٣/٤١).

ويحيلها ابن عباس[٢٤٨] ومفسرون آخرون إلى المَكْيّين الذين لم يروا ويدركوا أن المسلمين كانوا يقتحمون أرض القبائل العربية الوثنية شيئاً فشيئاً. غير أن حسين[٢٤٩] يقول بأنها تشير إلى اليهود، وقد صارت حصونهم وأراضيهم وأملاكهم في حوزة المسلمين.

كان البعض متردداً في الانضمام إلى هذه الحملة على مَكَّة فأُنبوا بالتالي: ـــ

﴿ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً (المَكْيّين) نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ، وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ، إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ! قَاتِلُوهُمْ: يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ، وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (١٣/٩ ـــ ١٤).

كما أشيد بالذين شاركوا بفعالية في الهجوم على مَكّة والنصر عليها، فكانت مكانتهم أعظم من الذين أعطوا الصدقات وحاربوا من أجل الإسْلام بعد أن أظهر هذا الحدث قوة النَّبِيّ: ـــ

﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ: أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ سُوْرَةُ الحَدِيْدِ (٥٧/١٠).[٢٥٠]

---

[٢٤٨] **تفسير ابن عباس**، ص ٢٨٩.

[٢٤٩] **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٣٤٣.

[٢٥٠] (مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ) يقول نِلدِكه بأنها تشير إلى نصر بَدْر. وقد يكون رأيه سديداً، بيد أنه باستثناء معالم الذي يعزوها إلى معاهدة الحُدَيبِيَة، فإن البيضاوي وجميع المفسرين المسلمين، الذين رجعت إليهم، يقولون إنّها تشير إلى النصر على مَكّة. إنَّ الذين شاركوا فيها يوصفون على النحو التالي: « أولئك الصحابة الذين كانوا مؤمنين وأنصاراً قبل فتح مَكّة هم أرفع من سائر المؤمنين وأفضل الناس ».

وة صحابى جو فتح مكة سيپہلے مومن ومعين ہوے دوسرے تمام مومنين بلكة خيار است سى افضل هى (**خلاصة التفاسير**، المجلد ٤، ص ٣٦٤).

انقضى عامان على معاهدة الحُدَيبيَة التي، حسب بنودها، ضَمِنت السلم بين مَكّة والمدينة على مدى عشر سنوات. فتم تجاوز هذه العائق إذ، بعد أن تعرضت قبيلة بدوية موالية لمُحَمّدٍ لهجوم من قبيلة أخرى متحالفة مع قُرَيْش،[٢٥١] استغلَّ النَّبِيّ الفرصة وانضم إلى النزاع زاحفاً بجيش كبير من عشرة آلاف رجل صوب مَكّة. أدرك أبو سفيان، عدو النَّبِيّ القديم والعنيد، أنَّ زمن المعارضة قد ولّى، فالتمس لقاء مُحَمّدٍ وأعلن شهادة لا إله إلاّ الله، وأصبح بعدها مسلماً قوياً. هذا ما قاد إلى خضوعٍ مسالمٍ لمَكّة حيث كان أبو سفيان، زعيم قريش، ذا سلطة وتأثير كبيرين. ما إن دخل مُحَمّد مَكَّة حتى توجه إلى الكعبة مقبلاً الحَجَر الأسود، ثم أمر بطرح جميع الأصنام. ومن أجل إظهار أنه صاحب السلطة العليا، قام بإقرار عثمان بن طلحة والعباس على السدانة.[٢٥٢]

قام منادٍ يعلن بمَكّة بأمره: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يدعُ في بيته صنماً إلاَّ كسره ».[٢٥٣]

سخر مَكّيّون عديدون؛ وفيما بعد جاء وحي يبيّن أنّ كلَّ النّاس متساوون بالطبيعة وأنه، من منظور الهي، لا يمكن مقارنة نبالة الأصل وزهو العرق أو الطبقة بمخافة الله. وقد عُنفت قُرَيْش في: ـــ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى؛ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ سُوْرَةُ الحِجْرات (١٣/٤٩).[٢٥٤]

سأل مُحَمّد المَكّيّين ماذا يظنون أنه فاعل بهم، قالوا: « نَقُولُ خَيْراً، أَخٌ كَرِيمٌ وابنُ أخٍ كَرِيمٍ وقَد قَدَرْت ». ومشيراً إلى سُوْرَة يُوْسُف (١٢)، استشهد مُحَمّد بكلمات الآية الثانية والتسعين التي قالها يُوْسُف لأخوته: ـــ

﴿ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ. يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[٢٥٥] سُوْرَة يُوْسُف (٩٢/١٢).

---

[٢٥١] الإشارة إلى اغتنام مُحَمّد فرصة هجوم بني بكر على خزاعةَ ـ **المترجم**.

[٢٥٢] يُروى أنّه أشير إلى هذا الأجراء وسوغ في: (إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) سُوْرَةُ النِّسَاءِ (٥٨/٤).

[253] Muir, *Life of Mahomet*, vol. iv, p. 129.

[٢٥٤] لرواية تفصيلة عن الظروف الخاصة التي استدعت هذه الآية، انظر **خلاصة التفاسير**، المجلد ٤، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٢.

[٢٥٥] **روضة الصفا**، الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٦٠٢.

باستثناءات قليلة،[٢٥٦] شمل عفو عام جميع سكان المدينة، فكانت النتيجة إن النَّبِيّ سرعان ما ملك قلوب الناس. لم يكن ثمة منافقين في مَكّة كما كان الحال في المدينة. كان يوم نصر عظيم لمُحَمّد، حلت فيه ﴿ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾.[٢٥٧] ثماني سنوات مضت مذ غادر مَكّة لاجئاً منبوذاً ومزدرىً، وقُرَيْش لم تكن لتكلّ في معارضتها؛ وهاهي النهاية قد حلَّت. لقد أضحت المدينة المقدسة في قبضة يده، وصارت كلماته قانوناً. وقف في الكعبة التي كانت، لقرون خلت، مخصصةً لعبادة اللاّت والعزّى ومجمعاً للآلهات الأدنى، وطرح كلَّ صنمٍ بكلمةٍ منه؛ كما قام، بسلطته الخاصّة، بتعيين سدنة جدد لها وجعلها مركزَ الدّيانة الجديدة. لا عجب أنَّ هذا النجاح العظيم جعل الإِسْلام ينتشر بسرعة كبيرة الآن. وأخيراً، بدا وكأن العرب سيتوحدون كما لم يكونوا من قبل، وبدا أنّ الشّعور القوميّ لدى النَّبِيّ بدأ يتبلور على أرض الواقع، وأنّ الجَزِيْرة العَرَبِيّة الموحدة، ككلّ سياسيّ ودينيّ، ستقوى على مقاومة الأعداء الذين، منذ سنوات قليلة، قد تعدوا على حرمة أراضيها وهددوا وجودها.

رغم اندحار المعارضة الجديّة، بقيت بعض الأماكن خارج نفوذ مُحَمّد؛ فقد اضطر، بعد حوالي الأسبوعين من بسطه سلطانه على القرشيين، إلى الزحف صوب بدو هَوَازِن الذين رأوا، وأهل الطائف، في سقوط مَكّة خطراً على استقلالهم. وقعت المعركة في وادي حُنَين، وفي البدء، استولى الرعب على بعض قوات المسلمين فولوا الأدبار وشرع كامل الجيش بالهرب. كان الوضع حرجاً، وقد طلب مُحَمّد من عمّه العباس أن ينادي: « يا معشر الأنصار! يا أصحاب السَّمُرَة، يا أصحاب سُوْرَةُ البَقَرَةِ! » وهكذا. لقد تم إيقاف هرب بعضهم، وعندها

---

[٢٥٦] لقد أُستثنيَ حوالي عشرة أشخاص من هذا العفو، قُتِلَ أربعة منهم. ومن بين من استثني كان عبد الله بنُ سَعْدٍ [بن أبي سَرْح، م.]، الذي كان لبعض الوقت كاتب النَّبِيّ في المدينة. وتروي الأخبار أنّه ذات يوم وعندما كان النَّبِيّ يملي عليه الآية المتعلقة بخلق البشرية في السُّوْرَة (٢٣) [سُوْرَةُ المُؤْمِنُونَ، م.] الآية ١٢ - ١٤، فإن ابن سعدٍ قال الكلمات الأخيرة تعجباً (فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، بيد أن النَّبِيّ الذي كان سعيداً بذلك قال: « اكتبها! فكذلك نزلت ». وقد راود عبد الله الشّكُ وقال: « لئن كان مُحَمّد صادقاً؛ لقد أُوحي إليّ كما أُوحي إليه ». وحسين هو مصدر هذا البيان يقدمه بالفقرة التالية: -

حضرت رسول به ما كفت بنويس كهٔ همچنين نازل شدهٔ عبد الله در شكت افتاد مرتد گشت گفت اگر محمد صادقست بس بر من هم وحى فرود مى آيد. (**تفسير الحسين**، المجلد ٢، ص ٨٠).

كان النَّبِيّ ساخطاً للغاية بصدد هذا الحدث. ويقول البيضاوي بأنَّ الآية التالية تشير إلى مسلك عبد الله بن سعد، وأنّها تنزلت بهذا الشأن: -

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ، « أُوْحِيَ إِلَيَّ »، وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ؟
وَمَن قَالَ، « سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ الله ») سُوْرَةُ الأَنْعَامِ (٩٣/٦).

لقد ظهرت هذه الآية في الحقبة المَكّيّة المتأخرة، لكن الحدث الذي تشير إليه في المدينة، ولهذا من الواضح أنها مقحمة في المكان الذي تشغله الآن، ذلك إنه ليس ثمة سبب آخر يمكن أن يوضح أن الآية السابقة تعالج تفوق القُرْآن على الكتب. وثمة شيء أخر لافت، ففيها أُدين الرجل الذي أدعى الإتيان بآية مثل ما جاء مُحَمّد والنَّبِيّ مع ذلك كان قد تحدى الناس القيام بذلك. فهل يقصد مُحَمّد أن التحدي قد قُبل أم لا؟

[٢٥٧] يقول البيضاوي بأن الآية (وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ) في سُوْرَةِ المَائِدَةِ (٧/٥) ربما تشير إلى هذا النصر.

صعد مُحَمّد رابية وأخـذ قبضة من حصى بيده قاذفـاً بها صوب العـدو قـائلاً: « شَـاهَتْ الْوُجُوهُ! ». انقلب سير المعركة وفي الختام اندحر العدو كليّاً. وكالعادة، جاء وحي بشأن هـذه المعركة وعُزيت الانتكاسة الأولى للخيلاء التي أظهرها المسلمون بعددهم. نقرأ: ـــ

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَيَوْمَ تَبُوكَ، إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْـرَتُكُمْ؛ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَـا رَحُبَـتْ؛ ثُـمَّ وَلَّيْـتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ سُوْرَةُ التّوْبَةِ (٢٥/٩).

وفي الآية التالية ينسب النصر النهائي إلى العون السماوي: ـــ

﴿ ثُمَّ أَنَزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ[٢٥٨] عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنزلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

بعد هذه المعركة، ضرب النَّبِيّ حصاراً حول مدينة الطائف، بيد أنه كان غير نـاجح. وقد رُفع الحصار بعد أسابيع قليلة؛ ولكن ما إنْ مرت عشرة أشهر حتى خضع أهل الطـائف له.

وزَّع مُحَمّد عطايا كبيرة من غنائم هَوَازن على زعماء الملإ من مَكّة والقبائل البدوية المهتدية، مما أثار حفيظة أتباعه القدماء وأصدقائه وجعلهم مستائين. بيد أن وحياً جـاء لاحقاً يُسوّغ تصرفه حتى في مسـألة صغيرة مثل هذه: ـــ

---

[٢٥٨] تستعمل كلمة (**سَكِينَةٌ**) في سُوْرَةِ البَقَرَةِ (٢٤٨/٢) حيث يقول صموئيل للإسرائيليين، (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ). ويبدو أنها بذلك ترتبط مع الحضور أو المجد الإلهي، الذي ظهر في التابوت. وبهذا فإنه الآن في وقت الذعر فإن الحضور الإلهي المفترض مع النَّبِيّ يعطي الهدوء، أو السّكينة. كما وردت بصدد الإشارة إلى زمن الخطر، عندما كان النَّبِيّ مع أبي بكر في الكهف يوم الهرب من مَكّة: ـ
(فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٤٠/٩).

كما تستعمل في الإشارة إلى أحداثٍ أخرى: ـ
(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ)
(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ؛ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً)
(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ـ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ـ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) سُوْرَةُ الْفَتْحِ (٤/٤٨، ١٨، ٢٦)

وترد الكلمة في السور المدينة فحسب، مما يظهر أن مُحَمّداً اقترض الفكرة من اليهود. انظر (Geiger, *Judaism and Islam*, p. 39).
ويطلق عليها البيضاوي (ثبات الطمأنينة).
ويترجمها نضر أحمد بـ (تسلى)، و(تحمل).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ، فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ، وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ.
وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ، « حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ: إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ».
إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم (للإِسْلام) ﴾ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٥٨/٩ ــ ٦٠).[٢٥٩]

شكَّلت الصدقات، في حالة الزعماء الذين تلقوا هدايا ثمينة، نوعاً من الرشوة إلى حدٍ بعيد، وكان من الطبيعي أن يعترض اليثاربة على هذا التصرف. يقول المفسرون بأن التعبير ﴿ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم ﴾ قد نُسخ الآن؛ لقد ألغى أبو بكر تقديم هذه العطايا للمهتدين لأنه، بعد أن نصر الله الإِسْلام، لم تعد ثمة حاجة إلى هذه الهدايا.[٢٦٠]

سُميت السّنة التّاسعة للهجرة بـ « **عام الوفود** ». فبعد أن صارت مَكّة والكعبة تحت سلطة مُحَمّد، ذاعت شهرته وأعلنت القبائل خضوعها الواحدة تلو الأخرى. لقد قدَّم المؤرخ ابن إسحاق تفسيراً حقيقياً لهذا الخضوع إذ قال: « فلما اُفتُتِحت مَكّة، ودانت لـه [مُحَمّد، **م.**] قُرَيْش، ودَوَّخها الإِسْلام، وعرفت العرب أنّه لا طاقةَ لها بحرب مُحَمّدٍ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله ». وقد طافت عصبة من المسلمين البلاد وأُلغي الإذن الممنوح لغير المسلمين بزيارة المسجد الحرام بالأمر التالي:ـ

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ، فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ، وَخُذُوهُمْ، وَاحْصُرُوهُمْ، وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ؛ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٥/٩).

---

[٢٥٩] يجمع المفسرون على أن (الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم) تعني كسبهم للإِسْلام. ومنذ الآن فإن مصطلح الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم سيكون الاسم الذي يعرف به الزعماء الذين اشتهر كسبهم للإِسْلام بهذه الطريقة، ويقول ابن عباس والبيضاوي بأن أبا سفيان وأصدقاءَه، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس وآخرين كانوا من بين الأشخاص الذين تسلموا العطايا.

[٢٦٠] يشير حسين إلى إلغاء هذه الصدقات قائلاً: ـ

« بعد أن توسع الإِسْلام والفتوحات التي قام بها المسلمون، فإن هذا قد أبطل بإجماع الصحابة ».

بعد از ظهور اسلام وغلبهٔ مسلمانان باجماع صحابهٔ ساقط شدهٔ است. (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٦٠)

« لقد أبُطل في زمن أبي بكر الصّديق سهم المؤلفة قلوبهم للإِسْلام بالإجماع، ذلك أنَّه لم يعد من ضرورة بعد الآن لتأليف القلوب ».

زمانة ابو بكر صديق مين باجتماع حصة مولفة القلوب مساقط هوكيا اس لئى كة ضرورت تالف تليف كرنى كى باقى نرهى. (**خلاصة التفاسير**، المجلد ٢، ص ٢٧١).

لقد قيل بأن الآية الشهيرة المعروفة بآية السيف رفعت القيد الــذي لــم يكــن يســمح للمسلمين ببدء الحرب والذي جاء في الآية التالية: ـــ

﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ: وَلاَ تَعْتَدُواْ ﴾ سُــورَةُ البَقَــرَةِ (٢/١٩٠).[٢٦١]

لا بل قامت بأكثر من ذلك، إذ ألغت[٢٦٢] الكلمات الحسنى للوحي المَكْيّ المبكر: ـــ

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ سُــورَةُ العَنْكَبُــوتِ (٢٩/٤٦).

على أي حال، رأى العرب أن استمرارَ المعارضةِ أمرٌ غير مُجدٍ، فقد تحطمت بنيــة المجتمع بكاملها وليس هناك من هو قادر على إعادة بنائها سوى مُحَمّد. وعلى هذا فإنَّ التوجه نحو الإِسْلام اتخذ طابعاً وطنياً، وغدا الرجل الذي كان، لســنوات خلــت، ســبباً للخلافــات والحروب، غدا الآن زعيماً ورئيساً للجَزِيْرة العَرَبِيّة الموحدة. وهكذا تكون أمنيات مُحَمّد قــد تحققت.

استلزم الخضوع للحكم السّياسيّ، من جانب الذي خضع، قبول دين الإِسْلام وعقيدتــه الرئيسية الداعية لأن « يخضع لتعاليمه ويتبنى شعائره وقواعد أخلاقياته ويقدم الطاعة المطلقة « لله ورسوله في كل شيء »، ويدفع العشر كل عام (ليس بوصفها إتاوة بل بوصفها تقدمــة تطهر الثروة الباقية)، من أجل صدقات ونفقات مُحَمّد وإمبراطوريته النامية ».[٢٦٣]

في خريف سنة ٦٣٠ ميلادية، أرسل مُحَمّدٌ قوةً عسكريّةً باتجاه التخوم السّــورية، إذْ جاءَت الأخبار أنَّ الإمبراطور هِرقليوس قد حشد قوة ضخمةً من القبائل الخاضعة له بهــدف صد غارات المسلمين، أو اجتياح الجَزِيْرة العَرَبِيّة. كان الجيش الإِسْلاميّ الذي حُشــد لصــد البيزنطيين وحلفائهم أكبر قوة عسكرية تمكن مُحَمّد من استنهاضها وتنظيمها حتى الآن. بعــد

[٢٦١] إن هذا لأمر الذي يقصر المعركة على الحرب الدفاعية ـ حسب حسين والبيضاوي ـ قد نسخ بآية السيف: ـ اين حكم بآيت منسوخ است. (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٣٢).

ويربطها البيضاوي بمسألة الحُدَيبِيَة. فقُرَيْش عارضت دخول مُحَمّد مَكّة. وقد كان موقع المسلمين في الحُدَيبِيَة في خطر نسبي، ومن وجهة نظر عسكرية فإن الأمر كان حكيماً، بيد أن تطبيقه كان محلياً صرفاً ولهذه المناسبة الخاصة.

الآن، إذاً، فإنّ الحرب الخاصّة والمحدودة هي شيء من الماضي، المعركة المستمرة والعامة ضد كل المشركين مغروسة في الذهن.

[٢٦٢] قيل إنّها منسوخة بآية السيف. **البيضاوي**، المجلد ٢، ص ٩٨.

[263] Muir, *Life of Mahomet*, vol. iv, p: 170.

صعوبات وعناء، عندما بلغت الحملة تَبُوك، منتصف الطريق بين المدينة ودمشق، وُجِد أنَّ أخبار الاستعدادات الرّومانيّة مبالغٌ فيها، وأنَّ الإمبراطور قد غير رأيه وغادر المنطقة. شاح مُحَمّدٌ عندها بانتباهه نحو القبائل المسيحيّة واليهوديّة حيث قام يوحنا [بن رُؤبة، م.]، أمير أَيْلَة المسيحي، بعقد معاهدة مع النَّبِيّ ووافق على دفع جزية سنوية. أما السِفارة الأكثر أهمية للنَبِيّ فكانت لمسيحيي نَجْرانَ برئاسة قِسّهم، أبي حارثة، حيث رفضوا اعتناق الإِسْلام أو الموافقة على اقتراحِ مُحَمّدٍ الذي دعاهم « لنتلاعن ونجعل لعنة الله على الكاذبين ». في الختام وافقوا على دفع الجزيّة المتوجبة على غير المسلمين جميعهم.[٢٦٤] وقد أُشير إلى هذا الحدث في الآيات التّالية من القُرْآن: ــ[٢٦٥]

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ. خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ؛ ثِمَّ قَالَ لَهُ، « كُن ــ فَيَكُونُ ».
الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ. فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ.
فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ، مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ[٢٦٦]، فَقُلْ، « تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ، وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ. ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » ﴾ سُوْرَةُ آلِ عِمْرانَ (٣/٥٩ ــ ٦١).

كانت فكرة تسوية الأمور باللعنة غريبة، لكنَّها أظهرت عمق قناعة مُحَمَّدٍ بصدق موقفه. خضعت كذلك بعض القبائل اليهوديّة وتعهدت بدفع الضريبة المطلوبة منها بانتظام. عاد مُحَمّدٌ من هذه الحملة، وهي آخر حملاته، فبلغ المدينة في نهاية سنة ٦٣٠ ميلادية.

لقد تخلَّف عن هذه الحملة بعض مسلمي المدينة والعديد من البدو، غير أنَّ المسلمين المتحمسين كانوا تواقين للمساعدة في الحرب ضد المسيحيّن السوريّن والقبائل العربيّة المناوئة، رغم أنَّ وسائط النّقل والإمداد لم تكن مؤمنة للجميع. لقد بكى أولئك الذين لم تتسنَ لهم المشاركة في الحملة إلى تَبُوكَ بمرارة، ودعوا فيما بعد البّكائين،[٢٦٧] فأُخبروا بأنه لا لوم عليهم: ــ

---

[٢٦٤] **روضة الصفا**، الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٦٨٧ ـ ٦٩٩؛ البيضاوي، المجلد ١، ص ١٠٩.

[٢٦٥] الآية الحادية والستون وتسمى آية المباهلة.

[٢٦٦] يعني، بعد العلم بأنَّ المسيحَ نَبِيٌّ وعبدٌ (يعني ليس سماويّاً). **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٧٠ ــ از دانستن عيسى كهٔ رسول وبندهٔ است.

[٢٦٧] يذكر ابن إسحاق إنّهم سبعة من اليثاربة ويعدد اسماءَهم. ـ **المترجم**.

﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَــا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ، « لاَ أَجِــدُ مَا أَحْمِلُكُــمْ عَلَيْهِ »، تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً، أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُــونَ ﴾ سُوْرَةُ التّوْبَةِ (٩/٩٢).

كما أن بعضاً ممن شاركوا كان فاتراً، وقد قال أحدهم لأصدقائه: « أَتَحْسَبُون قِتَال بَني الأَصْفَر كَقِتَال غَيْرِهِم؟ والله لَكَأَنُهمْ غداً مُقَرَّنيَ فِي الحِبَالِ »؛ وقد لام أحد الحاضرين القائــل وأردف بأنّه يأمل أنْ ينزل وحيٌّ بشأن هذه الأحاديث الشريرة. جاءَ مُحَمّداً خبرٌ هذا الهمس من السّماء، فقال المنافقون وهم خائفين بأنّهم ما تحدثوا إلاّ على سبيل الدعابــة فحســب. فجــاء الوحي: ــ

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُوْرَة تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِــي قُلُــوبِهِم. قُــلِ اسْتَهْزِؤُواْ، إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ.
وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ، لَيَقُولُنَّ، « إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَــبُ ». قُــلْ: أَبِــالله،[٢٦٨] وَآيَاتِهِ، وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ؟
لاَ تَعْتَذِرُواْ: قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ. إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّــنكُمْ، نُعَــذِّبْ طَآئِفَةً؛ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ سُوْرَةُ التّوْبَةِ (٩/٦٤ ــ ٦٦).

لقد تعرَّض الأشخاص الذين طرحوا أسئلة مزعجة للتوبيخ. استناداً إلى صحيح مســلم وآخرين من أهل الحديث، يقول نِلدِكه[٢٦٩] بأنّه عندما أُعطي أمر الحَجّ، سأل رجلٌ مُحَمّداً ما إذا كان عليه أنْ يحجّ سنويّاً، فأجابه النَّبيّ متضايقاً بأنّه بوسعه. ومن ثم أنتج هذا التنزيل: ــ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ، لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ، إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥/١٠١).[٢٧٠]

كما أَمْكَن أن تشير هذه الآية إلى الآية التّالية التي تتناول بعض الخرافــات المَكْيّــة. ويقول بعض المفسرين بأنَّها تشير إلى مسائل عامة. ولدى البيضاوي ملاحظة مفيدة بصددها (المجلد ١، ص ٢٧٤).

---

[٢٦٨] تدعي هذه بجلاء الموافقة الإلهيّة على حملة تَبُوكَ الحربية، والتي ـ حسب البيضاوي ـ كانت سبب السخرية.

[269] *Geschichte des Qorāns*, p. 173.

[٢٧٠] ورد في التفاسير أنّ الآية تنزّلت لما طرح بعضهم أسئلة تمتحن دعاوي محمدٍ النبويّة، أو تستهزئ به. في حين تروي بعض الأخبار بأنّ ثمة مَنْ سألَ هل الحج فريضةً سنويةً، فكان رد محمد هذه الآية. وينسب السُّهيلي في **الرُّوض الأُنُف** هذا التساؤل إلى الأقرع بن حابس. **المترجم**.

تعرّض البعض من غير الموالين ــ المنافقين ــ في المدينة وكذلك البدو الــذين لــم يرافقوا النَّبيّ في حملة تَبوك، تعرّضوا لتوبيخٍ قاسٍ لدى عودته. وقد جاءَت آيات خاصّــة ــ اتفق المفسرون على أنَّها تشير إلى غزوة تَبُوكَ ــ[271] لتأنيبهم وتحذير آخرين: ــ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ! مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ، « انفِرُواْ فِــي سَــبِيلِ اللهِ »، اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ؟ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ؟
إِلاَّ تَنفِرُواْ، يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ، وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً: وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.[272]
انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ. ذَلِكُمْ خَيْــرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.
لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً، لاَّتَّبَعُوكَ، وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ: « لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ »، يُهْلِكُونَ أَنفُسَــهُمْ! وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.
إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُــمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ.
وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ، لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً. وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ.
لَــوْ خَرَجُواْ فِيكُم، مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُــمْ، يَبْغُــونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩/٣٨ ــ ٣٩؛ ٤١ ــ ٤٣؛ ٤٥ ــ ٤٧).
﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُــولِ اللهِ، وَكَرِهُــواْ أَن يُجَاهِــدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُســهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَــالُواْ: « لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ ». قُلْ، « نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » ﴾ سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩/٨١).
﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ « آمِنُواْ بِاللهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ »، اسْــتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ، « ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ » ﴾ سُورَةُ التَّوْبَــةِ (٩/٨٦).[273]

و قد شــُرّب كفر البدو بقسوة بهذه الآيات: ــ

---

[271] **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٢٥٦.

[272] يقال إنَّ هذه الآية نُسخت بالآية الحادية والتسعين التي قدمت بعض الاستثناءات: ـ
(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ للهِ وَرَسُولِهِ) سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩/٩١).

[273] يعالج كامل المقطع (الآيات ٨١ ـ ١٠٦) هذا الموضوع. وقد أوردت آيات قليلة فحسب.

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ، لِيُؤْذَنَ لَهُمْ؛ وَقَعَدَ الَّـذِينَ كَـذَبُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ؛ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَـذَابٌ أَلِـيمٌ ﴾ سُـورَةُ التَّوْبَـةِ (٩/٩٠).

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً...

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ؛ عَلَـيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ! وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩/٩٧ ــ ٩٨).

على هذا فإنَّ كلَّ مَنْ تخلَّفْ قُرِّعْ، وأما النَّبيّ والذين خرجوا معه فقد امتُدحوا وقيل لهم بأنَّ ﴿ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾، ذلك أنّ الله أعدّ لهم ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾.[٢٧٤] أقرّ بعض المؤمنين لاحقاً بذنبهم، فعُفي عنهم، بيد أنّ النَّبيّ أُمر بأن تؤخذ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم. وأُبقي على البعض منتظراً حتى يُبتَّ بقرار في حقهم، بيد أنّه غفر لهم في آخر الأمر: ــ

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ، خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً. عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً، تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ؛ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ: وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩/١٠٢ ــ ١٠٣).

وفي الآية مئة وستة من نفس السُّوْرَة: ــ

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ، إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ، وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٩/١٠٦).

وقد رُوي بأنّ فيها إشارةً إلى كعب بن مالك، وهو محارب وشاعر، كان قد أصيب بأَحَدَ عَشَرَ جرحاً في معركة أُحُد. لم يكن لدى كعب وآخرين[٢٧٥] من أصدقائه سبب شرعي لعدم الخروج إلى تَبُوكَ وقد ترك شقاقهم مثلاً سيئاً؛ لم يكن بالوسع التزام الصمت حيال تصرفهم، فمُنِع التواصل الاجتماعيّ معهم لمدة تزيد عن الخمسين يوماً وحُظِّر عليهم التواصل

[٢٧٤] سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٩/٨٨ ـ ٨٩).
[٢٧٥] هلال بن أمية، ومُرارة بن الرّبيع ـ **المترجم**.

مع زوجاتهم أو أسرهم. وإذ رأى مُحَمّدٌ فيما بعد بؤس حالهم، أشفق عليهم[٢٧٦] وجاء هذا الوحي: ــ

﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ ــ بِمَا رَحُبَتْ ــ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ، وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ. ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ، لِيَتُوبُواْ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ، الرَّحِيمُ ﴾ سُورَةُ التَّوْبَةِ (١١٨/٩).

إنَّ السُّوْرَةَ التاسعة هي الأخيرة أو ما قبل الأخير المنزلة.[٢٧٧] إنّها ضارية وغير متسامحة، تُظهِر كيف أنَّ تَعَاقُب السنوات، عوضاً عن أن يلطِّف طبع النَّبِيّ، طوّر روحَه الحربيّة التواقة لتلقّي الأوامر الإلهيّة المفترضة: ــ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيّ! جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ: وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ! وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٧٣/٩).[٢٧٨]

كان النّداء للسّلاح عاماً، بيد أنَّ مُحَمّداً أعفى طلاب ومعلمي الدين: ــ

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً: فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ، مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (١٢٢/٩).

بينما كان مُحَمّد يتجهز للذهاب نحو تَبُوكَ، دُعي لافتتاح مسجدٍ بُني للتو في قباء. ولدى عودته وجد أنَّ هذا المسجد قد شُيد بطريقة تشجع على التمييز بين المصلّين، فأمر أن يدمَّر ويحرّق وقال: ــ

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ. وَلَيَحْلِفَنَّ « إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى »؛ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

[٢٧٦] بعد خمسين يوماً من المقاطعة ـ **المترجم**.

[٢٧٧] تعود في جزئها الأكبر إلى السنة التاسعة للهجرة، على الرغم من أن الآيات ١٢ ـ ١٥ تعود إلى عام سابق. والآيات ٣٦ ـ ٣٧ تعود إلى سنة ١٠ هجرية. وبقية الآيات غير مرتبة في نظام تاريخي متناسق، بيد أن السُّوْرَة ككلّ، تظهر عقل مُحَمّد في السنتين الثامنة والتاسعة، وهي لافتة للنظر بشكل رئيس بسبب تعصبها المتغطرس. انظر (Nöldeke, *Geschichte des Qorāns*, pp. 165-9.).

[٢٧٨] يضع نِلدِكه هذه الآية بعد العودة من تَبُوكَ، أو في أواخر سنة ٩ هجرية. (*Geschichte des Qorāns*, p. 167.). انظر كذلك **تفسير الحسيني** بصدد الآية ٧٤.

لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً.[٢٧٩] لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ. أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ؛ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ.
أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ؟ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؟ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.
لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ، إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ. وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩/١٠٧ ــ ١١٠).

كانت حملة تَبُوكَ آخر حملة قادها مُحَمَّدٌ بنفسه، وقد بدا الآن كما « لو أنَّ كلَّ المعارضة » قد سُحقت، وكلَّ الخطر قد تلاشى.[٢٨٠] ثمة حديث بهذا الصدد يقول إنَّ أتباع النَّبِيّ باشروا ببيع أسلحتهم، قائلين: « انْقَطَعَ الجِهَادُ »، بيد أنّه لما تناهى ذلك إلى مسامع النَّبِيّ قال: « لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمتْي يُجاهِدُونَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَخْرُجَ الدَّجّالُ »[٢٨١]. بغضِّ النّظر عن مدى صحة هذا الحديث، فإنّه يُظهر موقف المسلمين الأوائل من الحروب الدينية، ويتناسب تماماً مع الحديث الذي أُشير إليه من قبل: « الجهاد باقٍ ليوم القيامة ».

تمت المصادقة على إكراه اليهود والمسيحيين، بعد حملة تَبُوكَ، في بعض آيات سُورَةِ التَّوْبَةِ (٩)، وقد وضعها أفضل المراجع فوراً بعد هذا التاريخ: ــ

﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ، وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ، وَهُمْ صَاغِرُونَ.
وَقَالَتِ الْيَهُودُ، « عُزَيْرٌ (عزرا) ابْنُ اللهِ »، وَقَالَتْ النَّصَارَى، « الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ». ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ. يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ! قَاتَلَهُمُ اللهُ![٢٨٢] أَنَّى يُؤْفَكُونَ!

[٢٧٩] (لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً (للصّلاة)).
[٢٨٠] « خلال عشر سنوات من إقامته في المدينة قام مُحَمّدٌ بتنظيم ثمانية وثلاثين حملة عسكريّة، منها سبعة وعشرون كانت تحت قيادته، بوصفه قائداً أعلى، تأييداً لقضية الإِسْلام ». انظر ابن إسحاق وابن هشام. استشهاد أورده كويل (*Mohammed and Mohammedanism*, p. 323.).
[٢٨١] الواقدي استشهاد أورده موير (*Life of Mahomet*, vol. iv, p. 202.).
[٢٨٢] يترجمه رودويل هذه العبارة بـ « *God do battle with them* »، أما بالمِر بـ « *God fought them* »؛ وسِل « *May God resist them* ». إنَّ رأي المفسرين هو نفس ما ترجمه شاه ولي علا محدّث ـ لعنت كرد ايشان را خدا ـ « لعنة الله عليهم »؛ ويقول ابن عباس: « لعنهم الله ». ويقول حسين: ـ لعنت كناد خداى بر ايشان ـ « ليلعنهم الله ».
في **خلاصة التفاسير** ـ هلاك كرى ا كو الله ـ « أهلكهم الله ».

اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله،[283] وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَـــرْيَمَ، وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً. لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ. سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ:[284] وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُـــورَهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

ويعطي البيضاوي التفسير التالي: « دعاء عليهم بالإهلاك فإنَّ من قاتله الله هلك أو تعجّب من شناعة قولهم ».

وفي ترجمة نضر أحمد للقُرْآن إلى الأوردية يقول: ـ خدا ان كو غارت كرے ـ « فليدمرهم الله ». وفي ترجمة شاه عبد القادر ـ مارذالى ان كو الله ـ « قتلهم الله ». وفي يترجم أحمد شاه هذه بـ« فليقتلهم الله » ـ الله ان كو مارى: خدا بكشد آنان را.

ويُروى أن علياً قال بأنها تعني « لعنهم الله ». وفي شرح الزمخشري على هذه الكلمة: « هم أحقاء بأن يُقال لهم هذا تعجباً من شناعة قولهم ».

لقد كان الزمخشري معتزليّاً وقد تبنّى المسلمون ذوو النّظرة الأوسع نظرته. فالكلمات تعني لديهم « لعنهم الله » أو مصطلح يشبه ذلك؛ بيد أنَّ النظرة الأشد صرامة هي الشائعة.

إنَّ الكلمات في القُرْآن (قَاتَلَهُمُ الله) لا تتطابق على الإطلاق مع لهجة الآية الواردة في السُّوْرَةِ الخامسة: ـ

(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ، « إِنَّا نَصَارَى ». ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً، وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٨٢/٥).

وعلى أي حال، يجب أن نضع نصب أعيننا إنَّ هذه الكلمات تبعتها آية تظهر استعداد هؤلاء المسيحيين لاعتناق الإسْلام: ـ

(وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ، تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ: مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ: « رَبَّنَا آمَنَّا، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ») سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٨٣/٥)

على أي حال، إنَّ هاتيْن الآيتيْن، اللتيْن أُستشهد بهما للتو في هذا الهامش، لا تعالجان موضوع علاقة المسلمين بالمسيحيين العام، وهما ذات تطبيق محدود. علاوة على أنهما لا تعبران عن أراء النَّبِيّ الناضجة والنهائية، ذلك إنهما جاءَتا في آخر السور قاطبة ـ الخامسة ـ، وهما تعودان إلى حقبة أبكر وتسبقان الآيات الأشد ضراوة في السُّوْرَةِ التاسعة التي أُستشهد بها في المتن. وبرهاناً على ذلك، نجد أن المفسر حسين يقول بأنها تشير إلى سبعين شخصاً أرسلهم النجاشي ـ ملك الحبشة ـ إلى مُحَمّدٍ، والذي أظهر عطفاً كبيراً على المهاجرين المَكّيين. وهذا كان حوالي السنة السابعة من الهجرة، وعلى هذا، وإذا افترضنا بأنَّ هؤلاء المسيحيين لم يأتوا قبل هذا العهد المتأخر، فإنّه ما زالت ثمة سنتان قبل أن يُعطى الأمر الأشد صرامة في سُوْرَةِ المَائِدَةِ (٥١/٥) ليحرّم كليّاً الصداقة مع اليهود أو المسيحيين، وهذه هي الكلمة النهائية بصدد هذه القضية: ـ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء. بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ؛ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. إِنَّ الله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥١/٥).

ويقول حسين بأنّ النَّبِيّ قرأ على هؤلاء الزوار المسيحيين سُوْرَةِ يس (٣٦)، الذين كانوا راضين وقالوا لبعضهم بعضاً، « يا له من تشابه تام بما جاء به المسيح »، ثم اعتنقوا الإسْلام.

احكام اسلام وايمان قبول كردهٔ با يكديگر گفتند كهٔ قران مشابهت تمام دارد يانجهٔ بر عيسى نازل شدهٔ . **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ١٥٥.

[283] يترجم حسين هذا المقطع بـ: فرا گرفتند يهود ونصارى علماى شود را وعُباد خود را خديان

« إن اليهود والمسيحيين أخذوا علماءَهم ورجالهم الأتقياء أرباباً ». إن كلمة (أربَاباً) هنا جمع (رَبّ). وهي تلميح إلى كلمة (ربي)، التي يستعملها اليهود والمسيحيون نحو قساوستهم، بيد أن الكلمة العربية تعني الله فقط. انظر (Rodwell's *Qur'an*, p. 616 ; *Palmer's Qur'an*, vol. i, p. 177.).

لم يكن ثمة ضير في دعوة اليهود للعَالِم أو زعيمهم الديني ربي، بيد أن مُحَمّد تخبط، وبالإجمال أساء فهم معنى الكلمة. وهذا يرجع لجهله بالعبريّة. بيد أنه تنشأ صعوبة أخرى، فمُحَمّد ـ حسب النظرة الأرثوذكسية ـ لا ينطق بالقُرْآن، بل الله من خلاله. يبدو جلياً بأن هذه الآية تسقط فكرة وحي القُرْآن.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ،[٢٨٥] وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ! إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله، فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ؛
يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٩/٢٩ ــ ٣٥).[٢٨٦]

---

[٢٨٤] يقول حسين بأن هذا النور هو « القُرْآن، أو نبوة مُحَمّد، أو البرهان الجلي على قداسته وتنزّهه عن الشهوات ».

قران است يا نبوت محمد را يا حجت روشن بر تقدس وتنزؤ او از زن. (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٥٤).

يقول البيضاوي بأنّه القُرْآن أو نبوة مُحَمّدٍ ويفسر (بِأَفْوَاهِهِمْ) بأنها تعني « بشركهم أو بتكذيبهم ».

ويقول آخرون بأنها « استعارة تعني نور الله، أو الدين الحق ـ الإِسْلام، أو القُرْآن الطاهر، الحضور الأقدس ».

استعارة هى كة دين حق يا اسلام يا قران ياكث يا حضور اقدس (**خلاصة التفاسير**، المجلد ٢، ص ٢٤٢).

ويقال بأن الحضور الأقدس يشير إلى مُحَمّدٍ وإلى النور المُحَمّديّ، وأن ذلك برهان « إنَّ نورَ مُحَمّدٍ ودينَ محمدٍ باقٍ ولن يبطل ».

معلوم هواكة نور محمدى اور دين احمدى دائمى هى كسى كى متائى مت نة سكيكا (**خلاصة التفاسير**، المجلد ٢، ص ٢١٣).

يروى أنَّ (بِأَفْوَاهِهِمْ) عبارة مجازية ترمز إلى أنّهم بأكاذيبهم يقولون إنّ الدين الحق ربما يحال بينه وبين الانتشار.

[٢٨٥] تشرح هذه الآية بأنّها تعني أنّ الله أرسل مُحَمّداً بالإِسْلام، الدين الحق؛ وأنّه يقهر كل الأديان الأخرى، وينسخ شرائعها وأنه بعد نزول المسيح، لن يكون من دين في العالم إلاّ الإِسْلام:

وغالب كرداند دين خود را برهمۀ دينها ومنسوخ سازد احكام آنرا وآن بعد از نزول عيسى خواهد بودكۀ بر روى زمين جز دين اسلام نماند (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٥٤).

و في **خلاصة التفاسير**، المجلد ٢، ص ٢٤٣، لدينا التصريح التالي: ـ اسلام ناسخ الاديان وغالب البرهان ـ « الإِسْلام ناسخ الأديان وغالب جلي ».

ويقول عبد الله بن عباس بأنها تعني « كل الأديان الماضية والقادمة ».

[٢٨٦] يتمتع هذا الشاهد ككلّ بأهميّة، بحيث أقدم نظرات المفسر حسين ببعض الطول. فهو يقول: ـ

بكشيد اى مومنان وكارزار كنيد بانكۀ ايمان ندارد بخداى يعنى يهود كۀ بۀ تثنيۀ قائل اند ونصارى كۀ تثليث را معتقد اند نمى گروند بروند بروز قيامت يهود گويند كۀ در بهشت اكل وشرب نخواهد بود ونصارى معاد روحانى را اثبات ميكند ومحرم نميدانند انجۀ حرام كردۀ است خداى از خمر وخنزير وانجۀ حرام كرده است رسول او يعنى محرم نميدانند انجۀ حرمت او بكتاب وسنت ثابت شدۀ است ـ باهل كتاب مقاتلۀ كنيد تا وقتيكۀ بدهند جزيۀ وحال آنكۀ ايشان خوار شده گان باشند يعنى جزيۀ بدست آرند ونشينند تا وقتيكۀ تسليم كنند با ازيشان جزيۀ بگيرند وگردن ايشان را بسيلى فرو كوبند (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٥٣).

« يا أيها الذين آمنوا اقتلوا، وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله؛ وهم اليهود الذين يؤمنون بالثنويّة والمسيحيّين الذين يؤمنون بالتثليث؛ فهم لا يقرّون باليوم الآخر؛ يقول اليهود إنّ ليس ثمّة من طعامٍ وشرابٍ في الجنّة ويؤكّد المسيحيّون بأنّها حالة روحانيّة فحسب. وهم لا يحرّمون ما حرّم الله مثل الخمر والخنزير، وما حرّمه النّبيّ؛ لا يحرّمون ما جاءَ تحريمه في القُرْآن والسنة. ويجب عليك قتال أهل الكتاب حتى يدفعوا الجزية، وهم

ترتبط هذه الآيات بغزوة النَّبِيّ الأخيرة، الغزوة الهادفة لإخضاع المجتمعات المسيحيّة واليهوديّة، وتعبِّر عن رأيه الأخير والمدروس لعلاقة الإِسْلام بهاتين العقيدتين وأصحابهما.

تحتوي السُّوْرَة الأخيرة، سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥)، على آية (٥١) ذات طابع مشابه لتلك الآيات التي استشهدنا بها للتو، بيد أنّها على الأغلب مقحمة في هذه السُّوْرَة إذ يُروى أنّ تاريخها يعود توّاً إلى ما بعد معركة أُحُد.[٢٨٧] وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يظهر بأنّ الوصية الأخيرة في السُّوْرَة التاسعة بصدد اليهود والمسيحيين لم تكن رأياً عابراً، سبَّبتها ظروف خاصّة، بل هي تطور القاعدة التي ترسخت منذ سنوات قليلة مضت. تقول الآية: ـ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ، لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ؛ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ،[٢٨٨] إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥/٥١).[٢٨٩]

مذلون، وعليهم أنْ يدفعوا الجزية بأيديهم وهم وقوف كي يكونوا راكعين؛ أو تُؤخذ الجزية منهم، ويصفعون على أَقْفَائهم ».

من الواضح جداً، إنّ الإشارةَ هنا ليست للعرب الوثنيين بل لليهود والمسيحيين، ومن هذه الآية وبالخصوص من (وَهُمْ صَاغِرُونَ) نشأت المعاملة التحقيريّة لأهل الذّمة في البلاد الإِسْلاميّة. ثمّة بعض الخلافات بالآراء بصدد الأشخاص التي تُؤخذ منهم الجزية. فيقول الإمام الشافعي بأنّها يمكن أن تؤخذ من اليهود والمسيحيّين فحسب؛ والإمام (A'gam) يقول على كلِّ المشركين أن يدفعوها. ويستثنى العرب الوثنيون من ذلك، الذين يخيّرون بين الإِسْلام أو السيف (يا تيغ است يا اسلام). ويقول الإمام مالك بأنّها يمكن أن تؤخذ من جمع الكافرين باستثناء المرتدين، فليس لهم إلاّ حكم الموت. إنَّ المقدس يتضمن طبيعة ادنيويّة، كما أنه حُوفظ على تساوي رتبة مرجعيّة القُرْآن والسنة.

وفيما يتعلق بالعزيز (عزرا) يروي حسين حديثاً بشأن إتلاف نبوخذ نصر لكل نسخ الكتب الخمسة، بيد أنّ عزرا أودعها الذاكرة، والذي مات لدى عودته من الأسر، وبعد مئة سنة، نهض من الموت وأملى الكتب الخمسة. وقد دهش اليهود وقالوا بأنّ ذلك لأنه كان ابن الله. وليس ثمّة مرجع يهودي لهذا الحديث، وبالتالي فإنّ الاتهام ضد اليهود ليس مبرهناً عليه ويمكن رفضه بوصفه اختلاقاً محضاً.

ويشار إلى هذا الحديث في صيغة أخرى في سُوْرَةِ البَقَرَةِ (٢/٢٥٩): ـ

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، قَالَ، « أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟ » فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ، ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ، « كَمْ لَبِثْتَ؟ » قَالَ، « لَبِثْتُ يَوْماً، أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ». قَالَ، « بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ: فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ؛ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ، وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا، ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً).

ويعزوها المفسرون إلى عزيز، الذي روي أنّه مرّ بقرية بأطلال القدس وراوده الشك في ما إذا كانت ستبنى قطّ. وقد اجترحت هذه المعجزة « آية للناس ». (انظر **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٥٠). ويقول البيضاوي بأنَّ عزيز أو الخضر (إلياس). ومُحَمّدٌ يخلط هنا بين عزرا ونَحَمْيَا. ولعلَّ للحكايا أصلاً في بعض الروايات غير الصحيحة التي رُويت لمُحَمّدٍ بصدد رحلة نَحَمْيَا حول المدينة الخربة. (نَحَمْيَا، ٢/١١ ـ ١٦).

[٢٨٧] يقول ابن كثير بأنّ هذه الآية نزلت في وقت صار فيه بني قُرَيْظَة لا عون لهم، برهان لتاريخ هذه الآية الأبكر. انظر **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٥٣٥.

[٢٨٨] يقول حسين في تفسيره لهذه الكلمات « بأنّها أمر صارم بخصوص مسألة مولاة اليهود والمسيحيين ».

اين سخن غايت تهديد در موالات يهود ونصارى (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ١٤٩).

بهذا افترق مُحَمّد أخيراً عن أولئك الذين جاهر بالاحترام لهم في مراحل دعوته المبكرة، والذين أشار إلى كتبهم بإجلال واقتَبَسَ من تعاليمهم كل ما كان حسناً لديه. وإذ حاز الآن على القوة المطلقة، أضحى بوسعه التخلص من كلٍّ من مدَّ يدَ العون له، كما قام بإخضاعهم لسلطانه.[٢٩٠]

لا يمكن الدفاع، رغم أن هذا ما حصل، عن مقولة أنَّ الإِسْلام انتشر بوسائل سلميّة فحسب.[٢٩١] فمن المعترف به أنّ القوة استُعمِلت في الكثير من الأحيان، كما أنَّ بعض أشكال

---

[٢٨٩] يبدو أنّ هذه الآية تناقض بجلاء النّظرة الأكثر تسامحاً:

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ. فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ الله، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً منهَاجاً. وَلَوْ شَاء الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم) سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٤٨/٥).

ويُروى أن البلاء بـ « تعدد الشرائع الملائمة لكلِّ فردٍ، ولكلِّ عصرٍ، أو عهدٍ، بحيث يتم تمييز الطائع من العاصي ».

از شرائع مخلفهٔ مناسب هر عضوى وزمانى قا مطيع از عامى متميـز شـود (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ١٤٨).

لقد أقلقت هذه الآية المفسرين على نحو موجع، إذْ يبدو أنّها تظهر أنَّ اختلافات الدين متعينة من الله، بينما من السياق يجب علينا أن نتوقع بأنها نتيجةً للخطيئة وعصيان البشر. ويشرح التقليديون بأن (**لِكُلٍّ**) لا تنطبق على كلِّ فردٍ، وكلِّ عصرٍ وقبيلةٍ، بل على كل نَبِيّ أُرسلت شريعةٌ إليه؛ وعلى هذا فإنّ المعنى العام للنّص بأنّ الله قد أعطى لكلِّ نَبِيّ شريعةً يجب على أناس ذلك العصر إتباعها ـ لحين نسخ هذه الشريعة، ويجري ذلك مع الأنبِيَاء والأديان المتعاقبة. ولا يستطيع اليهود والمسيحيّون أنْ يتبعوا شرائعهم المتمايزة بعد الآن، ذلك أنها نُسخت وصار الإِسْلام شريعةَ هذا العصر. **خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٥٣٠.

ويقول عبد الله بن عباس بأنَّ (لِكُلٍّ) تعني « كلّ نَبِيّ »، ويشرحها بأنّها « لِكُلٍّ نَبِيّ منكم ». ويترجم المفسران شاه ولي علا محدّث وحسين (لِكُلٍّ) بـ (**هر كروة**) « لكل قبيلة ».

[٢٩٠] من الممتع ملاحظة أنَّ الاتهامات ضد المسيحيّين بأنّهم يعتبرون مريم العذراء الشخص الثالث في الثالوث قد ورد في آخر كل السور: ـ

(وَإِذْ قَالَ الله « يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ الله؟ » قَالَ: « سُبْحَانَكَ! مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ») سُوْرَةُ المَائِدَةِ (١١٦/٥).

ليس مؤكداً إنْ كانت لدى مُحَمّد معلوماتٍ أفضل أو لا، بيد أنّه على كلِّ حال يمكن أن يكون هذا اتهام الافتراق. كان بإمكانه التحقق من الوقائع الصّحيحة للدعوة، ذلك أن الدكتور ب. جالزر اكتشف أوابد مسيحيّة في اليمن، نقش سيروه يبتدئ بالكلمات « بسم سلطة الرحيم ومسيحه وروح القدس » (Zwemer, *Islam*, p. 21). وبالأقل نقول بأنّ مُحَمّداً يقوم بارتكاب سلسلة أخطاء، من الصعب توفيقها مع وحي القُرْآن.

[٢٩١] لم أورد في المتن المقطع ضد الكافرين في سُوْرَةِ البَقَرَةِ (٢) ١٩١ ـ ١٩٣، لأنه ربما يشير إلى الحَجّ إلى مَكّة سنة ٧ هجرية، وفي هذه الحالة هو إقحام متأخر في هذه السُّوْرَة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّه يشير إلى أعداء النَّبِيّ في مَكّة فحسب. نقرأ: ـ

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله) سُوْرَةُ البَقَرَةِ (١٩٣/٢).

يمكننا أنْ نلاحظ أنَّ الفعل (**قتل**)؛ وليس (**جهد**)، وبالتالي فكلِّ الحَجّج مبنية على التأكيد بأنّ (**جهد**) لا تعني في القُرْآن « شن الحرب »؛ بل « ناضل جدياً » ولا تستعمل في مثل هذه الآية، ولا تخفف من قسوة الأمر. وإذا كانت تنطبق على المَكّيين فحسب، فإنّه لا يزال يبرهن على أن إسلام الجَزِيْرة العَرَبِيّة، كان ينتشر بالسيف وليس بوسائل سلميّة فحسب. وهي ليست مجرد حرب أهليّة ضد حكومة قائمة كما هي موصوفة هنا؛

المسيحيّة انتشرت بالقوة. بيد أنّ الفكرة الرئيسية تكمن في أنَّ استعمال القوة لم يكن ليتطابق لا مع روح ولا مع أوامر مؤسس المسيحيّة، في حين أنَّه ينسجم تماماً مع تفكير وتصرفات مُحَمّد الذي كانت وصاياه الأخيرة لقومه حول هذه النقطة واضحة. ومـا دام الإِسْـلام بـاق، فـإن الكلمات التالية ترن في أذني كلّ مسلمٍ تقليديٍّ ﴿ **قَاتَلَهُمُ اللهُ!** ﴾. ليس تراث النَّبِيّ كلمة سلام، بل صرخة حرب ملهبة تُبقي روح التعصب حيةً على مرِّ السنين. إنَّها نهاية محزنة لإنجـاز عمر كامل لرجل عظيم جداً. ويجب الإقرار أنّه، حيثما تعدّل الإِسْلام باتصاله بمجتمعات ذات حضارة متطورة، مثل الهند، فإنَّ روح عدم التسامح التي تغرسها سُوْرَةَ التَّوْبَةِ (٩) قد خفَّـت لدرجة كبيرة. لقد انتشرت بين مسلمي المدرسة الحديثة روح صداقة دافئة نحو أصحاب العقائد الأخرى، وأصبحت أكثر شيوعاً؛ بيد أنَّ ذلك يبقى انحرافاً مرحباً به عـن مبـادئ الإِسـلام المبكرة.

بل حرب دينيّة ضد المَكّيّين الذين لم يكونوا خاضعين للنَبِيّ، بوصفه حاكماً للمدينة، ولم يكونوا يريدون لا قبول حكمه السّياسيّ أو رئاسته الدينيّة.

إنّ هذه النظرة الأكثر اعتدالاً للمقطع، بيد أن مسلمين كثيرين لا يحددون تطبيقها. فهم يرونها دعوة صريحة للجهاد، أو الحرب الدينيّة، في كلِّ العصور. وكثيراً ما يُستشهد بالحديث « **الجِهادُ باقٌ إلى يَومِ القيامة** » باستحسان.

ويروى كذلك أنَّ الآية مئة وثلاثة وتسعين تنطبق على الكلّ ـ باستثناء من يدفع الضريبة المسماة جزية، ومن هو بحلف مع المسلمين؛ بيد أنّه لم يسمح لمشرك بالبقاء في شبه الجَزِيْرة العَرَبِيّة، ولم يتم الإبقاء على حياة المرتدين (**خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ١٣٢). وعلى هذا، سواء في تطبيقها المحدود المحتمل، أو الموسع، فإنَّ هذه الكلمات تظهر بشكل حاسم أن الإِسْلام لم ينتشر بوسائل سلمية.

وفي الآية مئتين وأربع وأربعين (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله) يقول المفسر حسين عنها بأنّها: ـ

در راۀ خداى براى اشكارا كردن دين خداى

« قاتلوا في سبيل الله ليعلم دين الله ». **تفسير الحسين**، المجلد ١، ص ٤٤. وهنا يُروى مجدداً بشكل واضح أنَّ الإِسْلام يجب أن يُعلم بالسيف.

ويقول الترمذي: « قال رسول الله صلعم أُمرت أن أقاتلَ النَّاس حتى يقولوا لا إِلهَ إلاّ الله ». **جامع الترمذي** (طبعة لَكناو، ١٩٠٣) المجلد ٢، ص ٤٦٨.

لشاهد على هذه الروح العدوانية الباقية في الإِسْلام، انظر (*The Moslem World*, July, 1913, pp. 290-305.).

إنَّ كتاب ت. دبليو أرنولد الممتع للغاية (*The Preaching of Islam*) هو آخر المحاولات لإظهار أنّ الإِسْلام انتشر بوسائل سلميّة؛ فالمؤلّف يورد في مستهل كتابه (ص ٣ ـ ٦) كثيراً ـ إنْ لم يكن جميعاً ـ من التعابير اللطيفة التي استطاع إيجادها في القُرْآن. ومن الغريب القول، إنّه على الرغم من استشهاده من هذه السُّوْرَة بالضبط ـ التاسعة ـ فإنه يتغاضى كلياً عن الآيات (٢٩ ـ ٣٥) التي تتعارض بشكل مباشر مع كل برهان هذا الكتاب. ويعتبر ستانلي لِن ـ بول بأن « من الأرجح أن هذه الإدانات المتأخرة تلغي الأحكام الإيجابيّة المعبر عنها في مكان آخر » (*Studies in a Mosque*, p 155). إنّه حقيقي أنّ المسيحيين يقولون إنّ « المسيح ابن الله ». بيد أنّ مُحَمّداً لا يحامي عن ذلك بطريقة سلميّة، بل يقول (قَاتَلَهُمُ الله)، وهذا كان قرب نهاية بعثته وفي عمر متقدم، بأفكار ناضجة للغاية وخططٍ مشكّلة. وفي حديث أورده الواقدي ينص على أنَّ مُحَمّداً وهو على فراش الموت دعا ربه أن يهلك اليهود والنصارى. بيد أنّه ليس من الضروري التأكيد على هذه النقطة في الحديث ذلك أنّه قد لا يكون متمتعاً بمصداقية كبيرة. إنّ الآيات القُرْآنيّة الأخيرة كافية بنفسها ـ مثلما أظهرتُ ـ لتبيان موقف مُحَمّدٍ النّهائيّ العدائيّ المتصلب تجاه كلِّ من اختلف عنه. انظر (Muir, *Life of Mahomet*, vol. iv, p. 270.).

لقد حُرِّمت الآن الصّلاة على الكافرين، حتّى لو كانوا أقارب؛ ورغم ذلك صلَّى إبراهيم على والده قائلاً: ﴿ واغْفِرْ لأَبي إنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ـــ سُوْرَةُ الشُّعَرَاءِ (٨٦/٢٦). لقد نُحي الموقف المتسامح للأيام المبكرة للإسلام جانباً، واستدعت الحاجة لشرح التبديل آية حاولت أن تُسوِّغ موقف التعصب الجديد.

تطورت فكرة الحرب المقدسة وإلزاميتها على كافة المؤمنين بصورة تدريجية. فالنظرية القائلة أن ﴿ الدِّين للهِ ﴾ وأن الإِسْلام هو الدين الأسمى كانت نظرية متشامخة؛ وكلما اتسعت السلطة السياسية، كلما اتخذت الصورة وضوحاً أكبر في ذهن النَّبِيّ الذي وضع الآن جانباً أفكاراً كان قد عَبَّر عنها في الجزء الأخير من الحقبة المكّيّة: ـــ

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ سُوْرَةُ العَنْكَبُوتِ (٤٦/٢٩).

لقد نسي الآن النصيحة الممتازة التي أعطاها ذات مرّة لأتباعه، قبل حوالي سبع أو ثماني سنوات، عندما وصلوا المدينة وكانوا يتحسسون طريقهم نحو اليهود والمسيحيين والوثنيين. قال حينها: ـــ

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢٥٦/٢).[٢٩٢]

---

[٢٩٢] لقد قيل بأنَّ الآية لا تلامس القانون العام بصدد فرض الجزية، وسجن وقتل المرتد، بل تشير إلى حالة خاصة لمسيحيْن، لم يكونا راغبين بأنْ يصبحا مسلمين. « كان لدى شخصٍ يدعى حسين ولدان كانا مسيحيْن، ولم يكونا يرغبان أنْ يصبحا مسلمين، وتظهر هذه (الآية) بأنّه لا إكراه ».

حصين ناسى ايكث مردكى دو لزكى نصرانى تهى اور اسلام بر راهى نهوتى تو ارهاد هواكة دين مين جبرنهين (**خلاصة التفاسير**، المجلد ١، ص ٢٠٢).

يقول حسين بأنّها تشير إلى اثنين من أبناء أحد الأنصار، الذي يدعى أبو الحصين، الذيْن ضللهما عابد نار سوري. وقد رغب الأب باستعمال القوة من أجل تقييدهما؛ بيد أنّ مُحَمّداً منع ذلك وقال له بأنْ لا يتدخل مع أي أحد « شديد التدين ».

ابو الحصين انصارى دو پسر قابل داشت ناگاه ترسائى ازشام بۀ مدينۀ آمد با او مصاحبت نمودند بوجۀ فسون وفسائۀ وى مغرور گشته ودين ترسائى اختيار كردند وهمراۀ او متوجۀ شام شدند ابو الحصين از حضرت رسول دستورى خواست تا برود و ايشان را باكراۀ شرع باز آرد واين آيت نازل شد كۀ إكراۀ مكنيد كسى راكۀ بدينى متدين شدۀ است

وقد أضاف بأنها تنطبق على المسيحيين، واليهود، والمجوس والصابئين، مشترطاً دفعهم الجزية، أو ضريبة الرأس؛ أما فيما يخص العرب ـ الذين لهم دين الإِسْلام ـ فإنَّ ذلك نسخ « بآية القتل » والتي تقول: (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ). سُوْرَةُ البَقَرَةِ (١٩١/٢).

إكراۀ هيچكس را از يهود ونصرانى ومجوس وصابيان ببر آوردن اسلام بشرط قبول جزيۀ ـ گفته اند حكم اين آيت بآيت قتال منسوخ است از تمام قبائل عرب جزدين اسلام قبول نبود (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٤٨).

يقول البيضاوي بدوره (المجلد ١، ص ١٣٢) إنّها نُسخت بالآية التالية: ـ (يَا أَيُّهَا النَّبِيّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٧٣/٩).

لقد أصبح الأمر مختلفاً كليّاً الآن، إذ غدا الإكراه سيِّد الموقف؛ فقد كان بإمكان القائد المكلَّلِ بالنصر اتخاذ المواقف وفرضها على نحو لم يكن متوفراً لمبشرٍ هاربٍ لم يثبت على فكرٍ بعد. « لقد أسكتت نشوة النجاح أفضل ما في نفس مُحَمّدٍ من صوت منذ زمن. فالنَّبِيّ المتقدم بالعمر، وقد أصبح على حافة القبر، ترك وراءه إرثاً أخيراً، أمراً شرعيّاً بالحرب الشاملة. إنّ هذا يستدعي، بشكلٍ لا يقاوَم، وبقوة المغايرة، مقارنته بالكلمات الأخيرة التي تلفَّظ بها لتلاميذه معلمٌ دينيٌّ آخر، بأنّ عليهم أنْ يمضوا ويعلِّموا إنجيل السّلام إلى الأمم. وليس أقلّ دهشةً اختلاف جوابهم على كلا التكليفين: فالعرب، وبيدهم الأولى القُرْآن والسيف بالثانية، نشروا عقيدته على ضياء حرائق المدن وعويل البيوت المنتهكة؛ أما رسل المسيح فعملوا، وسط ظلمة العالم الرّومانيّ الأخلاقيّة، بقوة النّور اللّطيفة الّتي لا تقاوم، وأرسوا أسساً جديدة للمجتمع، مطهرين ينابيع الحياة الوطنيّة والعائليّة الملوثة من منابعها »[٢٩٣].

صُور اليهود في الآية المئة والتاسعة من السُّوْرَةِ الثّانيةِ على أنّهم راغبون بضلال المسلمين الذين قيل لهم أنْ يكونوا صابرين وعافّين: ــ

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً، حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم، مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ. فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ. إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/١٠٩).

يقول المفسِران معلِّم ومزهر إنَّ اليهود أطالوا اللسان على المسلمين، بعد هزيمة أُحُد، قائلين إنّها برهنت على زيف ديانتهم؛ وقد كان على المسلمين التحلّي بالصبر حتى يقوم الأمر بقتلهم. وقال مفسرون آخرون بأنّها منسوخة بآية الجهاد.[٢٩٤]

يفسر حسين عبارة ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾[٢٩٥] على أنّها تعني « حتى يأتي الله بأمر قتلهم أو فرض الجزية عليهم ».

من الواضح إذاً، إنّه ليس ثمة مبدأ تسامح عام موضوع هنا. فبالنسبة للعرب هو أمر غائب كليّاً، ويُسمح لأهل الأديان الأخرى بالعيش بشرط دفع الجزية، وبالتالي فحتى في حالتهم ليس ثمة من تسامح.

إنّه لأشدّ الضرورة التحقق من التاريخ الخاص لكلِّ أمثال هذه الفقرات اللطيفة وكذلك الآيات الأشدّ قسوة. إنّه لمن الضلال أنْ نجمع كلَّ الآيات الودودة فحسب دون الإشارة إلى تواريخها، أو الظروف التي أُلقيت فيها، كما حصل في بعض الأحيان.

[293] Osborn, *Islam under the Arabs*, p..54.

[٢٩٤] معالم اور مظهر هی كة بعد جنگ احد يهود مسلمانون كو طعن كرتی اور كهتی اكر دين تمهارا حق محمد بيغمبر هوتی تو ايسی شكست نملتی ارشاد هوا جب تک حكم قتال نة اترا صبر كرو مگر دوسری تفسيرون مين ية قصة مذكور نهين هوا اور مشرر مين هی كة مسلمانون كو نهاكتی تهی الله تعاليا نی فرمايا كة تم ابهی صبر كرو اور آيت جهاد سی منسوخ هی. **(خلاصة التفاسير** المجلد ١، ص ٦٢).

من الواضح أنّه، مهما كان مُحَمّد تواقاً لاسترضاء اليهود وقد غدا ضعيفاً إثر هزيمة أُحُد، وكان اليهود يومها مصدر خطرٍ، إلاّ أنّ هذا الموقف كان آنياً ومؤقتاً، ولم تعد المراجع الإسْلاميّة تعتبره ملزماً لها الآن وقد تنزلت « آية القتل ».

لم يذهب مُحَمّد إلى مَكّة في موعد الحَجّ السنوي الاعتيادي لاستمرار وجود وثنيين هناك.[٢٩٦] وعلى هذا أرسل في السنة التاسعة للهجرة أبا بكر على رأس مجموعة صغيرة من الحَجيج. وإذْ صار من المستحيل السماح باستمرار الأمور على حالها، فإنَّ وحياً جاء يحرر النَّبيّ من أي التزام يقضي باحترام العرب الوثنيين. أعطى مُحَمّد الوحيَّ لعليَّ [بن أبي طالب، **م.**] الذي انطلق في إثر أبي بكر والحُجَّاج، فانضم لمجموعته في مَكّة. ومع نهاية الحَجّ، تلا عليُّ الوحي الذي أعطاه إياه مُحَمّد كرسالة الله، على حشدٍ كبير من الحجيج العرب المجتمعين.[٢٩٧] وكانت الكلمات الافتتاحية: ـــ

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ.
فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ؛ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ، وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ.
وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ، أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ.[٢٩٨] فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ؛ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ، فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.
إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً، وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً. فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.

---

[٢٩٥] تا وقتيكۀ بيار خداى فرمان خود راكۀ حكم است بقتال سا امر بجزيـۀ (**تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ١٨).
ويشرح البيضاوي (بِأَمْرِهِ) بأنها « الذي هو الإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم أو قتل بني قُرَيْظَة وإِجلاء بني النَّضير، وعن ابن عباس أنه منسوخ بآية السيف ». البيضاوي، المجلد ١، ص ٧٩.

[٢٩٦] « لدى حلول شهر آب (أغسطس) وقد بلغه من عامله أنّ عابدي الأوثان كانوا على ديدنهم في الطواف حول بيت الله بنفس المظهر الذي كانوا عليه في الجاهليّة وفي حالة العري الكاملة، فإنّه كان مشمئزاً للغاية بحيث شعر بعدم رغبة بالمجيء والاحتكاك بهم بنفسه ». **روضة الصفا**، الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٦٧٣.

[٢٩٧] يروى أنّ عليّاً أوضح لهم بأنّه لا يمكن أن يكون ثمة معاهدة وسلام بين الكافرين والمؤمنين، بين عابدي الأصنام، وعابدي الواحد، وأنه لن يكون في الجنّة أحد سوى المسلمين. **خلاصة التفاسير**، المجلد ٢، ص ٢١٥.

[٢٩٨] يترجم حسين العبارة (أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) بـ: خدا بيزار است از مشركين وعهود ايشان و پيغمبر است. أي: « إنَّ الله في حلٍّ أو معفى من أيِّ عهدٍ مع المشركين، ورسوله كذلك ». **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٤٧.

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ، فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ، وَخُذُوهُمْ، وَاحْصُرُوهُمْ، وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ؛ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ، وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ، فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩/١ ــ ٥).

ثمّة تناقض بين الآية الأولى والبراءَة التي أعلنها مُحَمّدٌ والتّحلّل من إتمام العهود، وبين الآية الرابعة التي تتحدث عن العهد مع المشركين الودودين. إنَّ تفسير ذلك، على الأرجح، أنّه لم يعد بالإمكان السماح للمشركين بالحج إلى مَكَّة بعد الآن، غير إنَّ المعاهدة معهم، في نواحٍ أخرى، تبقى سارية. استمع الحَجّاج المشركون إلى كلِّ ما كان على عليٍّ قوله، بما في ذلك النص التالي: ــ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ! إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ! فَلاَ يَقْرَبُواْ (أي الوثنيين) الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (٢٨/٩).

كان هذا الأمر واضحاً للغاية، تدعمه الآن قوةُ ماديّة ليس بالوسع حيالها سوى الخضوع، وهذا ما قام به العرب عندئذٍ.

لقد انتهت المعارضة الآن بشكل تام، وتطهّرت الكعبة من كلِّ الرّوابط الوثنيّة ولم يعد يُسمح لغير المؤمنين بدخولها؛ وفي هذه السّنة العاشرة للهجرة، عزم مُحَمّد على القيام « بالحَجّ الأكبر ». لقد تناقلت الأخبار أنَّ أكثر من مئة ألف شخص كانوا بانتظاره. وبعد الانتهاء من الطواف، رجع مُحَمّد إلى مقام إبراهيم حيث طلب من المؤمنين اعتباره مصلى، ومن ثَم تلا سُوْرَةَ الفَاتِحَةِ، وبعدها سُوْرَةَ الكَافِرُونَ (١٠٩) فسُوْرَةَ الإِخْلاَصِ (١١٢). ثُم أنجز بأشد درجات العناية كامل الشعائر، بما في ذلك تقبيل الحَجَر الأسود، وشرب الماء من البئر المقدّس، وجميع الطقوس الوثنيّة القديمة الأخرى.[٢٩٩] وقد أُغتُنِمت المناسبة لإلقاء خطاب على الحاضرين تناول مواضيع الميراث، الزنى، معاملة النساء وجاء فيها ﴿ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبَاً غَيْرَ مُبَرِّحٍ ﴾، العبيد ومساواة المسلمين؛ كما أبطلَ جزءٌ من سُوْرَةِ التّوْبَةِ (٩)[٣٠٠] كبس كلِّ ثلاث سنوات شهراً من أجل تكييفها للسنوات الشّمسيّة، وحُدِّد موعد الحَجّ حسب تغيرات فصول السنة القمرية. لقد كان لهذا التغيير أثر كبير على التّجارة في مَكّة، رغم أنّ فريضة

[٢٩٩] ينص حديث على أنّ مُحَمّداً قال: « أيّها النّاس، اسْمَعُوا مِنْ قَوْلي فَاعْقِلُوهُ؛ فَإنّي لا أدْري، لَعَلّي لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هذا، في هَذَا الْمَوْقِفِ » الواقدي، استشهد به موير في (*Life of Mahomet*, vol. iv, p. 234).
لقد أدى أول ثلاث أشواط، بسرعة وأما الرابعة فببطء. (**روضة الصفا**، الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٦٩٦). ومازال هذا الطقس سارياً اتباعاً للسنة النبويّة.
[٣٠٠] الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.

الحَجّ، بعدد الحُجَّاج الكبير الذي تجلبه إلى المدينة، قد عوضت المَكّيّين إلى حدٍ مــا. « كــان كبس الأشهر في السّابق يجري بشكلٍ لاعلمي بهدف أن تتوافق الأشهر تقريباً مع الفصــول؛ غير أنّ مُحَمّداً، باعتماده الأشهر الاثنتي عشرة القمريّة، دمَّر هذا التوافق بشكلٍ تامٍ، ملغياً كلَّ تكيُّف لأشهر الحَجّ مع الحاجــات التّجاريّة.... لقد دُمِّرت تجارة مَكّة أي تدمير ».[٣٠١]

وفي أحد الأيام، صعد مُحَمــّد إلى قمة جبل عرفــات ووقف منتصِباً علــى ناقتــه، وقال: ــ[٣٠٢]

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْــلام دِيناً ﴾[٣٠٣] سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥/٣).

ثم تابع إلى المزدلفة، داعياً لصلاة المغرب وصلاة العشاء بالآذان والإقامة. وقد زار صبيحة المزدلفة منى. ومن ثم انتقل إلى الشعائر التي أجازتها العادات العربيّة القديمة، فرمى الأحجار على أنصاب معينة في وادي منى وبهذا اختتم الحَجّ.

وبهذا دُمجت هذه الطقوس الوثنيّة واكتمل الدّين الذي تركه نَبِيّ الجَزِيْرة العَرَبِيّة لأهل بلده والذي أبطلَ ونسخَ كلَّ الأديان السّابقة.

وتحتوي سُوْرَةُ الحَجِّ (٢٢) على الآيات التي تفرض أداء الحَجّ. نقرأ: ــ

---

[٣٠١] Margoliouth, *Mohammed*, p. 393. [كان هذا يُسمى **النَّسِيء**، والذين كانوا يتولون هذه المهمة كان يسمّون **النَّسأة. ـ المترجم.**]

[٣٠٢] **روضة الصفا**، الجزء ٢، المجلد ٢، ص ٦٩٦.

[٣٠٣] يقول عبد الله بن عباس بأنّها تعني: « لقد شرحت لكم الشرائع بخصوص ما حلّل وما حرّم، والوصايا الإيجابية والسلبيّة ـ وبعد ذلك اليوم لن يأتي مشرك إلى عرفات ومنى أو يقوم بالطواف حول الكعبة، أو يسعى بين الصَّفَا وَالْمَرْوَة ».

وبصدد هذه الآية الثالثة من سُوْرَةِ المَائِدَةِ يقول حسين: ـ

امروز كامل گردانيم براى شما دين شما راكهٔ ديگر احكام اورا رقم نسخ نخواهد بود وتمام كردم برشما نعمت خود راكهٔ حج گذاريد ايمن ومطمئن باشيد وهيج مشركى با شما حج نگذارد واختيار كردم براى شما اسلام را دينى كهٔ پاكيزه تر از همهٔ دينها

« اليوم أكملت لكم دينكم، وبهذا لن تنسخه شرائعُ أخرى، وأتممت لكم نعمتي بحيث تؤدون الحَجّ، وتكونون في مأمن وسكينة. ولا يُسمح للمشركين بالحَجّ معكم، وقد رضيت لكم الإسْلام ديناً أنقى من سائر الأديان ». **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ١٣٧.

ويشرح البيضاوي (أتْممتُ) بنفس الطريقة و(نعمتي) هدياً، أو نعمةً، أو إتمام الدين. المجلد ١، ص ٢٤٧.

وقيل في **خلاصة التفاسير** بأنّ نظرة المفسرين يمكن أن تلخص على النّحو التالي: « ليس ثمة في ديننا خلل من الأساس أو في الوحي: وليس ثمة حاجة إلى عقائد (أخرى): لا مجال للتحسين أو النسخ ». المجلد ١، ص ٤٨٨.

ويقول مولوي مُحَمّد علي: « لقد كان مُحَمّدٌ آخر الأَنبِيَاء لأنَّ الدين اكتمل ولم يعد من حاجة لنَبِيّ بعده » (*Holy Qur'an*, p. 253.).

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجّ.
ثُـمَّ لْيَقْضُوا تَفَـثَهُم، وَلْيُوفُوا نُـذُورَهُمْ، وَلْيَطَّوَّفُـوا بِالْبَيْـتِ الْعَتِيـقِ **(الكعبة)**.
لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّىً: ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيـقِ ﴾ سُـورَةُ الحَجِّ (٢٢/٢٧، ٢٩، ٣٣).

هذه السُّوْرَة متبعّضة، تنزّل جزء منها في مَكّة وآخر في المدينة. وليس مـن السـهل تحديد زمن تنزل هذه الآيات التي تم الاستشهاد بها للتو، لكنها على الأرجـح آيـات مَدَنيّـة، جاءَت في زمن العمرة ــ أو الحَجّ الأصغر ــ التي أُديت في السّنة السادسة للهجرة.

على أيِّ حالٍ، فإلى جانب الوصايا المعطاة خلال السّنوات السّابقة، صادق مُحَمّدٌ الآن على ما قام به، وبالتالي صار الحَجّ أحد الفرائض الدّينيّة على كلِّ مسلم. كان هـذا الإجـراء يومها أمراً سياسيّاً دون أيّ شكٍ؛ فالاعتراف بالحرم الوطني مركزاً للإِسْلام واللقاء السّـنوي للعباد في الحجِّ كسِبا مشاعر كافة العرب وخاصة قُرَيْش التي تقطن مَكّة. لقد كان الحجُّ الرابطَ الوحيدَ الذي تشارك فيه العرب مع المسلمين، وقد أرضاهم استمراره وجذبهم صوب الإِسْلام. كما كان أمراً حكيماً، من وجهة نظر مُحَمّد آنذاك، الاحتفاظ بشعائر الحَجّ القديمة.[٣٠٤] فقد كانت الكعبة، بكلِّ ما يتصل بها، موضع توقير للعرب قاطبةً، وكانت المشاعر المتصلة بها الوسيلة الأنجع لتوحيد مختلف القبائل العربيّة، المفككة منذ زمن طويل، في اتحاد واسع من أجل غاية عظيمة مشتركة. بيد أنَّ هذه الشّعائر أثبتت أنّها مصدر ضعف، إذْ أنّها تشدد على حقيقـة أنّ الإِسْلام انطلق وتأسّس ديناً قوميّاً، والقواعد والشرائع التي وُجِـدت لتتكيَّـف مـع حاجـات ومتطلبات عرب القرن السابع ما زالت مُلزِمة لمجتمعات متنوعة في القرن التاسع عشر. لقد سـاعدت هذه الشعائر على إبقاء الإِسْلام ديناً جامداً. « إنّ قبضة مؤلف القُرْآنِ الميت، الضيق النظر، تمسك بحلق كلّ أمة إِسْلاميّة، وهذا الإدعاء يجعلها ــ الديانة الإسلامية ــ مُمِلَّة بنظر كلِّ من درس الأديان الأخرى. إنّها تحمل علامات عدم النضوج في كلِّ جزءٍ منها، وتبرهن،

---

[٣٠٤] « إنَّ توقير العرب العام للكعبة كان إيجابيّاً للغاية ووسيلة واضحة لوحدة القبائل في اتحاد واحد على هدف مشترك في النظرة... لقد وجد مُحَمّد آنذاك مكاناً مقدساً، عُبد من سحيق الزمن أيضاً؛ لقد كان الأمر الوحيد الذي اشترك فيه أهل الجَزِيْرة العَرَبِيّة المبعثرين ـ الشيء الوحيد الذي أعطاهم حتى ظلاً من المشاعر القومية؛ وإنَّ الحلم بإلغائه، أو حتى التقليل من مظاهر تكريمه، سيكون جنوناً ومؤذياً لمشروعه » (Palmer's *Qur'an*, Introduction, p. liii.).

« بالتالي، لم يكن أمراً يدعو للاستغراب، بل مسألة يجب أنْ يكون توقعها أمراً معقولاً، ذلك إنّه في حالة مواطن من مَكّة، كان على إدراك لفكرة تأسيس سلطة على قبائل الجَزِيْرة العَرَبِيّة المشتتة، وتوحيدها بظل حكومة مركزيّة، فإنّ عليه أنْ يستفيد من الوسائل الموجودة من قبلُ والتي كان معتاداً عليها من الشباب. إنّ مُحَمّداً بنظرة عملية عظيمة ودهاء قبض على هذه الأفضلية وأبقى على المعبد الوثني لمدينته مركزاً محليّاً للإِسْلام » (Koelle. *Mohammed and Mohammedanism*, p. xix).

بفروضها الصغيرة وأوامرها المفصّلة وطقوسها واحتكامها للتخويف، على أنّها ديــن لعــرق بشري ما زال في طور الطفولة ».[٣٠٥] إنّ حجرَ الأساس في هذه العقيدة هو الحَجَــر الأســود الذي كان في المعبد الوثني، وقيل إنَّ زيارة هذه الأمكنة وأداء الشّعائر الدّينيّة فيها هما الطريق الأضمن للخلاص. « مقيدان إلى الحَجَر الأسود في البرية المقفرة، يبدو وكأن قلــب وعقــل العالم الإسْلاميّ قد صارا يشبهان المواضع التي يبجلانها. والندى المنعش وشروق الشــمس، اللذان يخصبان كلَّ شيءٍ آخر، يجهدان عبثاً لإحياء أي شيءٍ هناك ».[٣٠٦]

كل هذا صحيح تماماً بشأن العائق الذي يضعه الحَجّ في طريق أيِّ إصلاحٍ تنــويريٍّ، هذا الإصلاح الذي لا يمكن أن يتمَّ إلا بظهور مؤسسات إسْلاميّة قادرة على التكيُّــف. وبقــاء فريضة الحَجّ تُظهِر أن هذه المؤسسات ما زالت غير قادرة على الإصلاح؛[٣٠٧] بيد أنــه، مــن ناحية أخرى، وَجُب الاعتراف بإن الاحتفاظ بالحَجّ قد أفضى إلى صيانة التقليديّة الإسْــلاميّة، وبَعَثَ إيمان المؤمنين من حين لآخر، كما أظهر لملايين المسلمين، على مرّ القرون، كيف أنّ الإسْلامَ مُوَحِدٌ في أمم متآخية عظيمة مختلفة اللغات والألوان والصفات، وقد ولّد فــيهم حبــاً شديداً لذكرى نَبِيّهم.[٣٠٨] « إنَّ مَكّة بالنسبة للمسلمين مثل القدس بالنسبة لليهود؛ فهي تحمل كل تأثيرات وروابط القرون، وتنقل المسلم إلى مهد إيمانه وطفولة نَبِيّه؛ كما تذكره بالصراع بين الدين القديم والجديد وإسقاط الأصنام وتنصيب الله الواحد. والأهم من كلِّ هذا أنّها تجعله يتذكّر أنّ كلَّ إخوانه المسلمين يتعبدون الأماكن المقدسة نفسها، وأنّه جزءٌ من مجمــوع المــؤمنين، موحدين بالإيمان، ممتلئين بالآمال عينها، يوقرون الأشياء ذاتها ويعبدون الله الأوحد. لقد أظهر مُحَمّدٌ معرفة بانفعالات الإنسان الدينيّة عندما احتفظ بقدسية معبد مَكّة ».[٣٠٩] إذاً، بطريقة مــا، يقوّي استمرار الحَجّ المنظومة التقليديّة في الإسْلام، مما يُقلِّل الأمل بإصلاح وتقدم تنــويري. ومن هذه المنطلق، كان تبني الحَجّ الوثني في المنظومة الإسْلاميّة تنازلاً ضعيفاً تجاه عواطف الوثنيّين، وخطأً مهلكاً بالحكم.

---

305 Dods, *Muhammad, Buddha and Christ*, p. 124.

306 Osborn, *Islam under the Arabs*, p. 83.

٣٠٧ الحَجّ فريضة عين. يقول مولوي رافع الدين أحمد في **القرن التاسع عشر** تشرين الأول (أكتوبر)، ١٨٩٧، « الحَجّ يطّهر قلوب الناس ويجعلهم كيوم ولدتهم أمهاتهم ».

٣٠٨ يبدو أنَّ فريمان أغفل هذه النقطة عندما قال « إنّ مُحَمّداً لم يرتفع على العبادة المحليّة أو لم يشأ ذلك؛ ولهذا كان لديه مكان مقدس، مكان للحج. لقد تحدر من سدنة الكعبة، لقد كان هدف حياته أنْ يعيد تبجيل المعبد إلى غايته الحقة، لإخراج الأصنام من المكان المقدس لإبراهيم وإسماعيل. إنّ حبه التّقليديّ متعلق بهذا بشدةٍ، فتبّنى من عبادتها المحليّة شعائر عديدة غريبة وخرافية، تبدو على خلاف بشكل غريب مع شعائر المسلمين المعقولة والمحتشمة. إنّ هذا بين العرب ـ أبناء إسماعيل ـ إنْ لم يكن عقلانيّاً، فهو على الأقل طبيعي. بيد أنّه لِمَ يجب على الفرس، والمغاربة، والأتراك والهنود، الغرباء عن سلالة إبراهيم، أنْ يُرسلوا للعبادة في مكان مقدس تعود فيه كلّ روابطه إلى أمة أخرى » (*History and Conquest of the Saracens*, p. 52.).

309 Stanley Lane-Poole, *Studies in a Mosque*, p. 96.

يقودنا هذا إلى ختام الأحداث التّاريخيّة الرئيسيّة كما أشار إليها القُرْآن، بيـد أنّ ثمـة قضايا عديدة لم نتطرق إليها. فالقضايا السّياسيّة كتشكيل المعاهدات، سـلوك غيـر المـوالين ومعاملة الحلفاء، كلها أمور تجد لها الآن مكانـاً في القُرْآن. كما أن القضايا المَدَنيّـة، مثـل قوانين الزّواج، الطّلاق، الميراث، البيّنة، الوصايا وغيرها هي أيضاً عالجها القُرْآنُ، وقد غدا مدونة تحتوي على قواعد وأنظمة الحكومة الثيوقراطية.[٣١٠] هذه القضايا بمعظمها وردت فـي السور المَدَنيّة. فالسُّوَر الثانية والرابعة والخامسة تتساوى بالطول إلى حوالي جزء من سـبعة من القُرْآن، وتعالج بشكل كامل الواجبات الدينيّة والمَدَنيّة والأنظمة الجزائيّـة. إنّـه لمـوطن ضعف في الإِسْلام أنْ يُدَّعى القُرْآنُ في كلِّ هذه القضايا وحيّاً نهائيّـاً تامّـاً. فهـو لـيس ــ كاليهوديّة ــ منظومة محليّة ومؤقتة، يقود البشر نحو الحقيقة المتكاملة؛ بل إنّه يؤكد نفسه ديناً عالميّاً ونهائيّاً. وربما كانت بعض شرائعه حصيفة، كوسيلة مؤقتة لأعراق غير متمدنة، بيـد أنّها لا تُحْتَمل عندما « تنادي بأنها صوت الضمير المطلق ».

لقد قيل « إنّ قواعدَ السلوك الدينيّة والأخلاقيّة والمدنيّة للقُرْآن باهرةٌ إذا ما خُصَّ بها العرب الوثنيّون حصراً؛ وخطأ مؤلـِّفها أنّه نقلها إلى آخرين غير العـرب الـوثنيين ». إنّ الإصلاح المحمديّ رُفِّع إلى منظومة إلهية غير قابلة للتغيير، سدَّت الطريق، وما زالت، بشكل فعّال أمام إصلاح أعظم وأكثر ديمومة. وفي كل هذا، أظهر مُحَمّدٌ مدى جهله؛ ذلك أنّه مـن الصعب الافتراض بأنَّ مُحَمّداً كان داريّاً بأمور الحُكْمِ أو قـوانين الإمبراطوريّـة الرّومانيّـة العظمى؛ كما أنّه، وبكلّ تأكيد، كان جاهلاً للتعاليم الحقيقيّة ليسوع المسيح. فلو كان على دراية بهذه الأمور، لأدْرَك مدى تفوّق المنظومة الحقوقيّة التي سعى إلى اسـتبدالها، ومـدى سـموِّ الأخلاقيات المسيحيّة التي سعى إلى إستبعادها. ويلاحظ مؤرخ عظيم: « إنّ إنسـاناً مخلصـاً وصالحاً، من أعظم المصلحين والمحسنين في قومه، مبشراً كان ومشرّعاً للحقيقة والحضارة، هذا الإنسان أعاق، أكثر من أي كائن فانٍ آخر، تقدّم الحقيقة والحضارة. فبثوب المصلح الديني كبح ترقي المسيحيّة؛ وبثوب المصلح السياسي أوقف ترقّي الحريات والحكـم المـنظم بكـلٍّ أشكاله؛ وبثوب المصلح الأخلاقيّ أقر مبادئ تعدد الزوجات والعبوديّة ».[٣١١]

---

[٣١٠] على الرَّغم مِن أنَّ ستانلي لِن ـ بول يكتب بإعجاب عن مُحَمّدٍ، إلاّ أنـّه يقول بصدد هذا الموضوع: « إنَّ الإِسْلام لسوء الحظ منظومة اجتماعيّة كما أنه دينيّة؛ ومن هنا تكمن الصعوبة العظمى في تقدير تـأثيره الجيد والسيئ في العالم بشكل عادل...

ففي كل الأقطار المتمدنـة والغنيـة مارست المنظومـة الاجتماعيّـة للإِسْلام تـأثيراً مدمّراً علـى كلِّ الطبقـات، وإذا كان ثمة مستقبل عظيم للعالم الإِسْلاميّ، فإنّه يجب الاستغناء عن هذه المنظومة الاجتماعيّة » (Lane, Selections from the *Kur'an*, pp. lxxxviii, xcix.).

[311] Freeman, *History and Conquests of the Saracens*, p. 59.

كما قيل عن حق: « كان في مَكّة نذيراً وداعيّاً، وفي المدينة مشرعاً ومحارباً، أمــر بالطاعة واستعمل كافة الأسلحة غيرَ قلم الشاعر والكاتب. فإذا ما تكاثر عليه العمل كما فـي المدينة، فإنَّ الشّعر أخلى المكان للنثر؛ ورغم بعض اللمسات الشّعريّة المتبقية، وقد كان عليه أن يدفع عن نفسه حتى حقبة متأخرة تهمة كونه مجرد شاعر،[٣١٢] فإنّ الشعر كان نـادراً فـي سور المدينة. « وتفاجئنا عبارات مثل ــ أَطِيعوا الله ورسوله ــ الأَنْفَال لله ورسوله ــ وَلِيِّكُم الله ورسوله ــ تحكى بنبرة واحدة، بنفس الصفات والنعوت، وما ينطبق على الله ينطبق على رسوله بشكل مباشر ».[٣١٣]

إنَّ عبارة « الله ورسوله » شائعةٌ للغاية في السّور المَدَنيّة وخاصةٌ بها.[٣١٤] لقد انتقـل النَّبِيّ الآن من كونه داعيّة ونذيراً إلى حاكم دولة ثيوقراطية، تصدر أوامـره ــ بخصـوص مسائل كثيرة ومتنوعة ــ حاملة مصادقة السلطة الإلهيّة. وُصف الكافرون على أنّهـم غيـر المؤمنين الذين تولّوا عن وحي الله، أما للمؤمنين فقيل: ــ

﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ سُوْرَةُ التَّغَابُنِ (٦٤/٨).[٣١٥]

كما وضعت معارضة الله ومعارضة النَّبِيّ في المنزلة نفسها، واستحقت كلتاهما عقوبة متساوية: ــ

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَـابِ ﴾ سُـوْرَة الأَنْفَـال (٨/١٣).

ودُعي المؤمنون إلى سلوك مسار مختلف: ــ

﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ[٣١٦] وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ.

---

[٣١٢] سورة يس (٣٦/٦٩).

[313] Rodwell, *Qur'an*, Introduction, p. 10.

[٣١٤] ثم استثناء واضح، ذلك أن هذه العبارة وردت في سُوْرَةِ الأَعْرَافِ (٧/١٥٨).
إنّها سُوْرَة مَكّيّة متأخرة، بيد أنّ الآيات ١٥٦ ـ ١٥٨ إقحام ظاهر من وحي متأخر. ويبدو أنّ أصلها المَدَنيّ جلي من استعمال مصطلح (**النَّبِيّ الأمِّيّ**). إنّ هذه عبارة مَدَنيّة متميزة. ويظهر التلميح إلى (التَّوْرَاة وَالإِنْجِيلِ) أصلها المتأخر. كما أنّ ثمّة إشارةً إلى الذين (**عَزَّرُوه ونَصَرُوه**) وهي إشارة واضحة إلى الأنصار، يقول حسين (المجلد ١، ص ٢٢٢) بأنّ (نَصَرُوه) تعني يارى دادند اورا بر دشمنان ـ « الذي أعانوه ضد أعداءٍ »؛ ويقول عبد الله بن عباس بأنّهم الذين ساعدوه بالسيف. ويظهر أنّ هذا يحسم مسألة التّأريخ المتأخر لهذه الآيات؛ وحقيقة تلائم السياق، وأكثر اتساقاً من تأريخ أبكر. انظر نِلدِكه (*Geschichte des Qorāns*, p. 118).

[٣١٥] يقول حسين إنَّ (النّور) هو القُرْآن الذي يُدعى ذلك، « لأنه إعجاز، والموضع الذي نجد فيه الحقائق فيما يتعلق بالأوامر الخاصّة بالحلال والحرم ». **تفسير الحسيني**، المجلد ٢، ص ٤٠٦.

[٣١٦] ليس واضحاً إن كانت (وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ) تشير إلى الله أو الرسول.

وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ سُوْرَة الأَنْفَال (٢٠/٨، ٤١).

وغالباً ما احتاج المؤمنون إلى تشجيع في الحرب، فيؤمرن بالثبات أمام العدو، بيد أنّ شرط النجاح هو: ــ

﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ سُوْرَة الأَنْفَال (٤٦/٨).

﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ سُوْرَةُ النِّسَاءِ (٨٠/٤).

وليس بوسع الكافرين إلحاق الضرر باللهِ، ذلك إنّه سَيُحْبِطُ أَعْمَالهم: ــ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ سُوْرَةُ مُحَمَّدٍ (٣٣/٤٧).

إنَّ تذكُّر من له مُلْكُ السّموات والأرض، الذي يُولجُ اللَّيْلَ في النَّهَار، ويُولجُ النَّهَارَ في الليل، والعليم بذات الصدور، يجب أنْ يقود الناس إلى: ــ

﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ سُوْرَةُ الحَدِيْدِ (٧/٥٧).

والرجال الأتقياء يؤتهم الله كِفْلَيْن من رحمته ويجعل لهم نوراً يمشون بـه، الـذين آمنوا بالله ورسوله: ــ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ سُوْرَةُ الحَدِيْدِ (٢٨/٥٧).

ويقول حسين بأن الفقرة تعني: -

وبر مگرديد واعراض مكنيد از امر بطاعت يا از جهاد يا از فرمان خداى يا روى مگردانيد از رسول چه مراد از آيت امر ست بطاعت بيغمبر ونهى از مخالفت او ذكر طاعت حق تنبيه ست برانكهٔ شما ميشنويد طاعت حق تعالى در طاعت رسول او ست

« لا تولّوا أو تعترضوا على أمر الطاعة؛ أو الجهاد أو على أمر اللهِ: لا تولّوا عن النَّبِيّ. إنّ معنى الآية، هو أمر الطّاعة للنَبِيّ وتحريم مخالفته. وإنَّ ذكر الطاعة لله تذكير لهذا المعنى، بأنَّ الطاعة لله تعالى هي الطاعة لنَبِيّه ». **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٣٦.

ويقول ابن عباس بأنها تعني « عن أمر اللهِ ورسولِه ».

وعندما رأى المؤمنون أنَّ رجالَ مَكّة يحاصرون المدينة وأنّهم لا يقاتلون إلا قلــيلاً، قالوا: ــ

﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ سُوْرَةُ الأَحْــزَابِ (٢٢/٣٣).

وسيُمنح ثواباً عظيماً في الحياة الآخرة من يتطلّع إلى اللهِ ورسولِه: ــ

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَة، فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِــنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ سُوْرَةُ الأَحْزَابِ (٢٩/٣٣).[٣١٧]

وسُيلعن في الدنيا والآخرة: ــ

﴿ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ سُوْرَةُ الأَحْزَابِ. (٥٧/٣٣).[٣١٨]

سيأتي اليوم الذي تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ في النَّارِ، وفي خضم عذابهم المر سوف يســتعيدون الماضي ويقولون: ــ

﴿ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ﴾ سُوْرَةُ الأَحْزَابِ (٦٦/٣٣).

والذين آمنوا لبعض الوقت، ومن ثمّ تولّوا، لن يكون بوسعهم الهرب من العقوبة التي يستحقون، ولذلك قيل: ــ

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ سُوْرَةُ النُّورِ (٤٨/٢٤).

---

[٣١٧] إنَّ هذه الكلمات تنطبق على زوجات مُحَمّدِ اللاّتِي طالبن بأكسية ونفقات لم يكن قادراً على توفيرها. ويروي صحيح مسلم أنّ أبا بكر وعُمَرَ قد وجدا النَّبِيّ مطوقاً بزوجاته الطاهرات، يطلبن منه النفقات. وقد كان صامتاً ومثاراً، فعبر عن شكواه لأبي بكر وعمرَ. فضغط أبو بكر على عنق عائشة، وعمر على حفصة، ووبخاهما على سلوكهما. وقد بقي النَّبِيّ بعيداً عن نسائه لمدة تسعة عشر يوماً. وبعد ذلك جاء وحي، يحذر النّساء بأنَّ من الأفضل لهنَّ أنْ يخترن النعم السّماويّة على المتع الزائلة للدنيا. **خلاصة التفاسير**، المجلد ٣، ص ٥٤٦.

[٣١٨] ينص معالم على أنّ ابن عباس قال بأنّها تشير إلى اليهود الذين يقولون إنَّ العزيز (عزرا) ابن الله، والمسيحيين الذين يقولون إنَّ المسيحَ كان ابن الله ومشركي مَكّة الذين اعتبروا الملائكة بنات الله. إنّ « لعنة الله » عليهم جميعاً.

ويورد نِلدِكه في **مسودات التّاريخ الشرقي**، الفصل الثّالث، بصدد القُرْآن، بمعرفة كبيرة وفطنة نقديّة، نظراته بصدد بدء، وأصول، وتطور وأسلوب القُرْآن. وهي أحد أفضل النصوص بصدد هذا الموضوع الهام وتستحق دراسة مركزة.

في السُّوْرَة قبل الأخيرة، حُض المؤمنون على عدم السماح لعوامل كالثروة والعائلة والمنزل بإبعادهم عن الله ورسولِه اللذيْن وَجُبَ أن يكونا أشد عِزّة من كل ما عداهما. ويظهر تحذير أخير شدة مرارة المشاعر ضد المعارضة، هذه المشاعر التي ترسّخت في ذهن النَّبِيّ مع مرور الزمن: ـــ

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فيها ﴾[٣١٩] سُوْرَةُ التّوْبَةِ (٩/٦٣).

﴿ إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً، أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ سُوْرَةُ المَائِدَةِ (٥/٣٣).

يدّعى مُحَمّد، في الآية ما قبل الأخيرة من السُّوْرَةِ التاسعة، بعض الصِّفات التي تنسب عادة للهِ: ـــ

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ: حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ سُوْرَةُ التّوْبَةِ (٩/١٢٨).[٣٢٠]

كان هذا غيض من فيض في هذا المجال. فالربطُ ووضع سلطة النَبِيّ على قدم المساواة مع سلطة الله؛ والدعوة القوية للطاعة نفسها؛ والإعلان الجلي بالعقاب على عصيان أوامره وأوامر الله، كلّ هذه علامات مميزة لإدراك مُحَمّدٍ لقوته المتنامية في المدينة، مما دفعه لاتخاذ مواقفَ ما كان ليتجاسر على اتخاذها، وهو لم يتخذها على أي حال، في الأيام الماضية عندما كان يقطن مَكّة.

[٣١٩] يقول مجاهد إنَّ المنافقين سخروا من النَّبِيّ فيما بينهم وبعضهم قال: « ماذا سيجري هل سيعاقبنا ولم تأت آية من السماء ». **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٦١.

[٣٢٠] على أيِّ حال، أنَّ نِلدِكه مستنداً إلى تفسير الزمخشري وإتقان جلال الدين السيوطي يعتبرها مَكّيّة. (*Geschichte des Qorāns*, p. 169.).

ويقول حسين بصدد هذه الآية (حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) تعني: -

حق سبحانهٔ هيچ پيغمبرى را يكجا بدو اسم از اسماى خود اختصاص نداد مگر پيغمبر ما را

« إنّ اللهَ سبحانه لم يميّز أيَّ نَبِيّ بالتساوي باسمين من أسمائه الخاصة سوى نَبِيّنا ». **تفسير الحسيني**، المجلد ١، ص ٢٧٥.

« قال عكرمة بصدد النَّبِيّ ‹ لقد دُعيت بالضبط ما دعا الله نفسه، الرءوف الرحيم › ». **خلاصة التفاسير**، المجلد ٢، ص ٣٢٧.

كان أسلوب السّور المَدَنيّة مختلفاً تمام الإختلاف عمّا سبق. فاللّغــة نثريّــة والاتقــاد الشّعريّ البارز في السّور المَكّيّة المبكّرة قد ذوى؛ غير أنّ ثمّة مقاطعَ ذات جمــالٍ كبيــرٍ، لا يمكن لأيّة ترجمة أنْ تفيها حقها، مثل: ــ

﴿ اللهُ! لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ؛
الْحَيُّ، الْقَيُّومُ.
لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ، وَلاَ نَوْمٌ.
لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ.
مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ؟
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ، إِلاَّ بِمَــا شَاء.
وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ،
وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا،
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ سُوْرَةُ البَقَرَةِ (٢/٢٥٥).[٣٢١]
﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،
هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ؛
وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سُوْرَةُ الحَدِيْدِ (٥٧/٢ ــ ٣).

إنَّ الترتيبَ العربيّ لمحتويات القُرْآن مرتبكٌ بحيث أنّه لا ينقل إطلاقاً أيّة صورة عن تَطورٍ مُخَطَّطٍ في ذهن النَّبِيّ، كما أنّه يَصْعُبُ كثيراً على القارئ الحصول علــى معلومــات تاريخيّة مفهومة منه؛ بيد أنّه إذا ما تمّ ترتيب السّور حسب تسلسل تاريخيّ بعــض الشــيء، أمكن ــ كما سعينا لتبيانه ــ اقتفاء أثر التّطور التّدريجي للهدف الذي وضعه مُحَمّدٌ فيما خصّ تأسيس منظومة ثيوقراطيّة للإِسْلام. وإذا ما تناولنا القُرْآن على هذا النحو، فإنّه يحــوز علــى أهميّة فاتنة، حيث نرى فيه عملَ امرئٍ ــ مهما كانت نظرتنا تجاه دعاويه ومركزه ــ كــان رجلاً عظيماً دون ريب؛ كما أمكننا ملاحظة تغيّر الأسلوب التّدريجي. إنّ نقادَ القُرْآنِ الــذين ينظرون إليه من وجهة نظر زمنيّة، يلاحظــون كم أنّ السّور الأخيرة مُمِلَّة. وقد قيل عن حق « لولا المرونة البديعة للّغة العربيّة نفسها، والتي كانت من ملامح العهد الــذي عــاش فيــه المؤلِّف أكثر من شخصِه، لكان من الصّعوبة بمكان تحمل قراءَة الأجزاء الأخيرة للقُرْآن مرةً ثانية ». ويقول ستانلي لِن ــ بول « لولا بلاغة اللّغة العربيّة القديمة، التي أعطت شيئاً مــن

[٣٢١] إنّ هذه آية الكرسيّ الشّهيرة.

السّحر حتى لبعض الجُمَل المعقّدة والقصص المملّة، فإنَّ القُرْآن في هــذا العصــر لا يمكــن قراءَته، حيث نشعر بأنّنا انحدرنا من الشّعر إلى النّثر، والمادة النّثريّة ليست عظيمــة بحيــث تعوضنا عن ضياع النّمط الشّعري للزمن الأوّل وتلاشي جمله الموسيقيّة ».[٣٢٢]

[322] Lane, *Selections from the Kur-an*, pp. cv, cvi.

جدولٌ يظهرُ التّرتيب التّأريخيّ التّقريبي لسورِ القُرْآن

A	رقم السُّورةِ
B	ترتيب جلال الدِّين السِّيوطي
C	ترتيب نِلدِكه
D	ترتيب موير

A	B	C	D	A	B	C	D	A	B	C	D
1	96	96	103	**21**	112	103	74	**41**	25	56	56
2	68	74	100	**22**	53	85	111	**42**	35	70	67
3	73	111	99	**23**	80	73	87	**43**	19	55	53
4	74	106	91	**24**	97	101	97	**44**	20	112	32
5	111	108	106	**25**	91	99	88	**45**	56	109	39
6	81	104	1	**26**	85	82	80	**46**	26	113	73
7	87	107	101	**27**	95	81	81	**47**	27	114	79
8	92	102	95	**28**	106	53	84	**48**	28	1	54
9	89	105	102	**29**	101	84	86	**49**	17	54	34
10	93	92	104	**30**	75	100	110	**50**	10	37	31
11	94	90	82	**31**	104	79	85	**51**	11	71	69
12	103	94	92	**32**	77	77	83	**52**	12	76	68
13	100	93	105	**33**	50	78	78	**53**	15	44	41
14	108	97	89	**34**	90	88	77	**54**	6	50	71
15	102	86	90	**35**	86	89	76	**55**	37	20	52
16	107	91	93	**36**	54	75	75	**56**	31	26	50
17	109	80	94	**37**	38	83	70	**57**	34	15	45
18	105	68	108	**38**	7	69	109	**58**	39	19	44
19	113	87	96	**39**	72	51	107	**59**	40	38	37
20	114	95	113	**40**	36	52	55	**60**	41	36	30

جدولٌ يظهرُ التّرتيب التّأريخيّ التّقريبي لسورِ القُرْآن (تابع)

A	رقم السُّورةِ
B	ترتيب جلال الدِّين السِّيوطي
C	ترتيب نِلدِكه
D	ترتيب موير

A	B	C	D	A	B	C	D	A	B	C	D
61	42	43	26	**79**	78	28	10	**97**	76	3	8
62	43	72	15	**80**	79	39	14	**98**	13	61	47
63	44	67	51	**81**	82	29	6	**99**	98	57	62
64	45	23	46	**82**	84	31	64	**100**	59	4	5
65	46	21	72	**83**	30	42	28	**101**	110	65	59
66	51	25	35	**84**	29	10	23	**102**	24	59	4
67	88	17	36	**85**	83	34	22	**103**	22	33	58
68	18	27	19	**86**	2	35	21	**104**	63	63	65
69	16	18	18	**87**	8	7	17	**105**	58	24	63
70	71	32	27	**88**	3	46	16	**106**	49	58	24
71	14	41	42	**89**	33	6	13	**107**	66	22	33
72	21	45	40	**90**	60	13	29	**108**	65	48	57
73	23	16	38	**91**	4	2	7	**109**	64	66	61
74	32	30	25	**92**	99	98	113	**110**	61	60	48
75	52	11	20	**93**	57	64	114	**111**	48	110	60
76	67	14	43	**94**	47	62	98	**112**	5	49	66
77	69	12	12	**95**	62	8	2	**113**	9	9	49
78	70	40	11	**96**	55	47	3	**114**	1	5	9

قائمةُ المراجعِ

التّفاسيرُ

باللّغة العربيّة: **البيضاويّ**، **الزمخشريّ**، **ابن عبّاس**؛

باللّغة الفارسيّة: **حُسين**؛

باللّغة الأرديّة: **خلاصة التّفاسير**، **القرآن المجيد** (شيعيّ)؛

التّفسير القادياني المكتوب بالإنجليزيّة *Holy Qur'an*؛

الترجمات الفارسيّة والأورديّة للآيات الواردة في النّص، وكذلك ترجمات القرآن **لنضر أحمد** و**أحمد شاه**.

الأحاديث

البخاريّ؛

الترمذيّ؛

مراجع أخرى معترف بصحتها، وأعمال المؤرخين المسلمين ذوي السمعة، كما تمت مراجعة كتب إسْلاميّة أخرى.

Nöldeke's *Geschichte des Qorāns*;
Muir's *Life of Muhammad*;
Margoliouth's *Muhammad*.

جميع المصادر التي أُشير إليها في الهوامش.

كتبٌ للمؤلِّفِ

The Faith of Islam. Fourth Edition, revised and enlarged.
The Life of Muhammad.
The Religious Orders of Islam.
The Recensions of the Qur'an.
Sufiism.
Bahaism.
Muslim Conquests in Spain.
The Druses.
The Cult of 'Ali.
The Mamluks in Egypt.
Outlines of Islam.
The Minor Prophets.
After Malachi.
The Life and Times of Jeremiah.
The Prophets of the Exile.
The Songs of the Outlaw.

